الجـــمـهـوريـــة الجـــزائـريـة الديمـــــقـراطيـة الـشـــعـبـيـة

وزارة التـــــعـلـيـم العـــــالي و البـــــحث العـــلـمـي

جامعة تلمسان

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في أدب المغرب الإسلامي و الحضارة المتوسطية

الوعي الحضاري في الأدب الموحدي

إعداد الطالبـــة :

زهيرة مشـرنن

إشراف الأستاذ الدكتور:

لخضر العرابي

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د.محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د. العرابي لخضر	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا
أ.د. محمد بن عمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
أ.د. أحمد موساوي	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي النعامة	عضوا
د. نورية بن عـدي	أستاذة محاضرة"أ"	المركز الجامعي مغنية	عضوا

السنة الجامعية: 1441-1442هـ / 2020-2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الجميل لأستاذي المشرف الأستاذ الدكتور " العرابي لخضر" على تقديمه لي يد العون والنّصح والإرشاد لاستكمال هذا البحث .

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأعضاء لجنة المناقشة الموَقّرين لتحملهم عناء قراءة هذا البحث وتمحيصه، وتقديم الملاحظات والتوجيهات الدّقيقة ليبلغ مستوى البحث العلمي المطلوب.

إهـــــداء

إلى الوالدين الكريمين برّا و إحسانا

إلى إخوتي تقديرا واحتراما

إلى أخواتي مودّة وعطفا

إلى كلّ من مدّ لي العَون شُكرا وامتنانا

إليهم جميعا أهدي هذا العمل المتواضع راجية المولى- جلّ جلاله- أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

زهـيرة

تُعدّ دولة المُوحّدين واحدة من أهم الحضارات الإسلامية الّتي شَهِدَتها الإنسانية فقد استطاعت بفضل الدّعوة المُحمّدية ، وتعاليم الدّين الحنيف أن تمتدَّ إلى مشارق الأرض ومغاربها، وتُوحّد بين عُدوتي المغرب والأندلس لأول مرّة في تاريخ المنطقة، كما شهدت الدّولة ازدهارًا كبيرًا وتطورًا ملحوظًا مسّ جميع الميادين، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، نتيجة الأمن والاستقرار الذي ساد المنطقة خلال فترة حُكمها، فضلا عن اهتمام حُكامها بالعلوم والفنون حيث اعتبروها من أولويات بناء دولتهم و نواة حضارتهم.

وفي ظل هذه الحضارة الزاهرة نما وتطور الأدب العربي الأندلسي والمغربي الّذي تجلى فيه كثير من ملامح تلك الحضارة وبيئتها المُترفة.

وغنِي عن القول:أن قيمة النصوص الأدبية الأندلسية والمغربية لا يدخلها الريب ولا يتطرق إليها الشّك، ذلك أنها مثلّت فترات من التاريخ المُوحّدي ، وكان لها أثرها في ذلك المجتمع، هذا الأثر – أثر النصوص الأدبية– الذي امتد إلينا، نحن الّذي تفصلنا عن قائليها أبعاد زمانية ومكانية شاسعة.

فدراسة الأدب المُوحّدي ، تكشف لنا من جانب عن تلك الحضارة الرفيعة التي كانت لأسلافنا ، في وقت غرقت فيه أوروبا في جهالتها، ويُطالعنا من جانب آخر، على المستوى الأدبي المتقدّم بين الأدباء الأندلسيين والمغاربة، الذين نافسوا المشارقة في إبداعهم.

وإذا كان الأدب في مُجمله هو انعكاسًا للبيئة والواقع ، فقد مثّل الأدب المُوحّدي هذا الانعكاس أفضل تمثيل من خلال ترجمة تلك الآثار الّتي خلّفها هذا العهد، حيث عبّر بلُغتها الحضارية الّتي تسرّبت إلى مُختلف مناحي الحياة، ولِكَوْن الأدب أحد المعايير البارزة في الحُكم على المستوى الفكري للأمم ، فقد فضّلت أن أقِف على حضارة المُوحّدين من خلال تراثها الأدبي، ومنه جاء عنوان بحثي الموسوم:" الوعي الحضاري في الأدب المُوحّدي" والذي حاولت من خلاله التعرض للعلاقة الحميمية القائمة بين الأدب والحضارة المُوحّدية.

لم يكن اختياري لهذا الموضوع من قبيل الصّدفة بل كان نتيجة رغبة شخصية تمثلت في إعجابي بدولة المُوحّدين، وما خلّفته من آثار وعلوم وحضارة، ومُحاولة المساهمة في إثراء التراث المغاربي وإحيائه ونَقله للأجيال اللاحقة من خلال إظهاره والتركيز عليه،لأن إحياء تراث أي أمّة يقع على عاتق أبنائها بالدرجة الأولى، بِحُكم انتمائهم إليها وعيشهم في رُبوعها ،لأن ذلك يُمكّنُهم أكثر من غيرهم من اكتشاف خصوصيات المنطقة ، وذلك بفضل احتكاكهم بها ومعرفتهم لآثارها.

ولقد حاولت في هذا البحث الإجابة عن مجموعة من الإشكاليات أذكر منها:

- ما هو الوعي و كيف أثر على الأدب؟
- ما طبيعة الموروث الثقافي والفكري الّذي خلّفه المُوحّدون؟
- ما هي أهم الظواهر الّتي ميّزت تفاعل الأديب مع مُجتمعه؟
- ما هي المظاهر الحضارية الّتي عكسها الأدب المُوحّدي؟

أما بالنسبة للمنهج المُوظَّف في هذا البحث، فقد عرف تشعُّبا نظرا لطبيعة الموضوع، حيث استعنت بالمنهج التاريخي عند العودة لأحداث تاريخية معيّنة، كما وظفت المنهج الفني عند قراءة النّماذج الأدبية، واستخدام آليات التّحليل والاستنتاج بغرض شرح وتبسيط النّصوص الشّعرية والنثرية.

وقد واجهتني مجموعة من الصّعوبات أثناء إعداد هذه الأطروحة لعل أبرزها طبيعة الموضوع الواسعة، فهي تجمع بين الأدب شعرًا ونثرا ، وكذا الحضارة بأبعادها المُختلفة ، مِمّا جعل الإلمام بجميع مظاهر العصر غاية في الصعوبة، فضلا عن ضياع العديد من أمّهات الكتب والدّواوين، ممّا شتّت الذّهن في نِسبة العديد من المقطوعات الشعرية لأصحابها، بالإضافة إلى عدم ضبط أغلب الأشعار بالشّكل ممّا صعّب معرفة معناها الحقيقي، وهذا يعود حتما لقِلّة الاهتمام بهذا الإرث المغاربي، وقد حاولت جُهد المُقّل شكلها، وقد طال الاختلاف بين كتب التراجم حول تواريخ ميلاد

العلماء والأدباء وخاصة مع امتداد حياة بعضهم إلى الدّول اللاّحقة ، وهو ما كان له تأثير كبير في اعتماد بعض النّصوص أو التّغاضي عنها.

ولدراسة هذا الموضوع اعتمدت على جُملة من المصادر أهمها ،"المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي، و"الذيل والتكملة" لعبد الملك المراكشي و"عنوان الدراية" للغبريني، و"زاد المسافر وغرّة محيا الأدب السّافر" للتّجيني وكتاب" نفح الطّيب من غصن الأندلس الرطيب" للمقري التلمساني، كما استعنت بِعَدد من المراجع منها: "النبوغ المغربي في الأدب العربي" لعبد الله كنون، و"رسائل موحدية" لأحمد عزاوي و"دولة الإسلام في الأندلس" لمحمد عبد الله عنان، إلى غير ذلك من المؤلفات.

واشتمل البحث على مقدّمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة، وبقائمة للمصادر والمراجع وفهرس للمواد.

ففي المدخل تطرّقت إلى علاقة الوعي والأدب والحضارة، وحاولت ذكر تعريفات مختلفة للمصطلحات، ومن ثم تناولت علاقة التأثير والتأثر بين الوعي والأدب من جهة، وبين الأدب والحضارة من جهة أخرى.

وخصّصت الفصل الأول للحديث عن الحياة العامة في عصر المُوحّدين، وذلك بالتعرف على مختلف الجوانب الّتي قامت عليها الدولة المُوحّدية، ثم انتقلت للحديث عن الحياة الثقافية والفكرية على هذا العهد، مُبينة إسهاماتهم في مختلف الفنون والعلوم.

بينما تناولت في الفصل الثاني العادات والتقاليد الّتي كانت سائدة بالبلاد المُوَحِّدية، فبدأت بعادات الزواج ، ثم العادات الجنائزية، فضلا عن المجالس العلمية الّتي كانت تُقام آنذاك، بالإضافة للأعياد والمواسم وألوانها، كعِيد الفطر وعيد الأضحى والمولد النبوي الشريف وغيرها، ثم تعرضت بعد ذلك للحياة اللّاهية التي ميّزت المجتمع في ذلك الوقت، وانتشار مجالس اللهو والرقص والغناء، وتحدثت أيضا عن زينة المرأة المُوحّدية، ورثاء الزوجات الّذي احتل مِساحة واسعة عند الشعراء في زمن المُوحّدين، ولم أنس التّعرض للمرأة الشاعرة الّتي بلغت شأنًا عظيمًا على هذا العهد ، كما تناولت

الإخوانيات من خلال تلك الخطابات الشعرية والنثرية التي كانت بين الشعراء والخلفاء والعلماء، فضلا عن أدب التعازي والنقد الاجتماعي.

ودرست في الفصل الثالث المظاهر الحضارية التي عكسها أدب هذه الفترة التاريخية ، من خلال تحليل نصوص شعرية ونثرية، للتعرف على المُستوى الحضاري الذي وصلت إليه الدولة المُوحّدية.

وأنهيت البحث بخاتمة احتوت على مجموعة من النتائج الّتي توصلت إليها من خلال دراستي لهذا الموضوع، ثم فهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

وفي الأخير أتقدّم بالشكر الجزيل والاحترام والتقدير إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدّكتور" العرابي لخضر" لرعايته لهذا البحث وإشـرافه عليه وتصويـبه على الرغم من – كثرة انشغالاته ومسؤولياته– حتى خرج في الصورة التي بين يدي القارئ ، وإفادته لنا بخِبرته العِلمية ، كما لا يفوتني أن أتوجّه بخالص الشكر والعرفان إلى أعضاء اللجنة المُوقَّرين ، الّذين أثْروا هذه الدراسة بملاحظاتهم القيّمة، وإرشاداتهم النفيسة.

تلمسان في: 24 ربيع الثاني 1442هـ

09 ديسمبر 2020م

الطالبة: زهيـرة مشـرنن

شُغِفَ الإنسان منذ القِدم بالكشف عن الغامض والمجهول، فَقاده هذا إلى لَوْن من المعرفة ، وحقق له أنماطا من الوَعْي ، ويُمثِّل الكَشف ، ابتداءً، إشباع حاجة الإنسان لأنه جُبِلَ على أن يكون أفضل مِمّا هو عليه ، فهو يسعى دائما لبِناء ذاته وتفاعُله مع بَني جِنسه ، فضلا عن مُحاولته لتكوين تصوّر عن العالم الّذي يعيش فيه .

لذلك حاول الإنسان مُمارسة المقاربات اليقينية من أجل إيجاد الحلول لمُعضلاته والإجابة عن الإشكاليات الّتي تُؤرّقه ، وتلك الممارسة كانت على الدّوام تتحقق بفعل اللّغة ، الّتي سايرت البشرية ، وأرّخت لانعطافاتها الفكرية والتأويلية سعيا منها إلى الارتقاء ، وأبانت عن ثراء الإنسان ككائن مُتميز ومُختلف ، يُؤسّس لحضوره الخاص بواسطة الخاصية المعرفية والإدراكية لديه ،عبر تفعيل وُجوده من خلال أشكال تعبيرية مختلفة ، تقوم على ممارسات نفسية واجتماعية وثقافية، تعمل كلّها على تأسيس إرث فكري وسلوكي يقودان البشرية نحو تحقيق فاعليتها.

ويُعدّ الأدب أحد أهم أشكال التواصل اللّغوي الّتي أخذت على عاتقها مُهمة "التبليغ" إلى جانب وظيفتي" التأثير" و"التبادل" [1]. فهل نجح الأدب – كَوْنه تُرجمان فِكر الإنسان– في مواكبة واقعِه الحضاري و رصده بدقة؟ أم أنه لم يخلص بعد من قُصوره احتواء الواقع ؟ [2] . وللإجابة عن ذلك وجَبَ علينا التّمعن في المفاهيم الآتية " الوَعْي" و" الأدب" و" الحضارة".

[1]– ينظر : جميل حمداوي ،التواصل اللّساني و السّيميائي و التّربوي ، الناظور– المغرب– ط1، 2015م، ص07 .

[2]– ينظر : أحمد طاهر، اللغة و الفكر ، الأربعاء 10ماي 2015م. Hamedtaher.com

1-الوَعْي:

إن قضية الوَعْي قضية هامة طرحت منذ القِدم ، وعُنِي بها الفلاسفة خاصة نظرا لاهتمامهم بالموجودات وإثارة الأسئلة حولها للوصول إلى اليقينيات ، فالحديث عن الوعي حديث مُتشعب لأنه يستحضر تاريخ المسارات الفكرية للإنسانية قاطبة في تنوُّعها واختلافها ، الّتي شكلت تغييرا جذريا في عملية تكوين المعرفة في نواحي عِدّة ترتبط بالأجناس والظروف والتحولات التاريخية المختلفة ، ونوع المجال المعرفي وما يحيط به من تغيرات خارجية ، ولأن الأمر سيتطلب منّا عرضًا عميقًا لموضوع الوَعْي ليس هذا مقامه ، فإننا سنكتفي برصد بعض التعاريف الّتي تحدثت عن الوَعْي في الفن عامة والأدب خاصة ، والّتي ستقودنا إلى تكوين مفاهيم متنوعة إزاء تلك الموضوعة ، الّتي أثْرَت مجالات البحوث الإنسانية وأبانت عن ثراء ممارسة الإنسان الفكرية ،الّتي تجعل ذاته و كل الموجودات من حوله موضوعا للوعي والتأمل والمساءلة، من أجل فهم الذات والعالم والوجود.

أ- الوَعي لُغة:

الوَعي: حِفظُ القَلْبِ الشَّيءَ، ووَعَى الشَّيءَ والحديثَ يَعِيهِ وَعْيًا وأَوْعَاهُ: حَفِظَهُ وفَهِمَهُ وقَبِلَهُ، فهُو وَاعٍ، و فُلان أوْعَى من فُلان أي أحْفَظ وأَفْهَم، قال الأزهري : " الوَعِيُّ الحافِظُ الكَيِّس الفقِيه، وفي حديث أبي أمامة : لا يُعَذِّبُ الله قَلْبًا وَعَى القُرْآن ، قال ابن كثير : أي عَقِلَه إيمَانًا بِهِ و عَمَلًا ، فأمَّا مَنْ حَفِظَ ألْفَاظَهُ وضَيَّعَ حُدُودَهُ فَإنَّهُ غَيْرَ وَاعٍ لَهُ"[1]. ووعَى الشَّيءَ في الوِعاء و أَوْعَاهُ : جَمَعَهُ فِيهِ ، قال عبيد بن الأبرص:

---

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري :لسان العرب، دار صادر ، لبنان، دت مج15، مادة وعَى، ص 396.

الخَيْر أَبْقَـــى و إِنْ طَالَ الزَّمَان بِهِ والشَرُّ أَخْبَـــثُ مَا أَوْعيْـــــتَ مِن زادِ [1]

ويقال:" اسْتَوْعَى فُلان مِن فُلان حَقَّه إذا أَخذَه كُلَّه ، و تَوَعَّى فِي الأمْر واسْتَوعَى: تأنّى فِيهِ واسْتَعمَل الحَزْم واسْتَوْعَبه"[2].

والوَعْيُ :" حِفْظُ الشّيءِ والجَمَاعَة مِن النّاسِ، ومَالَه عَنهُ وَعْيٌ : أيْ بُدٌّ وتَماسُكٌ، وهـــو مِن وَعَى العَظْمُ : إذا تَماسَكَ عِنْدَ الانْجِبَارِ"[3]، ووَعَى الحَدِيثُ وَعْيًا: أَيْ حَفِظَهُ، قال الله تعالى: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾[4]، وَالوَعْي هو الصَّوْتُ والجَلَبَة[5]، ووَعَى الأَمْر إذا أَدْرَكَهُ على حَقِيقَتِهِ[6]، والواعِي: "اسم فاعِل مِن وَعَى، وهو المُنْتَبِه المُدْرِك للأُمُور ولقَضَايا عَصْرِهِ "[7].

فالوَعْي بمعناه اللّغوي يعني الإحاطة بالشَّيء وحِفظَه وفَهْمَه وقَبُولَه واستيعابه وهي عمليات متسلسلة تُشكل عملية الوَعي ، وكلها تشير إلى معنى الترابط لا التشتّت ممّا يُؤسس لمَعنيين هامّين هما : معنى الفهم ومعنى التّماسك ، ولا يتحقق الفهم إلا بممارسة متماسكة الأوصال ، مجتمعة ومتناسقة الأطراف والمُكونات.

---

[1]– ابن منظور: لسان العرب ، مج15، ص396.

[2]– بطرس البستاني: محيط المحيط : اعتنى به و أضاف زياداته: محمد عثمان، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان– ط1، مج1، ص977.

[3]– إسماعيل بن عباد بن العباس ، أبو القاسم الطالقاني: المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان– ط1 ، 1414ه/1994م ، ج2، ص175.

[4]– سورة الحاقة :الآية11.

[5]– نشوان بن سعيد الحميري : شمس العلوم و دواء العرب من الكلوم، تح: حسين بن عبد الله العمري و آخرون دار الفكر المعاصر ، بيروت – لبنان – ط 1 ، 1420ه/ 1999م ، ص 7215.

[6]– جماعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، إصدار مجمّع اللغة العربية، القاهرة– مصر– ط1، 1379ه/1960م ص1044.

[7]– جماعة من كبار اللغويين العرب: المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية و الثقافة والعلوم، ط1 2003م، مج1، ص 1321.

ب- الوَعي اصطلاحا:

لا يوجد تعريف متّفق عليه بين الأوساط الأكاديمية لمُصطلح (الوَعْي) فهناك من يرى أن الوَعي هو:" الإدراك أو هو صَحوة الفكر أو العقل"[1]، و الوَعي في اصطلاح علم الاجتماع : "هو إدراك الفرد لنفسه و للبيئة المحيطة به "[2]، أي إدراك المرء لذاته و لِما يحيط به إدراكًا مباشرا ، و من ثم يُعد الوَعي أساس كل معرفة.

يرى (جون سكوت john scott) أن الوَعي هو الاستيعاب أو (الانتباه) إلى الظواهر المُتصورة أو الّتي يتم تجربتها، و يرتبط وَعي الشخص بالعالم من خلال توسط الحواس باعتبارها الوسيلة التي يتم من خلالها بناء التوجهات و دورات العمل[3]. فالحواس فالحواس هي الّتي تجعل الإنسان يُحسّ ، ويشعر بكل ما يدور حَوله ، في الطبيعة ، وفي الحياة الاجتماعية أيضا ، وذلك لأن الوَعي يمنح الإنسان قدرة تُمكنه من فهم حقيقة الأشياء ويجعله قادرا على أن يُقيّم و يفرق و يقارن و يستنتج ، ويُبدى رأيه في كل القضايا من حَوله.

ويُعرف الوَعي بأنّه " العِلم المشترك والمعرفة المتبادلة القائمة على إدراك الذات للآخر، للشيء ، للمحيط ، للعالم ، وهو الأداء المعرفي للعقل البشري "[4]. فالوَعي حسب حسب هذا التعريف يقتضى العقل ، هذا العقل الذي يجعل الفرد يرى الأمور ويعالجها

---

[1]- روابحي محمد: الهرمنيوطيقيا والوعي الفني في الخطاب الفلسفي الغربي المعاصر، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر،2012-2013م، ص17.

[2]- أحمد طاهر مسعود: المدخل إلى علم الاجتماع العام، دار جليس الزمان للنشر، عمان،ط1، 2011م ،ص103.

[3]- john scott : Conceptualising the Social world , principles of sociological Analysis cambridage , university press , new york, 2011, p 219.

4-عبد الباسط عبد المعطي : اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1981م ص206.

بموضوعية ، مُتنزِّها عن كل الرَّغبات والمُيُولات والعواطف الّتي كثيرا ما تُظل صاحبها وتُوقعه في الخطأ.

ويمكننا القول مما سبق أن الوَعي هو الحالة العقلية التي يتم من خلاله إدراك الواقع والحقائق التي تجري حَوله ، من خلال فهم واستيعاب تُحَققه الذات بما تحمل من قدرات وطاقات ، لكي تتواصل مع مُحيطها و مجتمعها .

2- الأدب

أ- لغـة :

ورَد في لِسان العرب أنّ" الأدب الّذي يتأدّبُ بِهِ الأَدِيبُ مِنَ النَّاسِ، سُمّي أدبًا لأنّه يأْدِبُ النّاس إلى المَحَامِد ، و يَنْهاهُم عَن المَقابِح ،وأصل الأدب الدُّعَاء ، ومِنه قِيل للصّنِيع الّذي يُدعَى إليه النَّاس مَدْعَاةٌ و مَأْدبَةٌ ، وأدُبَ الرَّجُلُ يَأْدُبُ أَدَبًا ، فهو أَدِيبٌ والأَدَبُ : أَدَبُ النّفسِ والدَّرْسِ ، والأَدَبُ الظَّرْفُ وحُسْنُ التَّنَاوُلِ ، فَهُوَ أَدِيبٌ مِنْ قَوْمٍ أُدَبَاء"[1].

ب- اصطلاحا:

تعددت التعاريف حول الأدب ، ولكن تكاد تتفق مُعظمها على أنّ الأدب لُغة إبداعية ، يتأثر ويُؤثر في البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها. يقول أنطونيوس بطرس " الأدب هو الإنسان بكل ما لكلمة إنسان من معنى ، لأنّه يصدر عنه ويتحدّث عن هُمومه وشؤونه ومشاغله ، وهو في ذلك انطلاق حُرّ لا يُمكن تحديده لأنّ النّفس الإنسانية بعيدة الغور مترامية الأبعاد، ومن العسير إخضاعها للتحليل العلمي الصّرف

[1]- ابن منظور: لسان العرب ، مج1، مادة (أدب) ، ص206.

ومن المستحيل حصر الأدب في حقل الفكر الموضوعي وتجريده من الارتعاشات الذّاتية الّتي تعطيه بُعده الإنساني وجماله و ديمومته"[1].

انطلاقا من هذا التعريف يتضح أن الأدب إنساني بالطبع لأنه يصدر عن الإنسان فيُصور أحاسيسه و فِكره و تطلعاته ، فقد شغلت قضايا المجتمع الأدباء ، حيث وعَى الأديب العربي الحياة وأدرك بنية العلاقات الاجتماعية السائدة ، والمُثل الأخلاقية التي تحكم هذه العلاقات وعيا فطريا لا ينفصل عن المجتمع.

ويُعرفه ميشال عاصي بقوله :" الأدب هو أحد الفنون الجميلة الخمسة : كالرّسم والنّحت والرّقص والموسيقى ، مثلها جميعا صناعة فنّية يُعبّر بها عن طوايا النّفس البشريّة في كل ما تضطرب به ، من أشتات الرؤى وخواطر الوجدان ، ولا يختلف عنها في شيء من حيث الغاية التّأثيريّة الّتي يسعى إليها كل فنّ جميل ، ومن حيث إنّها جميعا نشاطات جمالية من جملة النشاطات الّتي تؤلّف القطاع العقلاني" [2]. يشير هذا المفهوم إلى المؤثرات الوجدانية باعتبارها منبع وجود الأدب ، ثم يؤكد على غايته التأثيرية في النّفس البشرية ، فضلا عن اتسامه بالبعد الجمالي الّذي يُضفي على الإنسان المتلقي مُسحة عقلية.

ويرى محي الدّين أبو شقرا أن " الأدب ليس مجرد ألفاظ و تراكيب، بل يحمل صُورا، ومعاني وأحكاما مختلفة هي تعبير عن موقف الإنسان من الوجود والمجتمع والحياة في تفكيره وانفعالاته ونُزوعه، في تقبّله ما يقبَله، وفي رفضه ما يرفضه" [3]. لقد أخرج هذا التصور الأدب من إطاره اللّغوي الضيّق إلى وظيفته التعبيريّة الواسعة الّتي تترجم أفكار الأديب و قناعاته، وتعكس تصوراته ومواقفه من الحياة والمجتمع.

---

[1]– عادل سلامة : نظرية الأدب ، دار المريخ ، الرياض ، دط، 1992م، ص 132.

[2]– الفن و الأدب ، المكتب التجاري للطباعة و النشر– بيروت – دط، دت ، ص 74.

[3]– مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي ، المركز الثقافي العربي – المغرب – ط1، 2005م، ص45.

تتويجا للتعاريف السابقة يمكن القول : إن الأدب تجربة إنسانية انفعالية يُعبّر به الإنسان عما يجول في خاطره من مشاعر وأفكار وقضايا تشغله ، بكلام فني متمـــيز وتكمن غايته في وظيفته التأثيرية في المتلقي.

3- الحضارة :

مازال مصطلح الحضارة من المفاهيم التي يكتنفها الغموض، تبعا للنظرة المتفاوتة له من شخص إلى آخر، ولاختلاف المدارس الفكرية، وخلفية اتجاهات معناها بين المفكرين والفلاسفة و الباحثين.

ولتحديد المراد من هذا المصطلح يجب أن نُورد موجزا عما ورد بشأنه من تعاريف لغة واصطلاحا.

أ- لغة:

إن أصل لفظة الحضارة في المعاجم اللغوية العربية مأخوذ من الفعل حَضَرَ فيُقال "حَضَرَ يَحْضُرُ حُضُورًا وحِضَارَةً، والحَضَرُ خِلَافُ البَدْوِ ، والحَاضِرُ خِلَافُ البَادِي وفي الحديث الشريف(لا يبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ)، الحَاضِرُ: المُقِيمُ في المُدُنِ والقُرَى والبَادِي : المُقِيمُ فِي البَادِيةِ ، والحَاضِرَةُ خِلَافُ البَادِيَةِ: وهي المُدن و القُرى والرّيف ، سُمِّيت بذلك لأنّ أَهْلَهَا حَضَرُوا الأَمْصَار ومَسَاكِنَ الدِّيَارِ الّتي يَكونُ فِيها قَرَار." [1]، وهو المعنى نفسه الّذي أورده الزّبيدي في مُعجمه ، والرازي في صحّاحِه حيث أكّدا أن الحِضارة الإقامة في الحَضر[2].

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب ، مج4، مادة (حضر)، ص 196.

[2]- ينظر : محمد مرتضى الزَّبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق، عبد الستار أحمد فرَّاج ، سلسلة التراث العربي ، الكويت ط2، 1965م، ج11، مادة (حضر) ، ص 37. محـمد بن أبي بكـر الرازي: مخـتار الصحاح ، دار الفكر ، بيروت – لبنان – ط1، 1986م ،ج1، مادة (حضر) ، ص 59.

ويظهر من خلال هذه التعاريف اللغوية أنها لا تختلف في مضامينها ، فإن غاية ما انتهت إليه معاجم اللغة أن الحضارة مقابلة للبداوة ، ثم أخذت تدل على الإقامة في الحضر ، وما يُرافقها من مظاهر التّقدم والتّفنن والتّرقي .

ب- اصطلاحا:

ليس هناك تعريف مُحدّد للحضارة ، ولعل ذلك ناتج عن عدم تكامل الرؤية لمفهوم الحضارة ، فكل طائفة عبّرت عنها بناء عن تصوّرها الخاص الذي ينسجم مع تكوينها الثقافي والنفسي، ونجد أن أوّل من تطرّق لهذا المصطلح عند العرب ابن خلدون (ت808هـ)، هذا ما أشار إليه عماد الدين خليل بقوله:" يكاد يكون ابن خلدون أول من نبّه إليها واستخدمها في مقدمته، إلا أن اصطلاحه الّذي كان يستغني به معظم الأحيان عن هذه الكلمة بقوله (العمران البشري) الّذي يقابل الحضارة البشرية" [1]، فهو يُعرّفها فيقول :" إنه تفنّن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني، والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها صنائع في استِجَادته ، والتأنّق فيه تختص به ، ويتلو بعضها بعضا وتتكثّر باختلافِ ما تنزعُ إليه النُّفوس من الشَّهوَات والملَاذ والتّنعّم بأحوال التَّرَف ، وما تتكوّن به من العوائد"[2]. لقد ضيّق ابن خلدون من معنى الحضارة وجعلها مرتبطة بالجانب المادي المحض ، وأغفل الجانب القيمي والأخلاقي من قاموس التحضر والرُقَي.

وهذا التصور للحضارة يجعلها تتلاقى والمدنِيّة المشتقة من المدينة فيقال:"(مَدَنَ) فلان بمعنى أتى المدينة، و(تمَدَّن) عاش في المُدُن وأخذ بأسباب الحضارة والمدنيّة في

[1]- التفسير الإسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان – ط2، 1978م، ص173.

[2]- عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، حقّق نصوصه و خرّج أحاديثه ، و علّق عليه :عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب – سوريا – ط1 ، 2004م،ج1، ص 338.

أوسع معانيها تعنى الحضارة واتساع العمران" [1]، ويدور مفهومها أيضا حول" نمط حياة المدِينة بما تعكسه من قِيم ، وسُلوكيات، ونُظم ومؤسسات..." [2] أي مجموعة القِيم والمفاهيم في مناحي الحياة المختلفة، الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وما يتناسب وحاجات الإنسان وتطلعاته في الكون والحياة. وتدل المدينة كذلك على تطور راقٍ، لأن فيها تتجمع الكفاءات الّتي لا نلقاها في البوادي، وتظهر في كنفها مظاهر التطور التقني والعلمي والفكري والفني والأدبي.

ويبقى التباين واضحا بين المعنيين، حيث دلّت الحضارة (civilisation)عند الفرنسيين على "المسار الّذي يجعل النّاس متمدِّنِين" [3] ، وهناك من عدّ الحضارة عقل و رُوح ، والتمدن عقل بلا رُوح ، وأن التمدن تفسير للحضارة[4] .

ومن الباحثين من ذهب إلى " أن رُقي الحياة الإنسانية ذات بُعدين أساسيين: بُعد شكلي ، وبُعد داخلي ، لذا أطلقوا مصطلح (المدنِيّة)على ما يتم من رُقي حقيقي داخلي في مضامين الحياة الحضرية الجوهرية ، ومصطلح (الحضارة) أطلقوه على الارتقاء الشكلي في وسائل العيش وأدوات الإنتاج و طريقة تنظيم البيئة " [5]، ويُمكن القول إن الحضارة أعم من المدَنِيّة ، وما المدَنِيّة إلا مظهر من مظاهر الحضارة.

---

[1]– ينظر: صبحي صالح ،الإسلام و مستقبل الحضارة ، دار قتيبة، دمشق– سوريا– دار الشورى ، بيروت– لبنان– ط2 ، 1982م ، ص 19.

[2]– نصر محمد عارف : الحضارة – الثقافة – المدنيّة ، المعهد العالي للفكر الإسلامي، عمان– الأردن– 1994م/ 1415هـ، ص 34.

[3]– يحي سعيد محمد قاعود : النّظام العالمي الجديد ، مركز البيان للدراسات والبحوث ، الرياض ، دط ، 2015م ص 35.

[4]– ينظر: أحمد رمضان : الخلافة في الحضارة الإسلامية، دار البيان العربي ، جدة– المملكة العربية السعودية– ط1، 1403هـ /1983م ، مج1، ص 109.

[5]– اشبنغلر ، اسوالد : تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة : أحمد الشيباني ، دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان– ط1 ج2 ، ص 87.

والناظر في دراسات المُحدثين عن الحضارة يرى أنهم قد ذهبوا في تحديد دلالتها مذاهب شتّى ، تميل في أغلبها إلى ربطها بالاقتصاد من جانب ، وبالثقافة من جانب آخر ومن ذلك قوْل(ويل دْيُورَانْتْ Will Durant) : " الحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزِّيادة من إنتاجه الثّقافي ، وتتألّف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنّظم السياسية، والتّقاليد الخلقية و متابعة العلوم و الفنون ، وهي تبدأ من حيث ينــتهي الاضطراب والقلق ، لأنّه إذا أمِن الإنسان من الخَوف ، تحرّرت في نفسه دوافع التطلّع وعوامل الإبداع والإنشاء"[1]. يجعل القائل الحضارة نسقًا مجتمعيًّا يقوم على مقومات رئيسية ذات صلة بالسياسة والاقتصاد والأخلاق والعلوم والفنون ، تنحُو نحو غاية أساسية تتمثل في مساعدة الإنسان على تنمية رصيده الثقافي، وتقوِية مُنتَجِه المعرفي ، ويرى أن الحد الفيصل بين الحضارة واللاّحضارة مرتبط بأمن الإنسان ، إذ يعيش المجتمع طور الحضارة والتمدّن لمّا ينعم أفراده بالطمأنينة والاستقرار، فتتزع إرادتهم الحرّة نحو البناء والخَلق والتشييد والإسهام في ترقية الحياة البشرية كلها.

أما (مالك بن نبي) فقد أعطى تفسيرا ديناميكيا لمشكلات الشّعوب والّتي ترجع في الأصل إلى مشكلات الحضارة ، حيث لا يمكن للأمم أن ترتقي إذا لم تعرف الأسباب التي تساعدها على ذلك، فيُعرِّف الحضارة من الوجهة التحليلية بالمعادلة الرياضية الآتية : الحضارة = الإنسان +التراب +الوقت ، فهو يرى أن بناء الحضارة لا يكون بتكريس المنتجات و إنما بحلّ المشكلات الثلاثة من أساسها[2].

فابن نبي يحمل أي جُهد أو مُنتج حضاري ، في صورة هذا التفاعل الأوّلي بين عنصر الإنسان صاحب الجهد المنجز ، وعنصر التراب الّذي يستوجب استغلاله أحسن

[1]–ويل ديورانت: قصة الحضارة ، ترجمة محي الدين صابر ، و زكي نجيب محمود، دار الجيل للمطبوعات و النشر و التوزيع ، بيروت – لبنان– دط، دت ، مج1، ص 03.

[2]– ينظر : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، سوريا، 1986م ص 60– 61.

استغلال، وعنصر الزمن الّذي هو شرط أساسي لأي عملية إنجازية يقوم بها الإنسان وقد ركّب هذا النِّتاج بالفكرة الدينيّة(الدين) [1]، مركِّب القيم الاجتماعية ، فهو يدعو إلى تفعيل العقيدة وحضور الدين في الحياة الاجتماعية ، لأن العقيدة وقود الدّين ولا تعني الركون إلى زوايا التخلف والكسل ، بل هي عامل إبداع وتأثير على كل المستويات. فالمنتج الحضاري لأي شعب من الشعوب هو المادة الأولى الّتي يقوم عليها استمراره وأمْنه القومي ، وبقدر ما يملك من طاقة بشرية فاعلة وإرادة طبيعية للبقاء ، وقدرة على تفاعل المنتج الحضاري وامتزاجه بعقيدة راسخة تضمن تماسكه ووفرة عطائه، حتما سينعكس هذا على تحقق الأمن و الاستقرار ، وبذلك يتحقق الاستثمار وينبني العمران .

ومن وِجهة الوظيفة الّتي تُؤديها الحضارة، فإن ابن نبي يرى في ضرورة توفّر " مجموع الشُّروط الأخلاقيّة و المادّية الّتي تتيح لمجتمع معيّن أن يقدِّم لكلِّ فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وُجوده، منذ الطفولة إلى الشَّيخوخة، المساعدة الضَّرورية له في هذا الطّور أو ذلك من أطوار نموِّه" [2]. فهو ينظر إلى الحضارة بمِقدار ما تُقدمه للفرد من ضمانات، تلك الضمانات الّتي يقدمها المجتمع لأي فرد من أفراده في مرحلة تاريخية معينة، من مَوْلده إلى انقضاء وُجوده الاجتماعي، هذه الضمانات هي بمثابة شروط ذات وِجهتين مادية ومعنوية.

ويُعد حسين مؤنس من الباحثين الّذين حاولوا تحديد الحضارة ، فقد ربطها بالتاريخ/ الزمن، ووسَّع مضمونها لتشمل نِتاج الإنسان المُحصّل عليه بفضل جهده في سبيل تطوير حياته و تحسينها ، يقول: "الحضارة – في مفهومها العام– هي كلّ جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان هذا المجهود المبذول للوصول إلى

[1]– ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة : ص 62.

[2]– مالك بن نبي: القضايا الكبرى ، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان – ط1 ، 2014م، ص 43.

تلك الثمرة مقصودا أو غير مقصود ، سواء أكانت الثمرة ماديّة أم معنوية" [1]، وهذا المفهوم مرتبط أشد الارتباط بالتاريخ ، لأن التاريخ هو الزمن ، والثمرات الحضارية الّتي ذكرناها تحتاج إلى زمن لكي تظهر ، " وكما أن ثمر الزروع والأشجار لا يطْلع إلا بفعل الزمن إذ لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما في نفس الوقت ، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزّمن إلى جهد الإنسان"[2].

ويُعبِّر حسين الحاج حسن عن الحضارة فيقول :" إن الحضارة تجسيدٌ عمَلي للنشاط الفكري عند الإنسان عبر اجتيازه مَعارِج الحياة ، وتاريخ الحضارة سِجِلٌّ لتطور عطاء هذا الفكر ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة من اقتصادية و سياسية واجتماعية وإدارية وحَرْبية وعُمْرانية وأدبية ، كما تتناول الحضارة ، إلى جانب ذلك وسائل إنتاج الإنسان ومستوى معيشته ، وفنونه الجميلة ، ومعتقداته الدينية ، وكيفية تحصيله عُلومه ، وطُرق صياغة آدابه ، ووسائل كِفاحه المستمر مع نفسه أولا ، ومع الطبيعة ثانيا من أجل البقاء" [3]. فهي بهذا التعريف كل ما يُنشئه الإنسان في ما يتعلّق بنشاطه العقلي والروحي، المادي والفكري ، ويتضمن أيضا الفنون والآداب وأساليب الحياة والإنتاج الاقتصادي، ونُظم القيم والتقاليد والمعتقدات، التي تميّزه عن غيره من الأفراد.

---

[1]– الحضارة دراسة في أصول و عوامل قيامها و تطورها ، عالم المعرفة – الكويت – دط ، 1987م ، ص 13.

[2]– محمد حمزة إسماعيل الحداد : المُجْمَل في الآثار و الحضارة الإسلامية : ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهـــرة – مصر – ط1، 2006م، ص22.

[3]– حضارة العرب في صدر الإسلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت– لبنان– ط1 1412هـ/ 1992م، ص16.

ويُعرّف (إدوارد تايلور Edward Taylor) الحضارة بأنها" درجة من التّقدم الثقافي تكون فيها الفنون والعلوم والحياة السياسية في درجة متقدمة" [1]، أي إن التحضر ، في نظَرِه مرتبط بالتاريخ الثقافي ، إذ يتحقق عندما يبلغ تطوّر أشكال المعرفة والثقافة مستوى راقيًا من التقدم والتبلور والنضج. وهنا جعل الحضارة مرادفة للثقافة، وسنحاول الوقوف على معنى لفظة ثقافة.

3- الثقافة:

بالنسبة لجِذر اللفظ في اللغة العربية هو ثَقِفَ، و الّتي تعني "سُرعة التعلم ، ومنه المُثَاقَفَةُ وهي المُغَالَبَة فِي الحَذْقِ والفِطْـنَةِ وإِدْرَاكِ الشّيءِ، والتثْقِـيف هُـو التَّأْديـب وَالتَّهْذِيب"[2]، يقال : ثَقُفَ الرُّمْحُ قَوَّمَهُ و سوّاهُ، والثِّقَافُ حَدِيدَةٌ تَكُونُ مَعَ القَواسِ والرِّمَاحِ يُقَوَّمُ بِهَا الشَّيءُ المُعْوجُّ " [3]، و" ثَاقَفَ فُلانًا: لاعَبَه بالسِّلاح " [4]، أي الضَّرب والمُلاعَبَة بالسّيف، و" ثَقَفتُ الرَّجل في الحَرْب أَدْرَكْتُه و ظَفرتُ بِه"[5].

من مجموع هذه النُّقول في بيان الدلالات اللغوية لكلمة (ثقافة)، يتضح أنها تُحيل إلى معاني استيعاب المعارف واكتساب المهارات ، والصّقل والتّهذيـب ، وتـقويم الاعوجاج والإدراك والظّفر.

---

[1]–دنيس كوش : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة منير السعيداني ، مراجعة الطاهر لبيب ، المنظمة العربية للترجمة ، لبنان ، ط1، 2007م ، ص 29.

[2]– ابن منظور: لسان العرب ، مج9 ، مادة(ثقف)، ص 19–20.

[3]– الزبيدي : تاج العروس ، ج23، مادة (ثقف)، ص 60–64.

[4]– الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت– لبنان– ط2 ، 1406هـ ، مج3، مادة(ثقف) ص125.

[5]– ينظر : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، جمهرة اللغة ، حققه رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين – لبنان – ط1 ، 1986م ،ج1، مادة(ثقف) ، ص 429.

وفي دلالتها الأجنبية فإن كلمة "الثقافة" (culture) مشتقة" من أصلها اللاتيني (cultura) وهي لفظة تعني تعهّد النّبات وحرثه ورعايته حتى يُثْمر، ومن فِعل (colere)الّذي يحمل مجموعة من المعاني كالسكن والتهذيب والحماية والتقدير إلى درجة العبادة" [1] ، وقد كانت دلالة الأصل اللاتيني في العصور القديمة والوسيطة مقصورة "على تنمية الأرض و محصولاتها، و منها جاءت كلمة (Agriculture)"[2] وفي أوائل العصور الحديثة بدأت اللفظة تُستعمل في الإنجليزية و الفرنسية بمدلولَيها المادي والعقلي ، مع إضافة الشيء المقصود تنمِيته . وغدت (culture) بهذا المعنى المُطلق تدل على تنمية العقل والذوق ، ثم انتقلت إلى حصيلة المكاسب العقلية والأدبية والذوقية، وانتقلت هذه الكلمة من" الفرنسية إلى الألمانية في أواخر القرن الثامن عشر بشكل cultur) ثم (kultur) وانتقل معها معناها الأخير أي الإنماء العقلي والأدبي"[3].

وفي أواخر القرن التاسع عشر أضحت هذه اللفظة تُطلق على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات، وهذا هو" أصل المعنى الاصطلاحي الّتي تحوِيه كلمة (culture) اليوم عند عِلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وما لبثت أن انتشرت لتحمل هذا المعنى في لُغات العالم"[4].

يحمل هذا التعريف معاني صقل الذهن والذوق والسلوك وتنميته وتهذيبه، وهنا تكون الثقافة عمَلية رِعاية وإعداد مُستمر للعقل وللروح البشرية.

ويُعَرف المعجم الفلسفي مصطلح الثقافة على النحو الآتي " كل ما فيه تنوير للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النّقد والحُكم لدى الفرد، أو في المجتمع، وتشمل على

[1]– ريموند وليامز : الكلمات المفاتيح ، ترجمة نعيمات عثمان ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة– مصر– ط1 2005م ، ص 94.

[2]– ينظر: دنيس كوش ، مفهوم الثقافة ، ص17.

[3]– قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ، دار العام للملايين ، بيروت– لبنان– ط4 ، 1981م ، ص 33.

[4]– نفسه: ص 34.

المعارف والمُعتقدات ، والفن والأخلاق ، وجميع القُدرات الّتي يُسهم بها الفرد في مجتمعه، و لها طُرق و نماذج علمية وفكرية و روحية ، ولكل جِيل ثقافته الّتي استمدتها من الماضي، وأضاف إليها ما أضاف في الحاضر، وهي عنوان المجتمعات البشرية" [1]. يجعل هذا التصور الثقافة إخصابًا للعقل واستثمار لقدراته، وهي كذلك تراكمات متتابعة في زمن الإنسان، كخبرة مكتسبة بالتجربة الفردية والجماعية، الّتي تُميز مجتمع من المجتمعات.

وأبرز تعريفات الثقافة، وأوسعها انتشارا ، ذلك التعريف الّذي قدَّمه لها (إدوارد تايلور Edward Taylor) ،الّذي ذهب إلى أن الثقافة " ذلك الكلّ المركّب الّذي يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون، وكل القدرات والعادات الّتي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع" [2]، ويقصد هنا مجموع المكاسب العقلية والروحية والأدبية والفنية الَّتي يكتسبها الفرد من مُحيطه البيئي الذّي يعيش فيه.

وقد حاول العرب وضع تعريف للثقافة ومن أشهرهم :(مالك بن نبي) حيث قال: "هي التركيب العام لعناصر أربعة هي: الأخلاق والجمال والمنطق العلمـي والصناعة"[3] ، فالمبدأ الأخلاقي في مشروع مالك بن نبي الثقافي يحتل مركزًا جوهريًّا في بُعده الاجتماعي ، فهو يرى أن العناصر المادية وغير المادية لا تصنع ثقافة ، بل لا بدّ من عنصر أخلاقي يربط بينهما ويُقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الغايات والأهداف، ويضيف ذوق الجمال الَّذي يراه من العناصر الحيوية في الثقافة لأنه يُحرِّك في الفرد الهمّة والفعالية ، ويزيد العنصر الثالث وهو المنطق العلمي أي كيفية ارتباط العمل بمقاصده ، ويُؤكّد أن الّذي ينقص المُسلم ليس منطق الفكرة بل منطق العمل

[1]– مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للكتاب – القاهرة – 1979م ، ص 58.

[2]– دنيس كوش : مفهوم الثقافة ، ص31.

[3]– مشكلة الثقافة ، دار الفكر ، بيروت– لبنان– ط4 ،1984م، ص 67.

والحركة ، ومن المُسلّم به أن الصناعة للفرد وسيلة لكسب عيشه و بِناء مَجده ، وهي للمجتمع وسيلة للمُحافظة على كيانه واستمرار نموّه. فالثقافة على هذا النحو ممارسة وسلوك وفعل، لذلك قيل:" الثقافة نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة"[1]، وفي هذا المَساق يقول (حسن الأمراني):" إن الثقافة ما لم تتحول إلى فِعل أو تعمل على دفع الإنسان إلى الفِعل ، تفقد شرائط وُجودها ، و تُصبح نوعًا من الترف الفكري الّذي يُكبِل الطاقات و يُعيقها عن الانطلاق ، إن الفعل الثقافي ينبغي أن يُنمِّي في الإنسان ، أساسًا، نوازع البناء، وإن شِئت فقُل: إن الفعل الثقافي ، ككل فعل تغييري ينبغي أن يشتمل على عُنصُري الهدم والبناء : هدم العناصر المُظلمة الّتي تَشدُّ الإنسان إلى الحضيض وتَعوقه عن الانطلاق... وبناء العناصر المُشرقة الّتي تدفع بالإنسان إلى الحركة من أجل أن يسمو إلى مكانة التكريم الإلهي"[2].

وإذا كانت الحضارة ظاهرة إنسانية عامة، ما دامت" كل أجناس البشر مُتحضّرة وما من شعب إلا وله مستواه الحضاري" [3]، فإن الثقافة تختلف من حضارة إلى أخرى فهي معيار الخصوصية والتفريق بين الشعوب، إنها المُحيط الّذي يُكوَّن من جُملة مقومات تعكس حضارة معيّنة، والّذي يتحرك في نِطاقه الإنسان المُتحضِّر. يقول حسين مؤنس عن خصوصية الثقافة وارتباطها الوثيق بمحيطها:" الثقافة هي ثمرة كل إنسان محلي نابع عن البيئة ومُعبَّر عنها أو مُواصِل لتقاليدها في هذا الميدان أو ذاك، فالشعر الإنجليزي والموسيقى الإنجليزية كلها مظاهر ثقافية ، لأنها تُعبِّر عن الطبيعة الإنجليزية وطبيعة مُنْشِئِيها ، وكذلك الحال بالنسبة للأدب العربي والموسيقى العربية، وتراثنا الأدبي في جملته هو تراث الشعر العربي كله... و كلما كانت الظاهرة الحضارية أكثر التصاقًا

[1]– مالك بن نبي : مشكلة الثقافة، ص73.

[2]– مجلة المشكاة : ثقافتنا المعاصرة بين الكائن و الممكن ، وجدة– المغرب– عدد14 ، 1991م ، ص6.

[3]– مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 83.

بطبيعة البلد الّذي قامت فيه فهي ثقافة" [1]، فالموروث الحضاري لأمّة من الأمم يميّزها عن غيرها في مناحي الحياة ونُظمها، وهو يعكس المبادئ الّتي تقوم عليها نظرتها للكَون والحياة والإنسان والمعرفة. وإذا كانت الثقافة هي جملة الأفكار والمفاهيم والعـــادات والتقاليد والشَّرائع واللّغة والتّاريخ والأدب المسؤولة عن إبراز شخصية الأمة، فهذا يعني أنّ الأدب ركن من أركان الثقافة.

وبما أن الأدب رُكن في الثقافة والثقافة بدورها هي الرّكن الرُّوحي للحضارة يمكن القول إنّ الأدب رُكن في الحضارة ومظهر ثقافي لها ، ينسجم معها و يُؤثّر ويتأثَّر بها.

4- الوَعي والأدب

يتأسّس الوَعي في الفلسفة الوُجودية على مجموعة قيم خاصة ، ولكنّها لا تخرج عن نطاق الحس والعقل ، حيث يتطرق (جون بول سارتر Jean Paul Sartre) في قضية الوَعي لموضوع الإدراك الحسي و يقصد به" تمثّل الأشياء حضورًا فعليّا ، ولأن الفن هو عمل إدراكي فإن أحد الدواعي الأساسية للخلق الفني ، حاجتنا إلى الشعور بأننا ضروريون بالإضافة إلى العالم" [2] ، وبذلك يصبح موضوع الفن هو العالم بوصفه هدف الفنان الّذي يسعى من خلاله لفهم الموجودات ، والّذي بفضله تسعى الذات إلى البحث عن الحقائق الموجودة في الواقع المجسّد من خلال خبرتها به ، عَبْر مَنحها مدلولات خاصة ومتنوعة ، فالشجرة مثلا كموجود حقيقي لا يمكن أن تكون لها قيمة في الوجود الخارجي ، من دون وَعي الإنسان بوجودها ، حيث يمنحها مدلولات متنوعة نابعة من خصائصها العلمية والاجتماعية والثقافية والجمالية، كأن يمنحها معنى الحياة أو الجمال أو الأمان وذلك بأشكال تعبيرية متنوعة ،كالكتابة الّتي من مميزاتها "كشف العالم ، فهي

[1]- الحضارة دراسة في أصول و عوامل قيامها و تطورها ، ص 318.

[2]- جون بول سارتر: ما الأدب ؟ ترجمة: محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة – مصر – دت ، ص 42-55.

تكتشف ثم تقترح ذلك الاكتشاف للقارئ كواجب يقوم به "[1]، وسمة الوَعي لدى الوُجوديين مرتبطة باستعادة الصور المحسوسة ، على اعتبار أن قيمتها لا تتشكل إلا بعد وَعْي الإنسان بها ، فـالتّصورات والأفكار الّتي تحققها الذات الواعية في تواصلها مع العالم الخارجي ، هي ما يشكل لتلك الذات نصوصا ومَقولات ، تتراكم عبر التاريخ لتشكل إرثا معرفيا تتناقله الإنسانية ، وتُضفي عليه كل ذات من وعيها الخاص بها ، وتَشَكُّل تلك النصوص والمقولات متنوع الأنماط ، لأن الذا ت الإنسانية متعددة القدرات ، مما يجعل عملية الوَعْي متنوعة في ممارساتها ، ومن تلك الأنماط النمط الأدبي ،" الّذي يعتبر شكلًا من أشكال الوعي الإنساني"[2] ، مارسه الإنسان منذ القدم ، وهو يحاول فهم وجوده وفهم العالم من حوله ، ذلك الوَعْي الذي يختلف عن أشكال الوَعْي الأخرى لأنه خبرة من خبرات الإنسانية التي لا يمكن نُكران دورها في فهم العالم ، وفي تشكيل الوَعْي البشري بالواقع ، وهو من "سيقف وراء بقاء الإنسان وحِفظ نوعه وتَشَكُّل حضارته"[3] .

إن الأثر الأدبي نِتاج ، وتعبير ، ووسيلة للكشف عن ذات المُبدع ووَعيه بالعالم وهذا الأخير ما كان ليقوم ويتجسد أدبا لولا فاعلية علاقته بالواقع الاجتماعي ، لأن الواقع الاجتماعي يُخصب الأدب بإغنائه لتجربة الأديب الفنية، يشير (غاستون باشلار Gaston Bachelard)في هذا الموضوع إلى أهمية أن يعكس الأدب الواقع باعتباره "إنتاجا مباشرا للقلب وللروح والكائن"[4]،لأن تفاعل الأديب مع قضايا مُجْتَمَعِه هو في عمقه وعْي اجتماعي ، تستدل به الجماعة على استبصار قِيمها ومعاييرها ودَورها الاجتماعي والتاريخي ، فرؤى العالم الّتي يُقدمها الأديب هي مُحصلة تفاعل ذلك

---

[1]- جون بول سارتر : ما الأدب ؟ ص 59.

[2]– شكري عزيز الماضى : في نظرية الأدب ، دار الحداثة ، بيروت – لبنان– ط1 ، 1986م ، ص 84.

[3]– عبد الله الفريجي: الأفكار المُسبقة و أسس بناء الوعي ، مجلة النّبأ – لبنان– عدد ديسمبر ، 2001م، ص 22.

[4]– جان إيف تاديه : النقد الأدبي في القرن العشرين ، تر: منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري للدراسة و الترجمة و النشر – سوريا– ط1 ، ص 55.

الأدب مع حرك ـة العالم الخارج ـي على جُل مس ـتوياته السياس ـية و الاجتم ـاعية والاقتصادية والثقافية ، وذلك التفاعل لا يخرج عن إطار الانعكاس فالمجتمع يتحرك وتتشكل طبقاته وتوجهاته الفكرية ، والأدب يتتبع تلك الحركة بإعادة ت ـــصويرها وإيضاحها وبيان مجاهيلها . وهذا ما أكده الماركس يون الّذين يُلِحّون على ضرورة أن يعكس الأدب الواقع الاجتماعي وأن يلتزم بقضايا الطبقات ، ويكون قادرا أن يدرك صيرورة الصراع الاجتماعي ، ويجسده في عمله بوسيلته الفنية[1]، وعلى مسألة الانعكاس بدا أمرًا بديهيًّا أن يعكس الأدب قضايا المجتمع و هُمُومِه .

ولذلك يرى (ماثيو آرنولد Matheo Arnold)أن الشاعر قبل أن يكتب الشعر "عليه أن يعرف الحياة والعالم من حوله قبل أن يعالجها في شعره" [2]، كما أنه مُلزم بمعرفة أدواته الخاصة ، حتى يتمكن من تحقيق دوره ، لأن تشكل الوعي الشعري لا يكون من العدم ، بل مادته الخام تأتيه من العالم الخارجي الّذي يمدُّه بعناصر متنوعة وهذا التفاعل مع الخارج عائد إلى أهمية الشعر في معالجة الواقع ، كما بقية العلوم الّتي يسعى من خلالها الإنسان إلى تحسين مُستواه الوُجودي.

وفي إطار ربط الأدب بالحركة الخارجية للعالم يشير(جان بابتيست فيكو Jean Baptiste viko) إلى أن المجتمع " لا يُقدم ببساطة مسرحيات وأشعار وروايات لكنه ينمي أدبا و أدباء يستخلصون أعمالهم و مهاراتهم الفنية و نظرياتهم منه "[3].

ويستهدف(لوسيان غولدمانLucien Goldman) رصد رؤى العالم من الأعمال الأدبية عبر"عمليتي الفهم والتسيير، ويعد المبدع في النص الأدبي فاعلا اجتماعيا يُعبّر عن وَعي طبقة اجتماعية ينتمي إليها، وهي تتصارع مع طبقة اجتماعية أخرى لها

[1]– ينظر : سيد البحراوي : المدخل الاجتماعي للأدب ، دار المعارف ، القاهرة– مصر– ط2 ، دت ، ص 29.
[2]– فصول في النّقد : ترجمة ، علي أدهم ، مكتبة الأسرة – مصر – ط1 ، 1994م ، ص 26.
[3]- دياب محمد حافظ : النّقد الأدبي و علم الاجتماع ، مجلة فصول ، عدد1 ، 1985م ، ص 60.

تصوراتها الخاصة للعالم "[1]، فهو يُترجم آمال الطبقة الاجتماعية الّتي ترعرع معها ويصوغ منظور هذه الطبقة الّتي يعبّر عنها بصيغة جمالية و فنية، وهذا لا يتحقق إلا بممارسة واعية، يمارسها الأديب إزاء نفسه وأداته الإبداعية، فالعلاقات الّتي تربطه بهذه الطبقة متعددة المستويات من جغرافيا وفكر وسياسة وثقافة، أي هي علاقات مع بيئة مُعينة في إطارها الزماني والمكاني .

ثالثا: الأدب ينطق بلغة الحضارة

تعدّ بيئة الأديب المُوجه المُباشر لشكل ومضمون الأعمال الأدبـــية ، لذا يقال:" الأديب ابن بيئته" يتأثر بها ويُؤثر فيها ، ومن هذا المعنى يقول أحـــمد رشوان: " فالذَّوق العام عند البدو يختلف عن الذّوق العام عند الحضر ، لِما بين البيئتين من فوارق مادية ومعنوية ، من حيث إنّها تُمثِّل المادّة الأوَّلية الّتي يصوغ منها فنّه أو أدبه"[2]. فالتغيير الذي طرأ على حياة العرب بانتقالها إلى حياة الحضارة والترف والرخاء رافقه تغيّر في كثير من أنماط الحياة ، وتبدّل في الفكر والثقافة واللغة.

ويظلّ تأثير البيئة في الأدب قائما لدى معظم النّقاد الّذين تعرضوا لهذه القضية ومن هؤلاء عثمان موافي الّذي يقول:" وبذلك تأثر الأدب العربي القديم بالتّطور الّذي طرأ على البيئة العربية ، فبعدما انتقلوا من البداوة إلى الحضارة ، ومن الجفاء والخشونة إلى الرِّقة والنُّعومة، تغيَّرت طباعهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وقد حمَلهم هذا على ترقيق ألفاظهم، و تبعه تطوّر في لغة أدبهم فظهر أسلوب تعبيري خاص بالحياة الجديدة"[3].

---

[1]– جميل حمداوي: مدخل إلى البُنيوية التكوينية : مقال على شبكة الأنترنت ، موقع منبر الوطن.

[2]– المكتب الجامعي الحديث : الأدب و المجتمع ، دراسة في علم اجتماع الأدب ، الإسكندرية – مصر– 2005م ص 47.

[3]– في نظرية الأدب ، من قضايا الشعر و النّثر في النّقد العربي القديم ، دار المعرفة الجامـــعية، الإسكنـــدرية – مصر– 2000م، ج1، ص 132.

هذه النّقلة النّوعية الحضارية مسّت الحياة الاجتماعية في عمقها ولامست أدق تفاصيلها، لذلك حاول الأدباء التعبير عنها، بِنقل مظاهر هذه البيئة، وتصور تفاعلهم وتأثرهم بها. " ولقد كان هذا الانتقال الجماعي في خواطر الشعراء أبلغ منه في خواطر الكُتاب، فإن أولئك بالخلفاء ألصق ونفوسهم بالتّرف والمدنيَّة أعلق"[1].

لقد سعى الشعراء في كثير من الأحيان إلى الخروج عن "النّمط التقليدي في بناء القصيدة العربية ، وأرادوا أن يتجاوزوا بالشعر من التعبير عن الذات ، إلى اتخاذ موقف من الحياة ، ليتجاوز شعرهم الحدود المكانـــية والزمانية الجزئيـــة إلى حدود كُليـــة ومُطلقة"[2]، وبذلك صار المجال مفتوحا أمامهم للتعبير بحرية أكبر دون تعصب لتقاليد الشعر العربي، " بانصرافهم عن المُقدمة الطلَلِية ووصف الراحلة ، فانتقل خيالهم من البوادي المُجدية إلى الرّياض الناضرة ، والقصور الشاهقة حين أحسّوا بضرورة الاستجابة لقيم الحياة الجديدة " فاشتقوا معانيهم من الواقع الحضاري الّذي يعيشون فيه"[3].

لذلك كان لِزاما على الشعراء استيعاب مظاهر حياة التحضر والمدنيّة الجديدة بإنتاج نمط جديد ، فالشاعر لم يعد المُدافع عن القبيلة المُتغنِّي بأمجاد الماضـــــي والواقف على الزّمن يبكي فراق الحبيبة ، بل يسعى لتحقيق مصلحته الذاتية لنيل ما يرغب من ملذات ومسرّات ،" فالشاعر هو أصل متواضع في أغلب الأحيان ، إلا أنه مستخدم بالضرورة لدى فئات المجتمع المستهلكة للثقافة"[4].

---

[1]– أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، دار الشرق العربي ، القاهرة– مصر– ط1، 2005م، ص 235.

[2]– محمد زكي العشماوي : موقف الشعر من الفن و الحياة ، دار النهضة ، بيروت– لبنان– ط1 ، 1981م ص 10.

[3]– أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي ، ص 237.

[4]– جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية ، دار توبقال للنشر و التوزيع ،الدار البيضاء– المغرب– ط1 ، 1996م ص 66.

إن الشعراء اتصلوا بالخلفاء والأمراء فظفروا ونعموا بالملذات، وإن كانوا من أصول متواضعة، لأنهم بذلوا بشعرهم في سبيل الارتقاء نحو مظاهر المدنِيّة الجديدة ، فأنتجوا أنماطا تستجيب لوضعهم الجديد .

ولذلك يُعد الأدب مرآة الحضـــارة يعكسها في قوتـــها وضعفـــها، وتقدمها وانحطاطها وحيويتها وتحجّرها، صِلة وصْل الأمة بماضيها وأمجادها، وخزانا لثقافتها وقِيمها وصائغا للغتها، ومعبّرا عن ذوقها الجمالي.

فالأدب ينطق بلغة الحضارة التي نشأ في أحضانها عبر التّأمل والرُّؤية ، فيتأثر بها شكلا ومضمونا، ويـنقل كل مظاهــرها الاجتماعيـــة والاقتصـــادية والثقافيــة والعمرانية، ويُعبِّر عنها بِمَعان وألفاظ وأساليب وأغراض تناسب طبيعتها، وبموضوعات نابعة من بيئتها الحضارية، وهذا ما سنراه من خلال الوقوف على ما خلّفة أدباء العصر الموحدي ، وهم يُجسدون ما وعُوه من واقع حياتهم بمختلف أشكالها.

سنحاول في هذا الفصل التعرّف على دولة المُوحّدين انطلاقا من نِظامها الاجتماعي وإنتاجها الثقافي الّذي يُسهم في تنمِيتها، ونُلامس مختلف العناصر الّتي تمسّ الحياة اليومية للفرد، سواء المتعلّقة بالناحية السياسية وذلك بالتعرّف على مختلف الأنظمة الّتي قامت عليها الدّولة ، أو الاقتصادية وما يختص بها من زراعة، وصناعة وتجارة، واجتماعية و ذلك بالتطرق لمختلف الأجناس الّتي ضمّها المجتمع ، إلى جانب العلوم والفنون النّي أنتجها الإنسان بعدما تحقق له الأمن والاستقرار، فتحرّرت في نفسه دوافع الإبداع والإنشاء.

أوّلا- لمحة عامّة عن عهد المُوحّدين:

1- نبذة تاريخية عن قيام دولة المُوحّدين:

لم تنعم دولة المرابطين بالهُدوء منذ ظهور الدّاعية(محمد بن تومرت) [1]على مسرح الأحداث ، هذا الرجل الّذي شبّ قارئًا محبًّا للعلم والتعليم ، بدأ دراسته في المغرب ثم رحل إلى الأندلس ثم المشرق لمزيد من الدّراسة والتّحصيل ، فاجتمع بِعدَد كبير من العلماء ، وأفاد مِما كانت تزخر به حلقاتهـم من جدل عقلي ودِراسات فلسـفية لم يكن له عهْدٌ بها من قبـل ، فأصبـح مُحيطا "بمعرفة الفرق الإسلامية والمذاهـب الفلســفية

[1]- هو المهدي بن عبد الله محمد بن تومرت العلوي ، الحسيني ، من هرغة إحدى قبائل المصامدة في جبل السوس وُلد سنة 471هـ، كان فقيها فاضلا، عالما بالشريعة ، حافظا للحديث ، عارفا بأصول الدين والفـــقه ، رحل إلى المشرق لطلب العلم فعاد بحرا متفجرا من العلوم . توفي سنة 524هـ . ينظر: أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتاني الم .عروف بابن القطان المراكشي ، نظم الجمان لترتي ب ما سلف من أخ بار الزمان ، درسـه و حققه محمد علي مكي ، دار الغرب الإسلامي – لبنان – ط1، 1990م، ص 88، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم المشـهور بالزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية ، تحقيق و تعليق ، محمد ماضور ، المكتبة العتيقة – تونس – ط2، 2002م، ص6.

والتيارات الفكرية الّتي يزخر بها العالم الإسلامي" [1]. وقد أفاد من كل هذا في صياغة مذهبه الخاص [2]، الّذي هو عبارة عن مزيج من الآراء الصوفية والنزعة الشيعية.

بعد هذا المِشوار الطويل في طلب العلم ، رجع ابن تومرت إلى المغرب" آمرا بالمعروف ، وناهيا عن المنكر ، داعيا إلى تخليص العقيدة من شوائب الشرك ، مُتهما المرابطين بالانحراف والجُمود والعجز عن تحرير الأندلس من النّصارى" [3]، فعقد المناظرات الّتي انتهت لصالحه ، واستمال النّاس مُستفيدا من عِلمه وفصاحته ،فانضمّ إليه عدد كبير من الصّحب والأتباع ، وبعد استكماله لتنظيم جيشه ،" شن هجوما على المرابطين ، وما كاد اللّقاء يقع بين الجيشين حتى هزم المرابطون، واستولى المُوحّدون على الخيل والسلاح ، وطاردوهم حتى مدينة مراكش، وكان ذلك سنة 516هـ"[4] وسار المهدي من نصْر إلى نصْر إلى أن توفي سنة 524هـ[5] ، وبوفاته اتفق شيـــــوخ

[1]– حسين مؤنس : معالم المغرب والأندلس ، دار الرشاد ، القاهرة – مصر– ط2، 2004م، ص 203.

[2]– تأثر ابن تومرت من خلال دراسته بالمشرق بالنظريات المشرقية في علوم الكلام و الأصول و السنة ، كما تأثر بتعاليم الأشعرية و أخذ عنهم ، واستحسن طريقتهم في الانتصار للعقائد الس ـــــلفية و الدفاع عنها ، و في تأويل المتشابه من القرآن ، وأُعجب بأفكار المعتزلة و مبدأ إنكارهم للصفات ، أي إلصاق صفات إنسانية للذات الإلهية وبذلك يكون مذهب ابن تومرت خليطا من مذاهب وفرِق شتى وُجدت بالعالم الإسلامي. ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خ ـــلدون المسمّى ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، تحقيق ، خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع – لبنان– دط 2000م،ج6، ص 302. أبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق :أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين دار المنصور للطباعة و الوراقة – المغرب– 1971م، ص 16.

[3]– البيذق: أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين ،ص17 –32.

[4]– علي محمد الصلابي : إعلام أهل العلم و الدين بأحوال الموحدين ، دار التوزيع و النشر الإسلامية ، القاهرة – مصر– ط1، 2002م، ص80.

[5]– البيذق: أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين ، ص40.

المُوحّدين على مبايعة عبد المؤمن بن علي(ت 580هـ)[1] لأنّه الأقدر على حمل أعباء هذه الدولة الفتية ، و لأنّه أقرب النّاس إلى زعيمهم ، فأخذ يجهز الجيوش لغزو المَغرِبَين الأوسط والأدنى، ولم يتوقف عن زحفه حتى انصاعت له القبائل بالولاء والطاعة ، وما إن فرغ عبد المؤمن من توحيد المغرب وضبط أموره ، حتى توجّه بقُواته إلى الأندلس الّتي مزقتها الفتن وأضْعفها الصراع على السلطة والتنافس والشقاق ، فنزل "بجبل طارق وسماه جبل الفتح وكان له بهذا الجبل يوم عظيم لَقِيته فيه وفود الأندلس مبايعة مُعلنة ولاءها"[2]، وبعد وفاته سنة (558هـ)، خلفه ولده أبو يعقوب يوسف (ت580هـ)[3] الذي استمر في البناء والتشييد والجهاد في الأندلس والقضاء على الثورات والفتن في المغرب الأقصى، وافته المنية بسبب سَهم أُصيب به في إحدى معاركه مع الصليبيين بعد

[1]– هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي الكومي المؤسس الفعلي للدولة الموحدية ، وُلد سنة 487هـ في أسرة فقيرة في قرية تاجرا نواحي ندرومة ، طلب العلم في بلدته ثم رحل إلى بجاية حيث التقى "بابن تومرت" الذي لاحظ عليه النبوغ والعبقرية ، كان عالما حازما ، فقيها حافظا للسُّنة ، وأديبا بارعا ، حافظا للتاريخ و أيام العرب ، توفي سنة 558هـ بمدينة سلا ، ودفن بتينمل قرب قبر ابن تومرت ، ينظر: ابن القطان ، نظم الجمان ، ص 209–213 الزركشي تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية ، ص09–13، عادل نويهض : أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى الوقت الحاضر ، المؤسسة الثقافية للتأليف والترجمة والنشر – لبنان– ط2، 1980م، ص 219.

[2]– ينظر : ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة و جعلهم الوارثين تحقيق عبد الهادي التازي دار الأندلس ، بيروت – لبنان– ط1، 1964 م ، ص 149، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان – ط1 ،1998، ص 151.

[3]– هو يوسف بن عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي ، كان فقيها حافظا ، ميالا للفلسفة و الحكمة أكثر من مَيله إلى الأدب و بقية العلوم ، حلو الكلام ، حسن الحديث، طيب المجالس ، توفي سنة 580هـ . ينظر : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان : وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس دار صادر، بيروت– لبنان– دط، دت ، ج7 ، ص 130–131 .

خِلافة قاربت الثلاثين سنة. فبويع لابنه يعقوب المنصور (ت595هـ)[1] الّذي أتمّ إخضاع الأندلس ، ودعم الوجود العربي بها ونظّم شؤونها وحصن ثغورها واستطاع إحراز النّصر على ملك قشتالة ألفونس الثامن في موقعة "الأرك" سنة(591هـ)[2]،الّتي أخرّت – إلى حين– سقوط الأندلس بيد النصارى، وزادت من هيبة المُوحّدين ومكانتهم بالشمال الإفريقي، وبعد وفاته سنة (591هـ) تولّى خلـــفا له ابـــنه محمد الملقــب بالنـــاصر (ت610هـ)[3] الّذي توجّه إلى الأندلس سنة (609هـ) لمُنازلة النّصارى في موقعة العقاب [4]، وبعد قِتال عنيف مُنِيَ بهزيمة ساحقة راح ضحيتها عدد كبير من الجند مما أضعف دولة المُوحّدين وأفقدهم هيبتهم ، وبعد شهور قلائل تُوفي الناصر ، فدخلت الدّولة مرحلة من الفوضى ، وحلّ الصراع بين أفراد البيت المُوحّدي، فضلا عن اندلاع الثورات في أماكن متعددة ، ولم يتمكن الخلفاء المُتأخرين من إرجاع مكانة الدّولة حين

---

[1]– كان الخليفة المنصور صافي السمرة جميل الوجه ، ضخم الأعضاء ، جوهري الصوت ، من أصدق الناس وأحسنهم حديثا ، وأكثرهم إصابة بالظن ، تولّى وزارة أبيه ، فبحث عن الأحوال بحثا شافيا ، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور، أول من كتب العلامة بيده (الحمد لله) ، بنا المساجد و المدارس في بلاد إفريقية و المغرب و الأندلس، و بنا الماريستانات للمرضى والمجانين وبنا الصوامع والقناطر. ينظر: أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي:الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار الطباعة المدرسية ، دب ، دط ،1843م، ص 217–218. علي محمد الصلابي :تاريخ دولتي المرابطين و الموحدين في الشمال الإفريقي ، دار المعرفة ، بيروت– لبنان– ط2، 2005م، ص 254.

[2]– راغب السرجاني :قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط : ، مؤسسة اقرأ للنشر و التوزيع و الترجمة – مصر– ط1، 2011م ، ص689.

[3]– هو محمد الناصر ابن يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن ، وُلد سنة 576هـ، كان شابا طموحا فارسا شجاعا معتزا بنفسه و برأيه ، تولّى عرش الموحدين و هو ابن ثمانية عشر عاما ، أمر ببناء وجدة المغربية كما أُصلحت على يده كثير من جزر الأندلس ، استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية ، خاض مـــعركة العقاب و انهزم فيها و بهذا انهار حكم الموحدين بالأندلس. ينظر : تاريخ ابن خلدون ، ج 6، ص295. ابن خلكان وفيات الأعيان ، ص 15.

[4]– العقاب: معركة جرت بموضع يسمّى العقاب ، بين جند المسلمين بقيادة الدولة الموحدية و النصارى انتقاما لهزيمتهم في معركة الأرك فيها فُني عساكر المغرب والأندلس ، ينظر : ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب، ص 181.

بدأ الهرم يدُب في أوصالها ومالت شمسها إلى المغيب فكان سقوطها سنة (668هـ)[1] بعد أن عمّرت قرابة قرنا ونصف قرن من الزمان ، فكانت أعظم حضارة استطاعت توحيد بلاد المغرب والأندلس لأول مرة في التاريخ.

2- النظام الإداري:

امتاز العصر المُوحّدي بالاعتناء بالجانب الإداري ، حيث أقام الحُكام إدارة مُحكمة ، وبرعوا في جانب التخطيط والتنظيم ، ويُعد ذلك من مظاهر القوة الّذي شكل عنصرا من الطابع الثلاثي للدولة(العظمة، الدين، التجديد) .

كان الخلفاء المُوحّدون يُمثلون أعلى سلطة في دولتهم ويحملون لقب"أمير المؤمنين"[2] خلافا للمرابطين ، يساعدهم في تسيير أمور الدولة موظفون كبار كالوزراء الّذين "استعان بهم الحُكام للقيام بأعباء الحكم والإدارة" [3] ، وقد انحصر دورهم في الدولة على الجانب التنفيذي ، أي أنهم كانوا ملزمين بتنفيذ أوامر الخليفة وتعاليمه [4]، أما عن مهامهم فقد تنوعت تِبعا للظروف الّتي مرّت بها البلاد ، حيث تولّى بعضهم أمور الجيش والإشراف على شؤون الحرب ، كما أسندت للبعض الآخر الوقوف "على أعمال البناء والتعمير أو النّظر في المظالم"[5].

---

[1]- ينظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان، ص 18.

[2]- أول من سُمي به في الدولة الموحدية عبد المؤمن بن علي سنة 528هـ ، ينظر : ابن أبي زرع :الأنيس المطرب ص187.

[3]- ليلى أحمد النجار :المغرب و الأندلس في عهد المنصور الموحدي ، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي ، جامعة أم القرى ، مكة- المملكة العربية السعودية، 1409هـ/1989م، ص351.

[4]- البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص 59.

[5]-ابن القطان : نظم الجمان ، ص102-104.

وسعى الخلفاء إلى اتخاذ الكُتاب لمُعاونتهم في إدارة شؤون البلاد ، وحَفل عهدهم بعددٍ كبيرٍ من الأسماء اللامعة في الكِتابة مثل: عبد الرحمن بن عياش من أهل برشانة*في الأندلس ، وأبي الفضل بن محشوة من أهل بجاية ، وقد كان كاتب أبيه من قبل ، وجمع بين براعة الكتابة وسِعة الروايــة وغزارة الحفـــظ ،إضافة إلى ذكائـــه وقوة بديهته[1].

وقد تنوعت اختصاصات الكُتاب، فمِنهم من اختص بكتابة "المراسيم السلطانية والرسائل المُوحّدية إلى الوُلاة والقُضاة"[2]، وهناك من أُسندت له مهام عسكرية ، كما تولّى بعض الكُتاب مهمة "مُحاسبة العمال على تقصيرهم و سوء تصرفاتهم"[3].

إلى جانب الوزير والكاتب استعان المُوحّدون بالحاجب الّذي عمِل على تنظيم الصلة بين "الحكام و الرّعية، وطريقة دخولهم على الخليفة حسب أهمية حوائجهم"[4].

ومن المناصب الإدارية على هذا العهد "ولاة الأقاليم" الّذين غالبا ما يكونون من طبقة السادة أو أشياخ المُوحّدين، وعن المهام الّتي أوكلت إلى الولي نجد أن مهمته كانت عسكرية بالدرجة الأولى، إضافة إلى "سعيه للقضاء على الفتن والثورات وحفظ الأمن ودفع الخطر الخارجي ، كما أوكلت له مهام إدارية أخرى كالإشراف على البناء والزراعة"[5] .

---

*برشانة: من قرى اشبيلية بالأندلس ، ينظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت – لبنان– م ج1، ص 384.

[1]– ينظر: ليلى أحمد النجار، المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي ، ص354.

[2]– حسن علي حسن : الحضارة العربية الإسلامية في المغرب و الأندلس (عهد المرابطين و الموحدين) ، مكتبة الخانجي– مصر– ط1، 1980م ، ص 119–120.

[3]– ليلى أحمد النجار : المرجع السابق ، ص355.

[4]– حسن علي حسن : المرجع السابق ، ص122.

[5]– لسان الدين ابن الخطيب :الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1 دت، ص 114.

وقد اهتم الخلفاء بمراقبة ولايات الدولة و مدى اهتمام الوُلاة بأمور الرعية و قيامهم بواجباتهم، وفي كثير من الأحيان كان الخليفة يسير بنفسه لتفقد أحوال المُدن والأقاليم للاطمئنان عليها .

وعلى الرّغم من اتساع رقعة الدولة المُوحّدية ، وبُعد الوُلاة عن مركز الخلافة إلا أن الأوامر والأخبار كانت تصل الوُلاة والموظفين في مختلف الأقاليم، بفضل تطوّر البريد ، الّذي اعتنى به المُوحّدون فنظموه بشكل مُتقن وسريع" ليلا ونهارا ، برّا وبحرا" [1] وكانت وسيلة تنَقُّل حامل البريد إما الدّواب بين المُدن أو السفن في حالة نقل الأخبار إلى الأندلس.

كما أولى المُوحّدون وظيفة صاحب الشرطة اهتماما كبيرا وأسندوا منصبها إلى كِبار رجال المُوحّدين ، وقد ظهر هذا المنصب في عهد يوسف بن عبد المؤمن الّذي زوّد المدن المغربية والأندلسية "برجال أكفاء للـــسهر على أمنها وحماية أرواح الناس والسهر على صيانة حقوقهم ، ومعاونة الحاكم في إقامة الحدود ، كما خصص للأسواق والطرقات رجال من الشرطة لحراستها من اللصوص والمُتسللين خاصة أثناء الليل"[2].

كما لعب القضاء دورا هاما بين أجهزة الدّولة المُوحّدية ، حيث أسندت لهذا الجهاز مهمة الفصل بين الناس فيما يقع بينهم من خصومات، بغية إقرار الحق وصيانة الأمن والهدوء بين الرعية .

وقد عرفت دولة المُوحّدين صنفين من القُضاة : قاضى الجماعة الذي يتولى الفصل في بعض القضايا الكبيرة [3] ،أما الصنف الثاني فهُم قُضاة المُدن الّذين كُلفوا

---

[1]– ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص53.

[2]– ابن خلدون : المقدمة ، ج1، ص202.

[3]– ينظر : عز الدين عمر موسى ، الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونُظمهم، دار الغرب الإسلامي بيروت– لبنان– ط1، 1991م، ص230.

بالقيام على المسائل القضائية الداخلية [1]، وفيما يخص تعيين القُضاة فنجد أنه كان من صلاحيات الخليفة ، إذا ما توافرت فيه شروط تولِّي هذا المنصب من الصحة والعقل والإسلام والعدالة والعلم بالأحكام الشرعية [2]، وقد شدّدت أوامر الحُكام على وُجوب إقامة العدل بين الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يسود جوّ من الأمـــن والاستقرار في البلاد.

3- النظام العسكري:

حظي الجيش المُوحّدي باهتمام خاص من قبل الخلفاء الّذين زوّدوه بالعدة والعتاد وأنفقوا عليه الكثير من المال والجهد حتى يتناسب مع النشاط العسكري الكبير للدولة في مختلف الجبهات.

أما عن تكوين الجيش فقد ضم عناصر مختلفة منهم: القبائل البربرية خاصة المصامدة، إضافة إلى العرب من بنى هلال وسليم ، وبعض بقايا المرابطـــين من صنهاجة، ناهيك عن العناصر الأجنبية من الروم والسودان[3].

واعتنت الدولة بالتدريب الحربي فربّت شبابها تربية حربية مُسطرةً برنامجًا حربيًا مُحكمًا، وكان التدريب يرتكز على رُكوب الخيل والرّماية بالأسلحة المختلفة وكذا رياضة السباحة والتجديف وقيادة السفن والمُسايفة، وكان المُوحّدين يقومون بمناورات استعراضية خصوصا قبل السّير في الميدان وبعد الظفر في المعارك ، مما كان يتيح لأفراد الشعب أن يشاهدوا عن كَثب مبْلغ القوة العسكرية الّتي تحافظ على سلامة البلاد في الداخـــل

[1]- ينظر :أبو العباس أحمد بن محمد بن عذارى ،البيان المغرب في اختصار أخبار الأندلس و المغرب ، حققه و ضبط نصّه و علّق عليه: محمود بشار معروف ، دار الغرب الإسلامي ، تونس، ط1 ، 2013م ، ص170.

[2]- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، الماوردي: الأحكام السلطانية و الولايات الدينية ، مطبعة مصطفى الحلبي ط3، 1393ه/1973م، ص 271.

[3]- ينظر:ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص124.

وتُسجّل مزيدا من الأمجاد في الخارج ، وكان الاستعراض مُنَظّمًا ومُنَسّقًا حيث يخرج الخليفة "ويحضر في مكان فَسيح فتتطارد الخيل أمامه وتتطاعن الفرسان وتتداعى الأقران، وتُقام صفوفها على سبيل التمرين والاختبار، حتى يُخيّل للشاهد أنها حقيقة ثم تتفرق العساكر ويعود الخليفة بمَوكبه" [1]، ويصف عبد الواحد المراكشي هذه الاستعراضات بقوله :" أمر عبد المؤمن بعرض العسكر آخذين أسلحتهم وجلس في مكان مُظل ، وجعلت العساكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة بعد كتيبة ، لا تمر كتيبة إلا والّتي بعدها أحسن منها جودة سلاح ووفرة خيل وظهور قوة"[2].

كما اهتمت المؤسسة العسكرية في دولة الموحدين بجانب التّعبئة المعنوية لما لها من أهمية في تكوين واستعدادات الجيش وكسب المعركة ، وأوكلت هذه المُهمة إلى فئات مؤثرة في المجتمع لعبت دورها المنُوط بها ، وهي فئة العلماء والفقهاء وطبقة الشعراء ، وكذا التأليف والرسائل الّتي أدت دورا دعائيًا وتعبويًا للجهاد .

أما قيادة الجيش فكانت تُوكل لأبناء الأسرة الحاكمة من الشيوخ المُوحّدين، وكان لكل قبيلة قائدها ، وقبل كل معركة يُعقد مجلس حربي يضُم كِبار القادة لوضع الخطة المناسبة على ضوء ما لديهم من معلومات استخبارية ، قصد إيجاد التعاون والتنسيق بين كافة أفراد الجيش أثناء المعركة[3].

ومعظم ملوك المُوحّدين ساهموا في الحملات العسكرية بأنفسهم، ومَهما يكن مصيرها من فشل أو نصر يرتبط بالمُقررات الّتي يتخذها المجلس الحربي والّذي كانت لهم رئاسته وتوجيهه ، وكثير منهم اشتهر ببطولة نادرة ، حتى أن "الناصر الّذي انهزم

---

[1]– أبو العباس القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب المصرية ، القاهرة – مصر – ج5 1922م ، ص205.

[2]– عبد الحق المريني : الجيش المغربي عبر التاريخ ، مكتبة المعارف الجديدة ، الرباط، ط5، 1997م ،ص36.

[3]– ينظر : ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص406.

في معركة العقاب قد لَزم مكانه إلى آخر لحظة حتى انسحب كل جيشه عن الميدان ولم يلازمه إلا بعض الخدم مِمن لا يُغنون غَناء الجيش ، حتى ألحّ عليه فارس عربي بمغادرة المكان ، فغادره مغمُوما "[1].

واعتمد المُوحّدون في حُروبهم على أقوى الأسلحة المعروفة على عهدهم فاستخدموا" السيوف والحِراب والسهام والرّماح الطّوال والدّروع والنّبال " [2] واتخذوا في حِصارهم للمدن والأسوار عدّة آلات وحفروا حولها الخنادق ، واستعملوا شتى الطرق لدخولها فكانوا يدُكّون الحصون بالمنجنيق ، ويجرّون الدبّابات ذات الطوابق، ويتسلّقون أسوارها بالسلالم ويقذفونها بالكُرات الملتهبة [3]، كما شيّدوا القلاع والأربطة والمنارات لوسائل دفاعية حربية [4].

أما الخطط الحربية المُتبعة ، فقد اعتمدت في الغالب على المُباغتة وتحرك الجيش سرّا ، كما اعتمد المصامدة الحِيَل الحربية ، من نَصب الكمائن واصطناع الفِرار واستدراج العدو، واستخدام الجواسيس، وكانت طليعة الجيش تقوم بالهجوم المُمَهد وينتظم الجيش المحارب في" شكل مُربع ، إذ يصطف الرّجال بالقنا الطّوال ووراءهم أصحاب الدروع والحِراب ، و يليهم أصحاب المخالي المُحمّلة بالحجارة ثم الرُّماة بقوس الرُحل ، ويتوسط المُربع الخيّالة ، فيما يجلس الخليفة في قُبة حمراء وراء الجيش"[5].

---

[1]–عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي القاهرة – مصر – ط2 ،1990م، ص312 .

[2]– ابن عذارى : البيان المغرب، قسم الموحدين ، ص 205.

[3]– ينظر ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص408.

[4]– ينظر : أحمد مختار العبادي : صورة من حياة الحرب و الجهاد في الأندلس ، منشأة المعارف، الإسكندرية – مصر – ط1، 2000م، ص210.

[5]– محمد لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، عُني بتصحيحه البشير الفورتي مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ط1، ص 132.

كما اهتم المُوحّدون بتقوية أسطولهم لحماية سواحلهم والحفاظ على سيادة بلادهم "حيث قدرت قطَعه بأربعمائة قطعة ، موزعة بين موانئ المغرب العربي والجزر الشرقية"[1]، ولم تكن هذه القِطع متشابهة الحجم والشكل ، بل كان لكل منها هندسة خاصة و مُهمة خاصة بها أيضا ، وتختلف أسماؤها تبعا لذلك ، ومنها" الحراقات الّتي كانت تحمل المنجنيقات القاذفة للنفط المُشتعل" [2] ، والّتي تؤدي مُهمة شبيهة بما تقوم به الدبابات اليوم ، وسفن الإنقاذ الّتي تُدعى بالمسطحات وهي تعمل على إنقاذ السفن الصغيرة من الخطر، إضافة إلى الطريدة والغراب [3]، والشّيني المُجهز بأبراج الدفاع [4] وقد بلغ تطور الأسطول المُوحّدي مَسمع الشرق والغرب ، حتى أن صلاح الدين الأيوبي طلب من المنصور قِطعا من الأسطول لردّ النّصارى عن سواحل الشام [5].

وكان من الطبيعي أن يخلّف هذا التطور الحاصل في الميدان العسكري انتصارات متتالية، نتج عنها مكاسب لخزينة الدولة الّتي تعددت أصنافها بين حيوانات [6]، ونساء[7] وطعام، وثياب[8]، وأسلحة [9]، كما انعكست الانتصارات إيجابا على المُوحّدين حين هزموا هزموا المشركين و أثاروا الرّعب في نفوسهم.

---

[1]– أحمد السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تعليق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء – المغرب– دط، 1418هـ/1997م، ج2، ص128.

[2]– محمد المنوني ، العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، الرباط– المغرب– ط2،1397هـ–1977م ، ص 255.

[3]– ينظر :أحمد عزاوي ، رسائل موحدية "مجموعة جديدة"، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، المغرب، ط 1 2002م، ج1، ص 240.

[4]– محمد المنوني ، العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين، ص256.

[5]– ينظر:ابن خلدون ،المقدمة ، ج1، ص 440.

[6]– ينظر:ابن القطان ، نظم الجمان ، ص 164.

[7]– البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص 56.

[8]– البيذق: المصدر نفسه، ص 163.

[9]– أحمد عزاوي : رسائل موحدية، ص 57.

4- الحياة الاجتماعية:

شهد المسرح الجغرافي المُوحّدي عناصر متعددة من السكان، وجنسيات مختـلفة كان في مقدمتهم قبائل" البربر" [1] وهم السّواد الأعظم من المجتمع وأصـــحاب البلاد الأصليين، وعَاش معهم العرب الّذين دخلوا المغرب " كفاتحين يعملون على نشر الإسلام وضمّ البلاد إلى حضيرة المسلمين" [2] ، وقد حاول يوسف بن عبد المؤمن استمالتهم قصد استغلال شجاعتهم وحُبهم للجهاد في بلاد الأندلس، ونقل الخليفة المنصور عام 584هـ عددا كبيرا منهم إلى المغرب الأقصى، فكان لهذا العدد الغفير الفضل الكبير في تعريب القبائل البربرية ، وانتشار اللغة العربية في المنطقة، وقد لعـبوا دورا كبيرا في تقوية الجيش المُوحّدي بالمغرب والأندلس، حيث لم يَخُض المُوحّدون حربًا إلا وكان للعرب حظ وافر فيها [3]، أما عن نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي فقد كانوا يمارسون الرّعي، وهي المِهنة الّتي تتناسب مع طبيعتهم البدوية [4]. وشكل "الغز" [5] أيضا جزءا من النسيج السكاني ، وهم من العناصر الّتي وجدت في المغرب في عهد أبى

---

[1]- اختلفت المصادر في نسبهم فمنهم من يرى أنهم من ولد حام بن نوح عليه السلام ، فيما تذكر مصادر أخرى أنهم من بني افريقش بن صبغي الحميري ، و يرجح ابن زيدان أنهم من نسل كنعان ، ينظر : عز الدين أحمد موس ـى النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، دار الشروق ، بيروت – لبنان- 1983م ص93، وينظر: شرقي نوارة : الحياة الاقتصادية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (524هـ- 667هـ 1126 م-1268م) مذكرة تخرج لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط ، جامعة الجزائر ، 1429هـ-2008م ص 28.

[2]- شرقي نوارة : المرجع نفسه ، ص 41.

[3]- ينظر: صديقي عبد الجبار ، سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب و التداعيات ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ و حضارة المغرب الإسلامي ،جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان 2013-2014م، ص 87.

[4]- ينظر: مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، دت ، ص322.

[5]- تسمية عربية لفرع من الأتراك الّذين كانوا يسكنون قُبيل ظهور الإسلام مساحة واسعة من أواسط آسيا تمتد من تخوم الصين شرقا إلى البحر الأسود غربا ، وبعد أن اعتنقوا الإسلام في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي عُرفوا لدى المؤرخين العرب باسم التركمان ، وسيطروا على معظم بلدان الشرق الأدنى في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ينظر: القلقشندي ، صبح الأعشى ،ج5 ، ص 167. وينظر: عز الدين موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي، ص 122.

يعقوب و ابنه المنصور، وقد جاءوا إلى البلاد بهدف إحراز الأموال والغنائم وتشييد الملك والسلطان، وقد استفادوا من إعانات مالية مقابل تأدية أدوار عسكرية.

وقد وجدت بالمغرب إلى جانب العناصر السابقة أقليات أخرى من السكان مثل "الروم" و"الصقالبة"، عاشوا في المغرب نتيجة الغزوات والحروب الّتي خاضها المرابطون والمُوحّدون بالأندلس والّتي أسفرت عن الكثير من الأسرى [1]، وكان لهؤلاء دورٌ في أعمال القصر والحراسة، كما استخدمهم ولّاة الأمر بالجيش حتى يستفيدوا من خبرتهم العسكرية[2] .

وعاش بالمغرب جاليات كبيرة من اليهود والنصارى عُرفوا "بأهل الذّمة " وقد تمتعوا بالحرية المطلقة في ممارسة شعائرهم الدّينية الّتي كفلها لهم الإسلام، و بمجيء عبد المؤمن بن علي واجه اليهود مواقف صعبة، حيث خيّرهم عام 556هـ بعد فتحه تونس بين الإسلام أو السّيف ، ويُؤكد هذا الموقف الصارم ما تشير إليه الروايــة قائلة "...و عرض الإسلام على اليهود والنصارى فمن أسلم فلا فرق بينه و بين المسلمين ومن امتنع عن ذلك فقد أحلّ دمَه وماله " [3]، وطبقا لما سبق فرّ كثير من اليهود والنصارى حفاظا على حياتهم ، أما من بقي منهم في بلاد المغرب فقد عُومِلوا بشيء من القسوة لعدم ثقة الولّاة بمن أسلم منهم ، وسار على سُنة عبد المؤمن معظم أبنائه الّذين تولوا الخلافة من بعده، و ظل اليهود على هذا الحال إلى أن تولّى محمد النّاصر مقاليد السلطة، فميّز اليهود بلباس يُعرفون به ، وأمرهم بارتداء الزّي ذي اللون الأصفر وكان يقول " لو صح عندي إسلامهم لحظوا بما للمسلمين من حقوق وواجبات " [4] . ولكن في عهد الخليفة المأمون نال أهل الذّمة – النّصارى– قسطا من الحرية و تمتعوا

[1]– ينظر:حسن علي حسن ، الحضارة العربية الإسلامية في المغرب و الأندلس ، ص 323.

[2]– ينظر : المراكشي ، المعجب ، ص 211. شرقي نوارة : المرجع السابق ، ص 58.

[3]– ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص 129. محمد الصلابي : دولة الموحدين ، ص 119.

[4]– ينظر :ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة، ص 203.

بمعاملة حسنة، فاسترجعوا بعض ما فقدوه في بداية الدّولة حيث سمح لهم "بإقامة شعائرهم الدينية فقامت بمراكش كنيسة تضرب فيها النواقيس " [1] ، فكثُر عددهم واحتكوا أكثر بالمسلمين وقد شهد التاريخ وُقوع العديد من المصاهرات بين الجانبين، فقد تزوج يوسف بن عبد المؤمن من نصرانية تُدعى ساحر وكانت رائعة الجمال ، وأحبّ نسائه إليه، ولقد أنجبت له ابنه يعقوب المنصور [2]، كما تزوج الناصر هو الآخر من نصرانية تُدعى قمر [3] .

كما قسّم ابن تومرت المجتمع المُوحّدي إلى نظام الطبقات ، وجعل على رأس هذه الطبقات أصحابه العشرة وعُرفوا أيضا باسم أهل الجماعة [4]، تأتي بعدها طبقة أهل الخمسين والسبعين وهما مجلسان استشاريان يضُمان كبار شيوخ القبائل [5]، وتليهما طبقة الطلبة و قد سُموا بذلك على أساس تتلمذهم على يد المهدي لنشر دعوته ومبادئه فيما بعد [6]، وقد حازت هذه الطبقة على مكانة رفيعة جدا في المجتمع المُوحّدي و داخـــل البلاط، فقد قدّم لهم الخلفاء مُرتبات وعطايا [7].

وقد أوجد ابن تومرت بجانب هذا النظام الطبقي نظاما آخر يقوم على العصبية القبلية ، فميّز القبائل الّتي نصرت دعوته بمميزات خاصة ، وفي مقدمتها قبيلته

---

[1]– مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ص331.

[2]– ينظر : محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس " عصر المرابطين و الموحدين في المغرب و الأندلس" مكتبة الخانجي ، مصر، ط2، 1990م، ص 56.

[3]– ينظر: قتيبة علي إبراهيم سمور، العلاقات الحربية بين الموحدين و الممالك الإسبانية في شمال الأندلس (540–622هـ/1145م–1235م) ، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإســلامي ، كليــة الدراسات العليا، الجامعة الأردنية ، 1996م، ص191.

[4]– ينظر: حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ، ص331.

[5]– نفسه : ص332.

[6]– ينظر:عبد الواحد المراكشي ، المعجب، ص 150.

[7]– ينظر:ليفي بروفنسال : مجموع رسائل الموحدية من كتاب الدولة المؤمنية ،المطبعة الاقتصادية ،المغرب، الرباط دط،1941م، ص 10–22.

هرغة* ثم قبيلة عبد المؤمن بن علي كومية ثم أهل تينمل ** وتمتعت هذه القبائل بنفوذ واسع فهم من يأخذون الهِبات و يجمعون الجيوش .

وفي خلافة عبد المؤمن بن علي تعرّض هذا النظام لبعض التغيرات فكان أبرزها أن جعل الملك وراثيا في نَسْله من بعده ، وقدّم قبيلته كومية على سائر القبائل الموحدية وجعلها تحتل مكانة السيادة و الرياسة في المجتمع المغربي ، واتخذ من أفرادها وزراء وفقهاء وكُتاب [1]. كما احتلت طبقة العلماء والفقهاء منزلة رفيعة منذ ظهور الدولة المرابطية إلى غاية قيام الدولة المُوحّدية ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الدّولتين قامتا على أساس ديني و دعوة إصلاحية [2]. وقد خصص الخلفاء المُوحّدون لهذه الفئة مِنحًا و رواتب كبيرة مكنتهم من أن يصبحوا من أصحاب المال والعقارات[3].

واحتلت طبقة العامة مساحة واسعة نظرا لكثرة عددهم ، واختلافهم عن الطبقة الخاصة الّذين كانوا من أصحاب السلطة ، ومارس أصحاب هذه الطبقة عدّة مِهن منها التجارة الّتي كانت من أهم الحرف الّتي وُجدت في المغرب ، سواء ما تعلّق بتُجار الجُملة أم تجار التجزئة الّذين يبيعون بضائعهم في متاجرهم ، أو عن طريق التجول في

*احدى بطون قبيلة مصمودة ، أكثر القبائل البربرية عدد و عُدة ، ينظر : المصدر نفسه ، ص 178، تاريخ ابن خلدون ، ابن خلدون ، ج6، ص 561.

**تكتب تينمال و تينملل و تين ملل ، و هي قرية صغيرة بجنوب المغرب الأقصى ، و تقع على جبل عال ، و إذا كان فصل الشتاء يصعب الوصول إليها ، اتخذها محمد ابن تومرت و أتباعه حصنا لهم في بداية دعوتهم ، ويذ كر أن هذا الاسم يتألف من كلمتين (تين) و يقصد بها الذات و(ايمل) و معناها الحواجز. ينظر: ابن صاحب الص ـلاة المن بالإمامة ، ص 149. مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، دار النشر المغربية، دط ، 1986م، ص208

[1]– ينظر :جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين (دراسة سياسية و حضارية) ، دار الوفاء لِدُنيا الطباعة و النشر، مصر ، دت ، ص165.

[2]– ينظر : المرجع نفسه ، ص163.

[3]– ينظر : حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ، ص 336.

المدن و القرى[1]، زِد إلى ذلك نجد تُجار القوافل الذين عُرفوا بتُجار الصحراء ، وهم من تاجري الذّهب والنّحاس والجلد والعاج والتوابل والمسك والحلي [2]، وقد وزع التّجار العديد من السّلع وباعوا المسك والملح أيضا [3]، فكانوا كهمزة وصل بين الإنتاج والاستهلاك مما أدى إلى دفع الحركة الاقتصادية للبلاد.

وكان لطبقة الصناع أهمية ووَزن داخل المجتمع المُوحّدي ، وتضم صانعي الثياب الّذين يعملون على تحويل المواد الخام إلى ملابس صوفية وقطنية وكتانية، وصانعي الأرحاء الّذين يقومون بصناعة ما يحتاجه الناس من المصنوعات الخشبية، كما أسهموا في صناعة الأسلحة كالسيوف والمجانيق، فضلا عن مشاركتهم في صناعة السفن والقوارب والأساطيل[4] .

أما المرأة المُوحّدية فقد شكلت عنصرا هاما في المجتمع ، ولم تقتصر وظيفتها على العناية بالمنزل والأسرة ، بل سعت إلى التزوّد بالعلم والثقافة والإسهام بنصـــــيب واسع في الأعمال المناسبة لها ،لأنها حسب رأي ابن رشد [5] ليس هناك أي فرق بينها وبين الرجل ، "فطبيعة النساء تُشبه طبيعة الرجال ، والبرهان على ذلك أنها قادرة على المشاركة في الحروب والفلسفة" [6]، وكان من أهم ما قام به المُوحّدون لصالح المرأة هو

---

[1]– ينظر: جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين، ص166.

[2]– ينظر:إبراهيم القادري بوتشيش ، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت – لبنان– ط1، 1995م، ص 246.

[3]– ينظر : جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين، ص167.

[4]– ينظر: المرجع نفسه، ص166–167.

[5]– هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، وُلد في قرطبة سنة 520هـ ، ودرس فيها ، برع في الحكمة والطب ، توفي سنة 595هـ ، ينظر : أبي عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراك شي :الذيل والتكملة لكتابي الموصول و الصلة تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان ، ط1، 1973م، السفر1 ، ص21–32.

[6]– ينظر: الحسن السائح ،الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، الدار البيضاء – المغرب– ط2، 1986م، ص 234.

فرض عبد المؤمن بن علي لإلزامية التعليم على الرجال والنساء [1]، وهذا ما ساعد على تثقيف المرأة وبروزها في مجالات عديدة ، فكان منها :الشاعرة والطبيبة والمؤدبة والمتصوفة ، وتعد حفصة الركونية(ت 589هـ)[2] من أشهر شواعر العصر، وكانت بجانب شهرتها الأدبية تتولى تعليم نساء الخلفاء و الأمراء [3]، كما برزت زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن في علوم اللغة والدين ونبغت في علم الأصول [4].

واشتهر وُلاة الأمر بإنصافهم للمرأة و تكريمها ، فقد عمل عبد المؤمن في عهده على" إطلاقه لنساء المرابطين اللاتي وقعن في أسره"[5]، كما كرّم الناصر الموحدي "سبايا "سبايا ميورقة حين أمر بإطلاق سراحهن ومُساعدتهن بالأموال على الزواج"[6].

كما تمتعت النساء المغربيات والأندلسيات بقسط وافر من الجمال ، فيُذكر أن نساء المغرب والأندلس "كُنّا غاية في الظرف واللطف "[7].

وحرص ابن تومرت منذ بداية دعوته على ارتداء الملابس البسيطة زهدًا وتقشفًا والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن ، وتَبِعه عبد المؤمن بن علي في ذلك وكانت ملابسه عبارة عن" ثياب صوف مُكَوّن من قميص وسروال وَجُبّة تواضعا لله

[1]– ينظر: شرقي نوارة ، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين ، ص 113.

[2]– شاعرة و أديبة مشهورة بالجمال و الحسب و المال ، عُرفت بجرأتها و فصاحتها . ينظر : أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، حققه إحسان عباس ، دار صادر، بيروت– لبنان – دط 1968م، ج4 ص 157.

[3]– ينظر :خليل البدوي ، موسوعة شهيرات النساء ، دار أسامة للنشر ، الأردن ، ط1، 1998م ، ص99.

[4]– ينظر: عبد الله علي علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، دار المعارف، القاهرة – مصر– 1971م ، ص 243.

[5]– ليلى أحمد النجار: المغرب و الأندلس في عهد المنصور الموحدي ، ص 414.

[6]– عبد الله علي علام : المرجع السابق ، ص 244.

[7]– إبراهيم القادري بوتشيش : مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين، ص 53.

تعالى"[1]، ولكن هذا الزهد في ارتداء الألبسة لم يكتب له الاستمرار عُقب وفاة الخليفة عبد المؤمن ، إذ أقْبل أفراد الشعب ورجال الدولة على ارتـداء الملابس الحريرية المطرزة ، وقد غالوا في ذلك ، الأمر الذي دفع المنصور المُوحّدي إلى إصدار أمر " بالتقليل من لبس الغالي من الحرير و الاجتزاء منه بالرّسم الرّقيق الصّغير ومنع النساء من الطراز الحفيل ، وأمر بالاكتفاء منه بالساذج القليل ، وأخرج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصي بأثمان لم تُوف ولم تُستقص ...و زهد كل الزهد في هذا الشأن"[2].

وامتاز زي العلماء والفقهاء والقضاة بلباس الغفارة ، و قد لبسوها من صـــوف وصبغوها باللون الأحمر والأخضر ، بعيدين عن الأصفر الّذي كان خاصا باليهود [3] وهناك نوعٌ آخر ارتداه العلماء وهو الطليسان الموضوع على الرأس [4]، ووضعوا أيضا العمامة ويؤكد ذلك المقري بقوله :" ...لا تكاد ترى فيهم قاضيا و لا مُفتيا مُشارا إليه إلا وهو بعمامة "[5] .

وعُرف عن المرأة وضعها للخمار لتغطية رأسها الّذي عادة ما يكون من حرير أو كتان أو غير ذلك [6] ، واستعملت المعاجر لتغطي وجهها أو تشد بها رأسها" [7]، و لِعادة المرأة المسلمة ارتداء الخمار ، فقد تأثرت بها المرأة المسيحية وأصبحت تضع على

---

[1]– صالح بن قربة : عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1991م ص 53.

[2]– ابن عذارى : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص 174–187.

[3]– ينظر: ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص 215.

[4]– ينظر: أبو العباس أحمد بن عبد الله الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية حققه و علّق عليه عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت– لبنان – ط2، 1979م، ص 128.

[5]– نفح الطيب ، ج1، ص222.

[6]– ينظر:أبو عبد الله محمد بن إدريس الحمودي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، دط ، دت ، ص 289.

[7]– نفسه : ص290.

رأسها خمارا كما يشير إليه أحد المستشرقين [1]، و كانت الألبسة النسائية المصنوعة من الحرير مختلفة الأشكال والأنواع كالأردية الموشاة بالديباج [2] ، وصنوف الجوهر وألوان الصباغة البراقة" [3].

وقد خص أهل المغرب والأندلس للفصول ألبسة تميزها تذكرها المصادر المختلفة " كالملف المصبوغ شتاء ، والكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية ،والمقاطع التونسية والمآزر صيفا" [4]، ونجد تغيير اللباس في إحدى أمثال العامة :" إذا رَأَيْت الخُوخ والرُّمَانْ فَكّرْ في ثْيَابَك أيُّها العَرْيَانْ" [5] ، فالخوخ و الرمّان فاكهة من فواكه فصل الخريف وهي رمز من رموز هذا الفصل ، لذلك نصحت العامة في التفكير بتوفير ما يجب ارتداؤه في الفصل القادم ، مستعيرة بهذه الرموز إلى تغيير اللباس الصيفي الخفيف بلباس أخشن و أدفأ لفصل الشتاء ، أما الصبيان ، فقد كان لباسهم القمصان والسراويل في فصل الصيف ، والفرو المحشو في فصل الشتاء[6].

واشتهر سكان الدولة المُوحّدية ب صُنع ألوان عديدة من أطباق الطعام، حتى صارت موائدهم حافلة بأنواع مختلفة من الأطعمة والحلوى، دلالة على مدى رفاهية الشعب، وكانت تأتي مُرتبة بالنظر إلى أهميتها وأفضليتها عند المجتمع ، فأهم الأطباق

---

[1]– ينظر:أميركو كاسترو ، حضارة الإسلام في إسبانيا ، ترجمة سليمان العطار ، الدار الثقافية للنشر ، القاهرة – مصر– ط1 2002م، ص 35.

[2]– ينظر: محمود مقديش ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار، تحقيق: علي الزواوي و محمد محفوظ دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط1 ،1988م ، مجلد1 ، ص 159.

[3]– محمد أبو الفضل : شرق الأندلس في العصر الإسلامي،(515هـ–686هـ/1121م–1287م)، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية – مصر– ط1، 1996م، ص 240.

[4]– لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تقديم و مراجعة و تعليق بوزياني الدراجي ، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع ، الجزائر ، دط، دت، ج1، ص36.

[5]– أبو يحيى عبيد الله الزجالي القرطبي : أمثال العوام في الأندلس ، تحقيق و شرح و مقارنة محمد بن شريفة منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، مطبعة محمد الخامس ، المغرب، دط، 1975م، ، ص04.

[6]– ينظر:لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص37.

تلك المصنوعة من اللحم [1] ، كطبخة "التفايا" وهي أُكلة الطبقة الحاكمة ، والمُكونة من لحم الغنم السمين مع اللوز المقشر والمحلول بماء الورد [2]، تليها أطباق الحوت المختلفة وبعدها أطباق الكسكس والهريسة [3].

وقد تعددت الأطباق باختلاف الفصول والمناسبات ، فهناك أطعمة خاصة بالشتاء والأيام الباردة ، كالثريد، وأخرى خاصة بالصيف كالسكباج الّذي يتخذ من لحم العجل، ولَون آخر يصلح لفصل الخريف ، وهناك أطعمة خاصة بالمناسبات المختلفة [4] وقبل تقديم الأكل للتناول كانوا يُراعون طريقة تزيين الطـــبق حيث تضاف عدة مواد تزيدها تحلية وحُسـن مَظـهر ، كالسكر والسنبل والقرفة والنعنع واللوز والصنوبر [5] وتُفرش الصفحة مثلا بورق الأترج ، ويُرتب الطعام ترتيبا حسنا [6]، وهذا ينِم على ذوقهم الرفيع وأسلوبهم المُترف في تناول الطـــعام، و يُعطينا صورة لمدى الثراء وال ترف الّتي كان يعيشها أفراد المجتمع، و يدُلُّنا أيضا على مدى التمدّن الذي وصل إليه أبناء المغرب والأندلس.

كما شدّد خلفاء المُوحّدون الأوائل على القضاء على مظاهر الفساد التي انتشرت في المجتمع ، فحاربوا الخمر ، وأخْلوا الحوانيت التي تُباع فيها ، كما طاردوا المغنيين والقيان ، فتفرقوا في كل مكان ولاذوا بالاختفاء ، لكن هذه الحماسة الدينية ، والرغبة الجلِية في بناء صرح مجتمع على أساس ديني وعقائدي لم تستمر طويلا ، فانتهت

---

[1]– ينظر : مجهول ، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، دط، دت، ص120.

[2] –Huici Miranda , la Cocina Hispano Magreb durante la época Almoahade Madrid,1956, p 85 .

[3]– مجهول : كتاب الطبيخ ، ص172.

[4]– نفسه: ص 193.

[5]– نفسه: ص 218.

[6]– مريامة لعناني :الأسرة الأندلسية في عهدي المرابطين و الموحدين ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجســتير في التاريخ الوسيط ، تخصص تاريخ و حضارات بلاد الأندلس ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر ، دت، ص 127.

بانتهاء عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل، وخرج الخلفاء الآخرون عن هذه ال ـــسياسة وتنكروا لمبادئ الدعوة ، ورَكَن كثير منهم إلى حياة لاهية صاخبة ، وأصبح الشعب يعيش حالة من الضياع وسوء المصير .

5- الحياة الاقتصادية:

اعتمدت الدولة المُوحّدية في مصادر دخلها على جمع الزكاة [1]، ومع توسّع أرجاء الدولة ، وتزايد النفقات استلزم الأمر إيجاد مصادر أخرى للدخل، ففرضت الخراج على الأراضي الصالحة للزراعة[2] ، والجزية على أهل الذمة من اليهود والنصارى الموجودين على أرضها[3]، واعتبرت الأموال المصادرة مُوردا مفيدا لخزينة الدولة، خاصة إذا تعلق الأمر بمُحاسبة العمال ومُساءلتهم عن الأموال الّتي يحصلون عليها فتضاف إلى خزينة الدولة ، حيث قام يوسف بن عبد المؤمن سنة 579هـ بمحاسبة وزرائه وعماله والاستيلاء على أموالهم[4].

وقد عملت الدولة على وضع نظام مالي دقيق ، تمثّل في الإدارة المُشرفة على الجباية و الإنفاق [5] ، فضلا عن وجود ديوان للمال بكل إقليم، كما استحدثوا منصب الوزير المسؤول عن الشؤون المالية أطلقوا عليه اسم "صاحب الأشغال" ومُهمته استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة فيها ، ثم تنفيذها على قدرها وفي

---

[1]- ينظر: عبد الله علي علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص255، ليفي بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ، ص133، ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص211.

[2]- ينظر: عز الدين أحمد موسى ، الموحدون في الغرب الإسلامي، ص283.

[3]- ينظر: أحمد بن يحيى الونشريسي ،المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والأندلس والمغرب ، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،1981م،ج2، ص80.

[4]- ينظر: حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس، ص206.

[5]- ينظر :رضا رافع : الاقتصاد في المغرب الأقصى في عصر الموحدين (524هـ- 668هـ/1129-1269م) مذكرة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الوسيط ، جامعة الجزائر ، 2005- 2006م ، ص 125.

مواقيتها [1]، وأنفقت معظم الأموال على إعداد الجيش في البرّ والبحر ، ودفع مرتبات الوزراء و رجال البلاط والقضاة والفقهاء [2]، كما أنفق البعض منها على إنشاء المدن والقصور والحصون وغيرها من المُنشآت.

وأصدر المُوحّدون عملة نقدية من الدنانير والدراهم ، وكانت مصنوعة من معدني الذهب والفضة[3] ، ومن أشهرها" الدينار المُوحّدي الذهبي الّذي أمر بسكّه المهدي بن تومرت مؤسس دولة المُوحّدين، وقد تراوح وزنه بين 2.27 و 2.51غ"[4]. كما ضرب المُوحّدون دنانير مضاعفة في مناسبات خاصة لتحقيق المعاملات في الصفقات التجارية الضخمة، أو لتقديم مكافئات أو مِنح وهدايا في المواسم والأعياد، أو بمناسبة الانتصارات على الأعداء، و كان وزنها 21 مرة من الدينار المُوحّدي[5]، كما قاموا بسك الدّراهم الفضية المُربعة الشّكل في جميع عواصم الولايات وكانت مختلفة الأوزان ، وقد أكثروا من ضربِها وسك أجزائها خاصة في خلافة أبي يعقوب يوسف [6] ، وقد بلغ تأثير طراز التربيع النقدي المُوحّدي حدود الهند ، حيث قام السلطان قطب الدين مبارك شاه بضرب عملات ذهبية و فضية مربعة الشكل[7].

كما ضرب المُوحّدون نقودا نحاسية تُشبه من ناحية الشّكل الدرهم المُربع، لكن

---

[1]– ينظر:ابن خلدون ، المقدمة،ج1، ص 317.

[2]– ينظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 348.

[3]– ينظر: حسن علي حسن ، المرجع نفسه ، ص 225.

[4]– عبد النبي بن محمد : مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقية و الأندلس ، رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، 1979م ص 41–43.

[5]– ينظر: عبد النبي بن محمد : مسكوكات المرابطين والموحدين ، ص 44.

[6]– ينظر: عز الدين أحمد موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ،ص30.

[7]– ينظر: يحياوي العمري ، الدراهم المغربية والأندلسية المربعة ، رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في الآثار الإسلامية ، جامعة الجزائر ، 2003–2004م ، ص 69.

الشعب عارض هذه الدراهم لعدم تقديرهم للنحاس كمعدن ثمين، حيث أنهم كانوا يسيرون على نِظام المعدَنين الذهب والفضة [1]، لكن سُرعان ما تَرَكوها لسَببين: أولهما معارضة الشعب ، وثانيهما وفرة الذهب والفضة لدى المُوحّدين.

أما فيما يتعلق بالزراعة فقد أولت الدولة اهتماما خاصا بهذا القطاع ، وكان ذلك واضحا من خلال تنظيم ولاة الأمر لملكية الأرض ، وإنتاج السدود والبحيرات المُوجهة إلى سقي المنتوج الفلاحي ، فضلا عن غرس ال كثير من البساتين [2] ، وتجلى ذلك في عاصمتهم مراكش التي كانت أكثر البلاد بساتين وأكثر شجرها كان الزيتون [3] ، ولم تكن مراكش وحدها تتوفر على جنات تسر الناظرين ، بل غرس الموحدون الأ شجار المثمرة في كل مكان ،إضافة إلى تشجيع الاستثمار بتقديم بعض المساعدات المالية للفلاحين من أجل تنميتها ، وغير ذلك من التدابير الّتي انعكست إيجابا على المحاصيل الزراعية الّتي توافرت وتنوعت في العدوتين [4]، حيث تمتعت مدينة قابس بإنتاج المـــــوز وعرفت مدينة تونس باللوز والعنب [5]، واعتبر السفرجل التاهرتي من أحسن الأنواع وأملحه [6]، واشتهرت مدينة بسكرة بإنتاج التمور العالية الجودة [7]، فضلا عن وجود الجوز الجوز والتين ببعض مدن الأندلس[8].

[1]– ينظر: عبد النبي بن محمد ، مسكوكات المرابطين والموحدين ، ص 53–56.

[2]– ينظر: بغداد غربي ، العلاقات التجارية للدولة الموحدية ، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ و الحضارة الإسلامية ، جامعة أحمد بن بلة ، وهران – الجزائر– 1435هـ– 1436هـ/2014م–2015م، ص 29.

[3]– ينظر:البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين ، ص 120.

[4]– ينظر: الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص 265.

[5]– ينظر: مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص113– 119.

[6]– نفسه : ص 178.

[7]– نفسه : ص173.

[8]– ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان،ج7، ص 367.

ومن الجهود المبذولة للنهوض بالقطاع الفلاحي، تطوير آليات السّقي واستخراج المياه من مصادرها ،ونقلها عبر القنوات إلى الحواضر والمناطق الزراعية [1] ، كما قامت الدولة ببناء صهاريج كبيرة توظف في تجميع مياه الأمطار بغية استغلالها في الأوقات المناسبة[2]، و كان لهذه السياسة الّتي انتهجتها الدولة دورٌ في تحقيق أمن غدائي، وتنمية وتنمية فعالة في كل المجالات.

وعرفت الثروة الحيوانية تنوّعًا وتوافرًا حيث نجد "الأغنام والأبقار والخيـــــول والبغال والجِمال" [3]، نظرا لتوفر المراعي الواسعة في سفوح الجبال، والأودية والبوادي والمروج ،وكثُر في بجاية" العسل والسمن والشمع والحرير" [4]، وكان يُصدّر الفائض إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة والمتباعدة عنهم. وتواجدت الأسماك بكثرة وتعددت أصنافها باختلاف شهور السنة[5]، مما دفع بالسكان إلى ممارسة حِرفة الصيد والتفنن فيها فيها سواء بغرض المتعة أو للاستفادة من لحومها [6]، وبسبب هذا الازدهار أنشأت مصانع لتصبير الأسماك [7]، فضلا عن توفير المواد الأولية الّتي تحتاجها بعض الصناعات مثل الجلود والصوف.

وشهدت الدولة المُوحّدية نهضة صناعية عظيمة قامت على سد احتياجات السكان نتيجة لما نعمت به البلاد من أمن و استقرار، وتوفر المواد الخام مثل:الفضة والرصاص

---

[1]–ينظر : مجهول ، الاستبصار، ص 137.

[2]– ينظر: عز الدين أحمد موسى ، النشاط الاقتصادي ، ص182.

[3]– الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص 256.

[4]– محمد شريف سيدي موسى ، الحياة الاجتماعية و الاقتصادية ببجاية من عهد الموحدين إلى الاحتلال الاسباني (6هـ–10هـ/12م–16م) أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط ، كليـة العـلوم الإنسـانية و الاجتماعية ، قسم التاريخ ، 1430هـ–1431هـ/2009م–2010م ، ص236–239 .

[5]– ينظر: المراكشي ، المعجب ، ص 256.

[6] –Léon L'Africain, Description de L'Afrique ,Nouvelle édition Traduit de l'talien par Alescis Epaulard Adrien –Maisonneuve , Paris ,1956,T1,2.

[7]– ينظر: محمد شريف سيدي موسى ، المرجع السابق ، ص 234.

والحديد والنحاس والرخام والمرمر [1]، فضلا عن اليد العاملة المتخصصة الّتي امتازت بِحُبّ العمل ، هذه الإمكانيات ساهمت في انتشار العديد من الصناعات كالصناعة المعدنية والنسيجية وصناعة الزجاج والحُلَي وغيرها . وقد بلغت صناعة الورق شأْوًا عظيما ، وكان لها معامل كبيرة تُنتج ورقًا جيّدًا كبَلنسية الّتي ظهرت كأهم مدينة مُنتجة للورق ، بسبب وفرة الكتان بها وجودته ، وكثرة النساخ والوراقين بـها [2]، وفاس الّتي بلغ بها عدد دور صناعة الكاغد أربعمائة مصنع ، في الوقت الّذي كانت أوروبا تفتقر فيه إلى معمل واحد للورق[3]. وكانت بجاية من أشهر المدن الّتي احتوت على الخشب الكثير الكثير لذلك أنشئت فيها دار لصناعة السفن والمراكب ،والأساطيل الحربية [4]، وكثُرت صناعة المطاحن و الأرحاء الّتي كانت تستعمل في عملية طحن الحبوب وغيرها[5].

وزيادة على تلك الصناعات الراقية ، نهضت الصناعات الميكانيكية الّتي تجلت في صنع الآلات الحربية المتنوعة مثل : الدبابات و المجانيق الّتي تدك الخنادق والأسوار دكا ، وترسل النيران على الأعداء فتحرقهم ، وسيوف قاطعة نافذة الطعنات[6]، إلى غير ذلك من أنواع الأسلحة التي عُرفت قبلهم و تفوّقوا هُم في تجويدها.

وازدهرت التجارة في الداخل والخارج بفعل توفر الأمن، مما نشط حركة البيع والشراء ،كما وفّر ولاة الأمر" سبل الإقامة للتجار بإنشائهم للعديد من الفنادق لإيوائهم وخزن السلع لتوزيعها بعد ذلك بالجملة "[7].

---

[1]– ينظر: المراكشي ، المعجب ، ص 263– 264.

[2]– ينظر:عز الدين موسى ، النشاط الاقتصادي ، ص224 .

[3]– ينظر: محمد المنوني ، العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين ، ص 256.

[4]– ينظر: الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص260.

[5]– ينظر: المراكشي ، المعجب ، ص248– 250.

[6]– ينظر: ابن خلدون ، المقدمة ، ص91.

[7]– حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية ، ص 267.

وقد تنوعت وسائل النقل التجارية في هذه الفترة نظرا لتنوع المجالات الجغرافـية والأقاليم المناخية في المدن الّتي تنقل إليها البضائع . فبالنسبة للطرق البرية استخدمت الحيوانات القوية الّتي تقوى على تحمّل مَشَاق السفر ، فكان الجَمل من أبرز وسائل نقل البضائع التجارية الثقيلة وأداة أساسية في التواصل بين الأقطار النائية، نظرا لاستعداداته الفطرية الّتي تؤهله لذلك كقوة البنية و الهيكل [1]، والبغل الّذي انتشر استعماله في شمال الصحراء كوسيلة لنقل التمور[2] ، إضافة إلى الحمير الّتي استخدمت لنقل المِلح إلى غانة كما اعتبرت السفن من وسائل النقل البحرية، و ركيزة أساسية لنقل البضائع والسلع إلى مختلف الدول الّتي تربطها بالدولة المُوحّدية علاقات تجارية كبيرة [3].

ومِما ساعد على ازدهار الحركة التجارية في العُدوتين تلك المراكز التجارية الّتي أولاها المُوحّدون عنايتهم، كالعاصمة مراكش الّتي كانت مركز للتجارة الداخلية بين مدن الشمال ومُدن الجنوب ، وفاس الّتي كانت قطبا تجاريا هاما[4] ، فضلا عن الأندلـس الّتي الّتي احتوت على مراكز تجارية هامة، فشيّدوا بها عِدّة أسواق لممارسة التبادل التجاري ولقد اختص كل سوق بسلـــــعة معيّنـــة تباع فيه ، كسوق العطـــارين والخياطيـــن والصباغين وسوق السكر ، وسوق الصابون ... [5]، و كان لهذه الأسواق أيام معلومة يتجه إليها السكان بسلعهم يبيعون و يشترون ما يلزمهم من الحاجيات[6]. فانتعش التبادل التجاري بين المغرب والأندلس لينتقل إلى مدن الجوار ، فقد

---

[1]– ينظر : أبو علي الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف افريقيا ، ترجمة ، محمد حجي و محمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1983م، ج2، ص 259–261.

[2]– ينظر: ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق كامل سلمان الجبوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1، ج4، 2010م، ص50.

[3]– بغداد غربي ، العلاقات التجارية للدولة الموحدية ، ص 130.

[4]– ينظر: حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية ، ص 270– 271.

[5]– ينظر: ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة، ص396.

[6]– نفسه : ص 273– 274.

فقد اشتهر أهل المرية بالمنسوجات الحريرية الّتي كانت تصدّر إلى المشرق و ايطاليا و فرنسا[1] ، وعرفت مدينة سبتة بشجر المرجان الّذي لا تعادل جَودته أي نوع من أنواع المرجان المستخرج من البحار ، حيث كان يُحك و يُنظم في حُلي رائعة الأشكال ، و منها يُصدّر إلى كثير من البلدان وخاصة إلى بلاد السودان لكثرة استعماله هناك [2].

وكانت الصفقات التجارية الخارجية للدولة المُوحّدية تسير وِفق معاهدات مكتوبة لكنها شهدت في كثير من الأحيان اعتداءات وأعمال قرصنة متكررة كان يمارسها تُجار بعض المُدن الإيطالية على أهالي المغرب والأندلس [3]، مما وتّر العلاقات الديبلوماسية بين الطرفين.

6- البناء والتعمـير:

شهدت بلاد المغرب والأندلس على حد سواء ازدهارا و نشاطا كبيرين في حقل البناء والتعمير ، حيث أولى الخلفاء الموحدون هذا الجانب اهتماما واسعا ، فأنشأوا المدن الجديدة ، وعملوا على تزويدها بكل ما تحتاج إليه من منشآت مَدنية وأخرى عسكرية ودِفاعية.

وعلى الرغم من أن المُوحّدين مالوا إلى التّقشف في بداية مرحلة تأسيس الدولة وقاموا بهدم العديد من المنشآت المرابطية نظرا لمظاهر الترف والزخارف العديدة ، فقد شهدت العمارة تطورا ملحوظا ، وتخلى هذا الفن عن بساطته الصارمة ليلجأ إلى استعمال الأشكال الزخرفية في مختلف الأبنية.

---

[1]- ينظر:المقري ، نفح الطيب ،ج1، ص102،161.الإدريسي: نزهة المشتاق ، ص562.

[2]- ينظر: الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص529.

[3]- ينظر: أحمد عزاوي ، رسائل موحدية "مجموعة جديدة" ، ج2 ، ص 163.

من أبرز المدن الّتي تم تشييدها خلال العهد المُوحّدي مدينة "رباط الفتح" [1] ،الّتي جعلها عبد المؤمن بن علي معسكرا لتعبئة جيوشه للجهاد، و استمر ابنه يوسف بالعناية بها و تعميرها ، إلا أن الموت أعَاقه عن إكمالها ، وبعد تولى المنصور خلافة الدولة عرفت حركة البناء والتشييد دفعًا جديدًا وازدهارًا كبيرًا ، حيث واصل الاهتمام بمدينة رباط الفتح حيث أنشأ سورها ومسجدها ، ورتّب أشغالها وزوّدها بكل ما هو ضـــروري وحيوي[2] . فقد كان المنصور "مهتما بالبناء، وفي طوال أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يُعمرها "[3]، فعندما أمر باختطاط "حومة الصالحة " في مراكش أحضر العمال والبُناة والآلات ، وأمرهم بالإتقان ، حيث قسّمت المساكن الجديدة بما يستصلحها من منافع ، وبُنيت فيها قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق [4]، كما بنى المنصور في فاس بُحَيرة فيها من المتنزهات ، والبساتين ، والمصانع والعمران العظيم [5].

وافتتن المُوحّدون ببناء المساجد وتجديدها وتعميرها باعتبارها مراكز الإشعاع الفكري والديني، ولهذا فقد أصبح بحُكم أهميته الدينية والتعليمية وإسهامه في إثراء الحياة الفكرية من أهم المعالم الإسلامية.

ومن المساجد الّتي شيّدت في هذا العهد مسجد تينمل الّذي أمر عبد المؤمن بن علي ببنائه بمدينة تينمل الّتي تبعد مائة كيلومتر جنوب شرق مدينة مراكش [6]، وقد بنى هذا المسجد تخليدا لذكرى المهدي بن تومرت الّذي كان مُحبا للعلم والمساجد حتى لُقّب

---

[1]– تقع على شاطئ المحيط الأطلسي و تمتد اليوم بشوارعها و عمرانها و مبانيـــها على مساحة 12ألف هكتار و هي عاصمة بلاد المغرب الأقصى في وقتنا الحالي، و يطلق عليها الرباط .ينظر: حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية ، ص384.

[2]- ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب ، ص 262.

[3]- نفسه: ص 266.

[4]- ينظر: ابن عذارى ، البيان المغرب (قسم الموحدين) ، ص 182.

[5]- ينظر: العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج4، ص 184.

[6]– ينظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص245.

"بأسافو" الّتي تعني الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل في المساجد حتى يتم مُلازمتها من قبل النّاس[1].

وكانت العاصمة مراكش أولى المدن الّتي شهدت اهتماما بالغا في إنشاء المساجد خصوصا في فترة خلافة أبي يعقوب المنصور، "حيث أمر ببناء جامع الكُتبيين صاحب الارتفاع وعِظم الهيكل ، فهو يشغل مساحة تقارب خمسة آلاف وثلاث مئة متر مربع وفيه سبعة عشر جناحا ، وإحدى عشر قبة مزخرفة بالنقوش ، ومئذنته الكبرى الّتي تبلغ مائة ذراع"[2]، وفي هذا الجامع أعلنت قرارات السلاطين وجرت فيه كُبريات الأحداث كما بنى الجامع المكرم وصومعته [3] ، وبنى في مدينة الرباط جامع حسان ومناره [4] ، وعندما فتح قلعة رباح *أمر بتحويل كنيستها إلى مسجد كبير يصلي فيه المسلمون[5].

ويُعد الجامع الكبير بإشبيلية ، من أشهر المساجد الّتي شيدت في زمن أبي يعقوب سنة 567هـ [6]، لاستيعاب الأعداد الكبيرة من المصلين ، حيث قام باستقدام فريق من المتخصصين في شؤون البناء من المغرب والأندلس ، كما أمر ببناء مَنارته الّتي قيل إنه ليس في الإسلام منارا[7] أعظم منها[8] ، وعمل لهذا المنار تفاتيح عظيمة[9] مُوِّهت بمئة

---

[1]– ينظر: ابن القطان ، نظم الجمان ، ص 90.

[2]– ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص 592.

[3]– ينظر: المكناسي ، جذوة المقتبس ، ص 556.

[4]– ينظر: ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ، ص592. عبد الله عنان ، الأثار الأندلسية الباقية في إسبانيا و البرتغال "دراسة تاريخية أثرية" مكتبة الخانجي ، مصر ، ط2، 1997م ، ص54.

*مدينة حصينة تقع بالأندلس بين قرطبة و طليطلة ، من أعمال جيان ، بناها الأمويون ، بها مياه وفيرة ، ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج4، ص 390، الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص469، الحميري صفة جزيرة الأندلس ، ص163.

[5]– عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص 206.

[6]– ينظر: ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص385.

[7]– ينظر:عبد الله عنان ، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا و البرتغال ، ص 52–53.

[8]– ينظر: المقري، نفح الطيب، ج1، ص 208.

[9]– ينظر: عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ج5، ص 232–233.

بمئة ألف دينار من الذهب ، ووزن العمود الّذي رُكبت عليه أربعون رُبعا من الحديد [1] . وقد أثارت هذه الصومعة إعجاب المسلمين والمسيحيين ، ولمّا سقطت اشبيلية في يد النصارى الإسبان سنة 646هـ، فقدت المنارة تفاتيحها المُذهبة، وحُوِّلت إلى برج للأجراس لكنيسة اشبيلية، وهي التي قامت فوق أنقاض الجامع الأعظم وتحمل اسمها الإسباني (لاخيرالدا giralda)[2]، وآثارها باقية ما زالت تحتفظ بروعتها الإسلامية القديمة تحكى للأجيال قصة تقدمهم ، وعَظمة نِتاجهم و تتحدث عن واقعهم الحضاري.

وحفل عصر المُوحّدين ببناء مراكز الصحة والمستشفيات على أسس علميـــة ونفسية واجتماعية ، وتعهدوها بالرعاية ، وجعلوا نفقاتها على خزينة الدولة وأنشأوا الصيدليات، ولعل أهمها بيماريستان مراكش الّذي أمر ببنائه يعقوب المنصور، حيث تخيّر مساحة فسيحة بأَعْدَل موضع في البلد ، ثم أصدر تعليماته إلى البنائين بإتقان عمارته ، مع تزويده بالمياه الواصلة لجميع غُرفه ، كما غرست ساحاته بالأشجار المتنوعة والرياحين، ودعّمه بالأطباء والصيادلة وكافة مستلزمات العلاج ، وكان الخليفة يقوم بزيارة المرضى بعد صلاة العصر ، يتفقد الأحوال ويستفسر عن القائمين عن العمل [3].

وانتشرت التحصينات الحربية في معظم البلاد المُوحّدية وذلك لدواعي أمْنِيـــة وبخاصة في بلد مترامي الأطراف يحف بالأعداء ، وقد وُجدت مثل هذه المباني بكثرة في الأندلس منذ السنوات الأولى من الفتح الإسلامي لها بحكم موقعها الجغرافي، و الّذي يجعل منها مُجاورة لأراضي النصارى .

---

[1]– ينظر: المنوني و آخرون ، التاريخ الأندلسي من خلال النصوص ، شركة النشر و التوزيع المدارس ، الدار البيضاء – المغرب– ط1، 1412هـ/1991م، ص208– 210 .

[2]– عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ص 233.

[3]– ينظر: عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص 364.

وقد استفاد المُوحّدون بما وجدوه من حصون كثيرة خلفها المرابطون في المغرب والأندلس، حيث قاموا بترميمها وأضافوا لها حصونًا وقلاعًا جديدةً، حيث جدّد عبد المؤمن بن علي سور مدينة تينمل الّذي بلغ عرضه المِترين ، وجعل عليه أبراج مستطيلة الشكل يصل طولها إلى خمسة أمتار [1]، كما وسّع أبو يعقوب حصن قلعة جابر بشرق إشبيلية الّتي يعود صنعها إلى عهد ملوك الطوائف وأجرى فيها ساقية [2]، وكانت المواد الّتي اعتمدوها في البناء القواعد الحجرية والّتي تتميز بصلابتها الشديدة إضافة إلى الآجر والطين والرخام[3].

ثانيا- الحياة الفكرية والعلمية:

بعد أن اشتد ساعد الدولة المُوحّدية بامتلاكها زمام الأمور ، كان لا بد لها أن تهتم بالحركة العلمية والفكرية، فعرفت اهتماما واسعا بالعلوم والآداب وتطورا في الحياة اليومية .

وقد ساعد على ذلك طبيعة الدعوة المُوحّدية الّتي شجعت العلم ، ورغّبت فيه فقد كان ابن تومرت أحد علماء عصره المجتهدين في طلب العلم ، حيث ارتحل إلى المشرق من أجل التزود بالمعارف ، واستغرقت رحلته خمسة عشر عاما ، وعاد منها "بحرا مُتفجرا من العلم ، و شِهابًا واريًا من الدّين" [4]، لذلك حضّ على تحصيله بقُوة وحماسة لأنه حسب رأيه " أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر، أحسن ما يعمل العلم الّذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير،هو أعز المطالب وأفضل

[1]- ينظر: ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب، ص593.

[2]- ينظر: عبد الله عنان ، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا و البرتغال، ص 69.

[3]- ينظر: الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص232.

[4]- عبد الرحمان ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج6، ص267.

المكاسب وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال" [1]، لقد جعل ابن تومرت العلم في أعلى المراتب، لأنه نور العباد و البلاد ، كما حثّ أتباعه على طلب النّافع منه لإقامة الحق والعدل و بسط القوة و النفوذ.

وسار حُكام الدولة المُوحّدية على نهج ابن تومرت في طلب العلم ، فكان أوّل خلفائها "عالم مُتمكن واسع الأفق ، فقيها في علم الأصول ، حافظا للحديث الشريف متقن للرواية مشاركا في كثير من العلوم الدينية و الدنيوية"[2].

وكان ابنه يعقوب يوسف" أعرف النّاس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وكان أحسن النّاس ألفاظا بالـــــقرآن وأسرعهم نُفوذ خاطر في غامض مسائل النّحو"[3].

ويبدو أن الاهتمام بالعلم والعلماء ظاهرة ميّزت أغلب خلفاء الدولة المُوحّدية سواء إذا تعلق الأمر بأيام عزها وقوتها، أو أيام ضعفها وهوانها ، لأننا نجد مِن الخلفاء مَن اتسم بالصفات العلمية البارزة حتى في عهد تفكك الدّولة ، فقد كان إدريس الملقب بالمأمون(ت629هـ)[4] " فصيح اللسان، فقيها حافظا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ضابطا للرواية عارفا بالقراءات ، حسن الصوت والتلاوة ، إمامًا في علم اللغة العربية والمعرفة بالآداب وأيام العرب" [5] ، لذلك اهتم جميع الخلفاء بالعلوم والفنون كما اعتنوا

---

[1]– عمار طالبي : أعز ما يطلب ، محمد بن تومرت مهدي الموحدين ، وزارة الثّقافة ، الجزائر ، دط، 2007م ص29.

[2]– ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، ص 203.

[3]–ابن خلكان : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، ج7، ص134.

[4]– هو إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، وُلد سنة 581هـ، كان كاتبا بليغا له توقيعات عجيبة سفاكا للدماء لا يتوقف فيها طرفة عين ، أول من استخدم عسكر النصارى بعد أن أدخل ـــهم إلى أرض المغرب ، أمر بتدوير الدراهم الّتي ضربها المهدي مربعة . ينظر: عبد الرح ـــمان بن خلـــــدون، تاريخ ابن خلدون،ج6، ص300.

[5]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 249.

بتأسيس المكتبات العامة ، واهتموا بالجيل الناشئ وتوجيهه توجيهًا خاصًّا يطابق المنهج العقائدي للدولة الموحدية ، وتميز عهدهم بالحرية الفكرية وتشجيع رجال الفك ـــر وتقديرهم والعناية بهم.

وحرص الخلفاء المُوحّدون على تقريب العلماء من مجالسهم وإكرامهم، وإغداق الصلات عليهم، فانطلقت في عهدهم حُرية التفكير والبحث ، وغلبت الفلسفة على ثقافتهم و ممن برز في هذا المجال : أبو بكر بن طفيل (ت 581هـ)[1] ، وأبو مروان بن زهر(ت557هـ)[2] ، وأبو الوليد بن رشد (ت595هـ)، كما شجع الخلفاء الرحلات العلمية الّتي قام بها الطلبة سواء إلى الأندلس أو المشرق للدراسة والسماع [3] ، وبهذا تفتحت الأفكار وتنوّرت العقول ، وقد أكدت هذه الرحلات ظاهرة الامتزاج الثقافي بين العطاءات المتواجدة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، و فتحت أمام المهاجرين أفاقًا واسعةً من المعارف المتنوعة ، فدقّت مناهجهم وسمَت معارفهم .

لقد كان النشاط الفكري موازيا للتوسع الإمبراطوري والتطور الحضاري ، ويذكر محمد المنوني أن فضل الموحدين على المعارف كان عظيمًا ، فإنهم حافظوا على ما

---

[1]- هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي، من أهل برشانة بالمرية ، كان عالـما و فقـــيها وفيلسوفا و طبيبا ماهرا ، برع في العديد من فروع العلم و المعرفة ، خدم في بلاط الموحدين ، نال عند الخليفة أبـو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مكانة متميزة و منزلة رفيعة ، أشهر مؤلفاته حي بن يقضان ، أسرار الحكمة المشرقية و غيرها .ينظر : ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي الأندلسي ،المقتضب من كتاب تحفـــة القادم تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري، القاهرة ، ط 3، 1410هـ-1989م، ص125. لســـان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج2، ص 478.

[2]- عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي الإشبيلي ، كان جليل القدر في أهله حظيا عند الملوك و الأمراء متحققا بصناعة الطب متقدما فيها ، تولى رياسة الطب ببغداد .ينظر: عبد الملك المراكـــشي الذيل و التكملة ، السفر الخامس، ص 18-19 ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ، حققه شوقي ضيف دار المعارف ، مصر ، ط4، ج1، 1955م، ص 270.

[3]- ينظر: شفيق محمد عبد الرحمن الرقب ،شعر الجهاد في عصر الموحدين ، مكتبة الأقصى ،عمان ، الأردن،دط ص 33.

اختاروه منها إلى حدٍّ كبيرٍ وشجعوها كما شجعوا كثيرا من العلوم التي لم تكن رائجة أو كان محظورا رواجها في العهد المرابطي[1] لذلك بلغت المعارف في عهدهم مبلغًا عظيمًا.

1- المراكز الثقافية:

مثلت الحياة العلمية مظهرا بارزا من مظاهر الحضارة المُوحّدية، في ظل الوِحدة السياسية ، فظهرت حواضر مُهمّة انتشرت بالمغرب والأندلس كان لها الدّور الكبير في إبقاء المِشعل الثقافي مُتقدا ، وقد عبّر ابن خلدون عن أهميتها بقوله :" وذلك أن القيروان و قرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس واستبحر عمرانهما ، كان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسّخ التعليم لامتداد عصورهما ما كان فيهما من الحضارة " [2]. ويبدو أن بعض المدن الكبرى قد فَقدت مكانتها خلال العصر المُوحّدي ولم تقُم بدورٍ فاعلٍ في الساحة الفكرية ، كمدينة تاهرت التي لم تنل عناية عبد المؤمن وخلفائه[3] ، ربما بسبب تجاهل الدول الّتي جاءت بعد الرستميين لها أو لتعارضها العقدي مع مبادئ تلك الدول [4]، وإذا حاولنا تتبع مواقع المراكز الثقافية في العهد المُوحّدي ، وجدناها تنقسم على اعتبار الإطار الجغرافي لهذه الدولة إلى قسمين:

أ- المراكز الثقافية في بلاد المغرب:

[1]- ينظر: العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين ، ص15.

[2]- ابن خلدون : المقدمة ،ج1، ص 166.

[3]- ينظر: علي عشي ، المغرب الأوسط على عهد الموحدين "دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية و الفكـــرية " (من534هـ/1139م إلى 633هـ/1235م) ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة الجزائر،2011-2012م ، ص 65.

[4]- ينظر: عبد الله علي علام ،الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ص286.

انتابت المدن المغربية حركة علمية نشطة خلال العهد المُوحّدي ، ازدهرت فيها الحياة التعليمية والثقافية ، من خلال كثرة الشيوخ و توفر المدارس ، التي اجتذب بريقها مختلف فئات العلماء والطلبة المتعطشين للمعرفة ،وشهدت أهم التّجمعات العلمية في المنطقة، "واشتملت عُدوة المغرب على عِدة مدن كانت وراء ازدهار الحركة العلمية على غرار كل من : الجزائر، وقسنطينة، ووهران وسبتة وغيرها، ممن شهدت حِراكًا فِكريًا ملحوظا "[1]، لكنها لم تبلغ الشهرة الكافية ، في حين برزت حواضر أخرى أكثر مستوى و رِفعة ثقافية، من أهمها :

- فـــــاس:

لقيت فاس اهتمامًا واسعًا من وُلاة الأمر من المُوحّدين ، ونتيجة لهذا الاهتمام الكبير بلغت من الرقي والازدهار ما بلغته بغداد أيام الرشيد، حتى أصبحت تسمى بغداد المغرب، مما دعا لسان الدين بن الخطيب يصفها بأنها: "مُصلى القاصي والداني ، بلد المدارك والمدارس والفهارس والمشايخ ،ألسنتها باللغات المختلفة لاحنة" [2]، وقد عرفت هذه المدينة ازدهارا واسعا للعلوم الدينية ، وذلك بفضل المساجد المنتشرة بكثرة بها ،ومن مظاهر جامِعية فاس المُوحّدية، ارتفاع عدد الراحلين إليها لأخذ العلم على يد شيوخها وعُلمائها ، أمثال: عبد الله بن محمد بن علي الحجري (ت 589هـ) الّذي خرج من المرية وأجاز البحر إلى فاس ، وأقام بها مُدّة ، فبَعُد صيته وعَلا ذِكرهُ ، فكان الناس يرحلون للسماع إليه، وعبد الرحمن بن الحسن الفاسي (ت 618هـ)الّذي كانت تشد إليه الرّحال

[1]– ينظر: علي عشي ، المغرب الأوسط على عهد الموحدين ، ص65.

[2]– جمال أحمد طه : مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين ، ص273.

لأخذ مذهب مالك عنه [1] ، وجُمع في هذه الحاضرة من المعارف والعلوم ، ومن ذخائر الدنيا ما لم يجمع في مدينة من البلدان [2].

- مراكـــش:

حاضرة المغرب، والمدينة الّتي تتجه إليها الأنظار والأفكار، كانت مقصد الفلاسفة والأطباء والعلماء للعمل في قصورها ودواوينها، والتعليم في مدارسها ومعاهدها [3]، فهي لم تزل منذ أُسست قطب علم وصلاح ، وقاعدة بلاد المـغرب وقطرها ومركزها ،فسيحة الأرجاء ، صحيحة الهواء، بسيطة الساحة، مستطيلة المساحة، كثيرة المساجد ، عظيمة المشاهد، جمعت بين عذوبة الماء، واعتدال الهواء، وعظيم البركة [4]. ومِما ساعد على بروز مراكش في الساحة العلمية ،توافد العلماء عليها باختلاف أغراضهم للتزود بعلومها بحفظهم لأمهات الكتب ، وترجمتها ، وكانت هذه العُلوم تُلقى في المدارس والمساجد الّتي أدّت دورها في نشر الثقافة والعلم ، كما أعطت للمجتمع المُوحّدي وُجودًا وتميزًا على الصعيد الاجتماعي والفكري والسياسي ، فتخرج منها العالم الفقيه ،والقاضي الجليل

[1]– ينظر: الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب، ص 232.

[2]– ينظر: علي الجزنائي ، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب منصور ، المطبعة الملكية الرباط ،ط2، 1991م، ص39.

[3]– ينظر: ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب، ص 138.

[4]– ينظر: محمد بن عبد الله الم وقت المراكشي : السعادة الأبدية في التعريف بالحضرة المراكشية ، مراجعة: أحمد متفكر، المطبعة الوطنية ، مراكش – المغرب– ط2، 2011م، ص17.

ومِن أشهرهم :القاضي إسحاق بن إبراهيم الغماري السعيدي (ت 609هـ) الذي ولّى قضاء فاس وسبتة[1].

- القيـــــروان:

مركز الإشعاع العلمي في بلاد المغرب، اعتنى بها المُوحّدون باعتبارها حلقة وصل بين المغرب و الأندلس ، كما أنها لم تكن بمعزل عن المشرق بل كانت شديدة الاتصال به ، نتيجة موقعها الجغرافي المميّز مما جعلها همزة وصل بين المشرق الإسلامي ومغربه يمُر عليها كل من يقصد السفر ، أو يطلب العلم ، أو يرغب لِقاء الشيوخ ، وفي هذا يقول المراكشي:" وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر عُلمائها ، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم " [2]، فازدهرت فيها المعارف ، ونشطت الحركة العلمية والأدبية، كما كان لجامعها الفضل الكبير في ازدهار الحركة الفكرية باعتباره مركزًا علميًا شهيرًا .

- تلمـــــسان:

برز نجمها كمركز علمي هام على عهد المُوحّدين ، وذلك لِقُربها من العاصمة مراكش ، فضلا عن كونها مسقط رأس عبد المؤمن مؤسس دولتهم ، وقد كانت تلمسان "مشتلة للعلم والمعارف ، وخزانا للعلماء والفقهاء ، ومنبرا للدعـــــــوة الإسلامـــية وعاصمة للزهد والتصوف، ومزارا لطلاب العلم وأصحاب الرّحلة في طَـلبه، ومَحجّا للأولياء الصالحين"[3]، مما جعلها دائمة الحِراك الثقافي تُؤثر وتتأثر بغيرها من المراكز

[1]– ينظر: أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس، ط2، 2000م، ص 140.

[2]– عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص255.

[3]– عبد العزيز فيلالي : تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، مجلة الوعي، دار الوعي، الجزائر،عدد3–4،أفريل – ماي 2011م، ص7.

الفكرية، ومساهمة في نمو الحركة العلمية خلال الفترة المُوحّدية ، فكانت منارة مُشعة في كل العالم الإسلامي، تستقطب الأنظار إليها ، وتجذب العقول نحو علومها [1] ، وقد ظهرت أهميتها في مجال الدراسات الفقهية من خلال جُلة من العلماء نذكر منهم : الفقيه علي بن أبي قنون التلمساني (ت577هـ)[2] والفقيه ميمون بن جبارة (ت584هـ)[3].

- بجـــــاية:

مدينة العلم والعلماء وقِبلة الفقهاء في العصر المُوحّدي ، حيث كان الطلبة يقصدونها من كل مكان ، للاستزادة من علوم الدين والحديث واللغة، وقد كانت مزدهرة علميا وثقافيا حتى إنها لُقبت "بمكة الصغيرة لأنها كانت مُلتقى العلماء والأدباء والأطباء والشعراء"[4]، وليس أبلغ من قول ابن تومرت لعبد المؤمن عند لقائهما الأول في بجاية " العلم الّذي تطلبه بالمشرق ، قد وجدته بالمغرب" [5] وهنا يقصد ازدهار بجاية بالعلماء كما كانت المدينة مهدًا للأندلسيين الفارين من طغيان النصارى، وكان الأوروبيون يطلبون العلم بها [6] ، وخاصة الإيطاليين الّذين تلقوا المعارف في بجاية ، وتعلموا كثيرا من الصنع من بينها الشمع بدليل أنه لا يزال يحتفظ باسم بجـاية أي (Bougie) وهو

---

[1]– محمد مرتاض : الصلات الثقافية بين تلمسان وفاس ، مجلة الفضاء المغاربي ، مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي ، العدد السادس والسابع،جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان– 1432هـ /2011م، ص12.

[2]– أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف ابن الأبار : المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصفدي ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة– مصر– ودار الكتاب اللبناني بيروت– لبنان– ط1، 1989 م، ص294.

[3]– أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة تحقيق : عبد السلام الهراس ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1415هـ/1995م،ج2 ص 396.

[4]– عبد القادر جغلول : مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم و الوسيط ، ترجمة فضيل الحكيم ، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت – لبنان – ط1 ،1982م، ص60.

[5]– البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص 16.

[6]– ينظر: الطاهر توات ، ابن خميس شعره و نثره، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، دط،1991م، ص 286.

لفظ بجاية في لهجتهم [1]، وقد انهال على بجاية علماء القلـعة وصقلية والأندلس فاستفادت من هذه الهجرة ، وازدهرت بالعلوم من كثرة الوافدين عليها من الفقهاء والمحدثين والفلاسفة، ومن أبرز الأعلام الّذين أنجبتهم هذه الحاضرة نجد في مقدمتهم : الفقيه عبد الحق الإشبيلي البجائي (ت 581هـ) [2]، ومحمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد الأنصاري (675هـ)[3] الّذي وُلد ببجاية وقرأ بها.

ب- المراكز الثقافية بالأندلس:

تميّز عدد من مُدن الأندلس بأنشطتها الثقافية الّتي بوّأتها الصدارة في العلوم والمعارف ، نتيجة تشجيع وعناية الأمراء والخلفاء المُوحّدين في سعي حثيث لمنافسة الحواضر الإسلامية الكبرى في بغداد العباسيين ، قاهرة الفاطميين ، كما كانت الرحلات الأندلسية إلى المشرق لتحصيل المعرفة، أو إلى المغرب لأخذ العلم على يد مشايخها فرصة للامتزاج العلمي والأدبي بين الأقطار الإسلامية ، وبذلك نشطت الحركة الثقافية في العديد من المُدن الأندلسية في مجال نشر العلوم والمعارف المتنوعة، ولعل أشهر الحواضر الأندلسية وِفقًا لما رفدت به من أعداد العلماء والمثقفين:

- قرطـــــبة:

[1]- ينظر :عبد الله علي علام ،الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ص 287.

De Mas Latrie :Traite de Paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge ,Paris 1866,p 99-100.

[2]- الذهبي : سير أعلام النبلاء ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1985م، ج2، ص466.

[3]- أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،280.

هي حاضرة الأندلس وأُم مدائنها ومُستقر حكامها من الأمراء والخلفاء، فهي مدينة العلم[1]، وبتوسطها للأندلس وسهولة الطرق الموصلة لها وشهرة علمائها وأدبائها، كانت المحج لطلاب العلم و الشهرة ، وكانت قرطبة " قُبة الإسلام ومجتمع أعلام الأنام فإليها كانت الرحلة في الرواية ، إذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهي من الأندلس منزلة الرّأس من الجسد" [2]، وقد اشتهرت الحاضرة بأنها أكثر مدن الأندلس اهتماما باقتناء الكتب وقراءتها ، وامتلاك المكتبات الّتي يُنفق فيها المال الكثير [3]، وكان الخلفاء يحرصون في مدّة ولايتهم عليها بمخالطة العلماء، وتنظيم مجالس علمية خاصة يحضرها الفقهاء والطلبة، والحُفاظ لمناقشة المسائل العلمية ومن أعلام هذه المدينـــة: أبو الفضل قاسم بن محمد القرشي القرطـــبي(ت 662هـ)[4] ، ومحمد بن عبد العزيز الغافقي الشقوري (ت579هـ)[5].

- اشبـــــيلية:

مدينة كبيرة وعامرة ، وبها خَلقٌ كثير [6]، عظيمة الشان، طَيّبة المكان [7] ، حازت مكانة رفيعة على عهد المُوحّدين فاتخذوها قاعدة لهم ،إذ كانت أولى الحواضر الّتي استولوا عليها ، وساعد على ازدهارها تواجد العنصر العربي بكثرة فيها ، وقد يسّر قُرب المسافة بينها وبين قرطبة تنقّل العلماء وطلاب العلم بين المدينتين [8]، فوفد إليها

---

[1]– مجهول: ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق لويس مولينا ، د. مط ، مدريد، دط،1983م، ص 30.

[2]– المقري : نفح الطيب،ج1، ص153.

[3]– ينظر: المقري، المصدر نفسه ، ص155.

[4]– ينظر:الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 174–177.

[5]– ينظر: ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج2، ص47.

[6]– ينظر:ابن عبد المنعم الحميري ،الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 58.

[7]– مجهول : تاريخ الأندلس ، تحقيق عبد القادر بوباية ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 2007م، ص111.

[8]– ينظر: عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومُستهل الموحدين، دار الغرب الإســـلامي بيروت– لبنان– ط1، 1408هـ– 1988م، ص383.

شخصيات مرموقة ومشهورة في الميادين الثقافية والقضائية والسياسية ، وقد برز فيها العديد من العلماء في مختلف العلوم والفنون ، كشهاب الدين أبي العباس أحمد بن فرج اللخمي الإشبيلي الّذي كان من كبار الأئمة و الحفاظ[1]، بالإضافة كذلك إلى أبي الحسن علي بن محمد الرعيني (ت666هـ)[2] الّذي تولّى القضاء واشتغل بالتأليف.

2- المؤسسات التعليمية:

لقد تنوعت أماكن التعليم في عهد المُوحّدين من مساجد، وكتاتيب، ومدارس ورغم هذا التنوع يبقى الهدف واحدا، وهو نشر الدّين الإسلامي، وتعليم اللغة العربية في أوساط المجتمع.

أ- المساجد (الجوامع) :

يُعدّ المسجد من المؤسسات التعليمية والعلمية الهامة ، استخدم عبر تاريخ العرب للوعظ والإرشاد ، وتعليم النّاس أصول دينهم والإفتاء لهم فيما أُشكِل عليهم، وبِما أن الدّعوة المُوحّدية قامت على أساس ديني ، فقد انتشرت المساجد في جميع ربوع الدّولة ومن أشهرها: "جامع القرويين" بفاس [3]الّذي يُعدّ أقدم جامعة علمية في العالم العربي يقصده العلماء والشعراء[4]من كل مكان، وأيضا "جامع قرطبة" بالأندلس [5]و"جامع القيروان" القيروان" الّذي بلغت شهرته الآفاق العربية [6]، وكذلك" الجامع الأعظم" ببجاية [1] الّتي

---

[1]- ينظر: لامعة زكري ،الحياة الثقافية في الأندلس (7هـ-9هـ/13م-15م) دورية كان التاريخية، العدد 18، ص 61.

[2]- ينظر: أبو الحسن علي بن محمد الرعيني ، برنامج شيوخ الرعيني ، تحقيق إبراهيم شبوح ، مطبعة مديرية إحـياء التراث القديم ، دمشق – سوريا- 1962م، ص07.

[3]- جمال أحمد طه : مدينة فاس في عصر المرابطين و الموحدين ، ص 273.

[4]- ينظر: المرجع نفسه ، ص 273-274.

[5]- ينظر: الرعيني ، برنامج شيوخ الرعيني ، ص 131.

[6]- ينظر: حكيمة إملولي، الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم "العهد الموحدي نموذجا" مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب المغربي القديم ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة،1492هـ-1430هـ/ 2008م-2009م، ص20.

كانت تُدرّس فيها مختلف العلوم والآداب . وقد ساهمت جميعها في نشر المعرفـة وبَعثها في ربوع الدولة، وتخريج طبقة من المفكرين الّذين أسهموا في نشر الثقافة العربية الإسلامية.

ب- الكتاتيـــب:

مراكز تعليمية لا تقل أهمية عن دور المسجد ، ويطلق اسم الكُتاب على المعهد الّذي يتعلّم فيه صِبْية المسلمين القرآن الكريم ، اشتهر ببساطته لأن وُجوده لم يتطلب إمكانيات مادية كبيرة ، فقد كان فَرْشه بسيطا تمثل" في حصير مصنوع من الحلفاء و لوح مصقول ، ودواة للحبر ، وقلم من قصب ، و إناء لمحو ألواحهم به" [2]، و قد عمل عبد المؤمن بن علي على تعميم التعليم بالكتاتيب فأنشـــأها في كل بلد وقريـــة كبـيرة وصغيرة، في الوديان والجبال، يعلّم فيها القرآن الكريم، وما اتصل بذلك من الخط العربي ، ومن أشهر من تألق نجمهم في الكُتاب خلال هذا العهد :أبو عـبد الله التاودي (ت580هـ) من أهل فاس ، كان يعلّم الصبيان القرآن الكريم فيأخذ الأجر من أولياء الأغنياء و يرُده إلى أبناء الفقراء[3].

ج- الزوايـــا:

هي عبارة عن مجموعة من الأبنية المتلاصقة بها صحن كبير، تتوسطه فوارة أو بِركة وضع فيها الحناء و الورد [4] لتعطير المكان ، وتتكون من مجموعة غُرف لإيواء

---

[1]- الغبريني : عنوان الدراية ، ص199.

[2]- قاسمي مختار: التعليم بالكتاب في المغرب الأوسط أيام حكم عبد الواد (633هـ-681هـ/1235م-1554م) دورية كان التاريخية العدد12،الكويت،2011م، ص31.

[3]- ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى "الدولتان المرابطية و الموحدية" ج1، ص 188.

[4]- ينظر: حكيمة إملولي، الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم ، ص23.

الزوار وطلبة العلم ، ومن غرفة للتدريس و مكتبة [1]، وكانت هذه الزوايا متعلقة بالنساك والمتصوفة ، وفيها تُلقى الدروس الدينية و الفقهية ، وهي أنواع منها البسيطة التي بُنيت لأجل التعلّم و التعـبّد ، والزاوية ذات الولّي وهي الّتي بُنيـت حول ضريح [2]، وسرعان ما تكتسب شهرة و سمعة عظيمة ، فتتحول إلى مركز علمي وعمراني، ومن أشهر زوايا العصر الموحدي : زاوية أبي الفضل قاسم بن محمد القرطبي (ت 622هـ)[3]، و زاوية أبي حجلة عبد الواحد بتلمسان [4]، و زاوية أبي زكريا يحيى الزواوي ببجاية (ت 611هـ)[5] وقد كانت هذه الزوايا منبعًا للعلم والفقه، ومَنبرًا للأخلاق والفضيلة، وعاملاً من عوامل تثقيف المجتمع ،و تربيته وتهذيبه وإصلاحه.

د- الربـــــاط:

هو عبارة عن ثكنة عسكرية وأمْكِنة لتجميع الجيوش للدفاع عن ثغور الدولة ودفع المُغيرين والمهاجمين من النصارى[6]، وقد أصبح أكثر نفعًا في عهد المُوحّدين حيث حيث لم تقتصر مهمته على التربّص بالعدو في الثغور، بل أصبح معهد علمي تُدرس فيه سائر العلوم وخاصة الدينية [7]، و يشهد حلقات الدّرس والمناظرة بين العلماء والطلبة شأنه في ذلك شأن المسجد، كما نجد في كل رباط مكتبة جامعة تضم نفائس الكتـــب

---

[1]-ينظر:إلهام حسين دحدوح ، مدينة فاس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية ، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة القاهرة،1421هـ/2000م، ص250.

[2]- ينظر: محمد بن تاويت و محمد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت – لبنان- ط1، 1960م، ص72.

[3]- ينظر: الغبريني ، عنوان الدراية ، ص162-163.

[4]- ينظر: محمد الأمين بلغيت ، الرّبط بالغرب الإسلامي و دورها في عصر المرابطين و الموحدين ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر،1987م ، ص282.

[5]- ينظر: الغبريني ، عنوان الدراية، ص137.

[6]- ينظر: محمد الأمين بلغيت، الرّبط بالغرب الإسلامي و دورها في عصر المرابطين و الموحدين، ص267.

[7]- ينظر: رشيدة برادة، الدور التربوي و التعليمي لمؤسسات التعليم العتيق في المغرب الإسلامي ، مجلة الجامعة المغاربية ، اتحاد المغرب العربي ، طرابلس ، ليبيا ، العدد1، السنة الثانية،2007م، ص112.

ومستشفى للمرضى ، ومع مرور الزمن تطور بعضها إلى مدن وقرى [1]، وخير مثال على ذلك "رباط الفتح " [2]، الّذي أقامه عبد المؤمن بمدينة سلا ، وجلب له المـــــــاء وجهّزه بالعمارة وبنى حوله الأسواق ، فتحوّل إلى مدينة على ساحل المحيط الأطلسي [3] و" رباط تازة " [4]، الّذي أصبح هو الآخر مدينة قائمة بذاتها ، تتجمّع فيها النّاس لتوفر الأمن وكسب العيش وطلب العلم.

هـ- المـــــــدارس:

اهتم المُوحّدون بإنشائها خاصة عبد المؤمن الّذي أسس المدارس بمراكش ثم عمَّمَها على كافة المغرب ، ومنها "مدرسة الحُفاظ بمراكش" [5] لتخريج الموظفين وتكوين الإطارات الإدارية، والمدرسة الّتي أسسها بالرباط لتعليم فن الملاحة [6]، ولعل هذه المدرسة البحرية هي الأولى من نوعها في العالم الإسلامي [7]، وسار حفيده يعقوب المنصور على خطاه ، فقد أمر ببناء المدارس في المغرب والأندلس ، ومنها "مدرسة

[1]- ينظر: صالح بن قربة، عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، دط 2007م ص97.

[2]- حسن علي حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ، ص384.

[3]- ينظر: صالح بن قرية ، عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب ، ص 97.

[4]- المراكشي: المعجب ، ص176.

[5]- ينظر: محمد المنوني ، العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين ، ص17.

[6]- ينظر: إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، دار الرشاد الحديثة ، المغرب، دط، 2000م، ج1، 345.

[7]- ينظر: صفية ديب،التربية و التعليم في المغرب و الأندلس في عصر الموحدين بين القرن 6-7هـ/12م-13م نشر مؤسسة كنوز الحكمة ، الأبيار، الجزائر، 2011م ، ص 259.

المسجد الأعظم" [1] بسلا حيث أنشأ بها خزائن الكتب ، وأُلحق بالمدارس بيتًا للطلبة بمراكش حيث كان معهدًا للمناظرة ، وامتحان الوافِدين من طلاب العلم على المدينة [2]. كما حرص حُكام الدولة على استجلاب العلماء إلى حضرتهم سواء في بلاطهم، أو إلى المعاهد من أهل كل فن من فنون المعرفة، حيث كانوا يُدقّقون في اختيارهم، واختبار كفاءاتهم[3]، ومدى تمكنهم و توسّع مداركهم و مشاربهم.

وقد اهتم الخواص أيضا بإنشاء المدارس فهذا المحدّث أبو الحسن الشاري السبتي (ت649هـ) يشيّد مدرسة بسبتة من مَاله الخاص ، ويُلحق بها مكتبة نفيسة[4] .

ومن أجل أن تؤدي المدرسة دورها التعليمي على أحسن وجه خلال هذا العهد وُفرت لها كل الإمكانيات الضرورية من قاعات لحضور المناظرات ، وأماكن لإقامة الطلبة ، ومشرفون على المكتبات المُلحقة [5]، كما خصصوا مِنحًا للطلبة الفقراء [6]، وبهذا ساهمت المدارس في تنوير العقول ،و تفتح الأفكار والمدارك للوصول إلى الدرجات العليا من الثقافة العلمية .

و- المكتـــــــبات :

حرص الخلفاء المُوحّدون على إنشاء المكتبات والخزائن العلمية ، سواء في قصورهم أو في الأماكن العامة ، و تزويدها بمختلف الدُّرر الّتي كانت تَصْدر في جميع

---

[1]- ينظر:العباس بن إبراهيم السملالي ،الإعلام بمن حلّ بمراكش و أغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية ، الرباط، ط2،1413هـ/1993م، ج1، ص83.

[2]- ينظر: عبد الهادي حسين، موقف يعقوب المنصور من الظاهرية ، مجلة دار الحديث الحسنية، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط، العدد2، 1981م، ص315.

[3]- ينظر: إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم، ج1، ص71.

[4]- ينظر: محمد المنوني ، حضارة الموحدين ، دار توبقال للنشر ، المغرب، ط1، 1989م، ص21.

[5]- ينظر: مرمول كربخال، إفريقيا ، ترجمة محمد حجي وآخرون، مكتبة المعرفة ، الرباط، 1989م ،ج2، ص52.

[6]- ينظر: ابن القطان، نظم الجمان، ص177.

أنواع العلوم والفنون، وهذه الملكيات إن كانت خاصة أو عمومية إلا أنها خدمت الحركة العلمية ، وفتحت آفاقا واسعة لطلاب العلم و مُحِبي المعرفة.

ولم تتوقف عناية الخلفاء بالمكتبات على إنشائها و جلب الكتب المتنوعة إليها، بل تعداه إلى تنظيمها تنظيمًا مُحكمًا يُبعدها عن كل فوضى عن طريق وضعهم للقيِّم على الخزانة العلمية[1] ، وكان لا يتولاها إلا عليّة أهل العلم و أكابرهم ، من له خِبرة و دِراية بالكتب والمكتبات، ومن أشهر من تولّى هذا المنصب ابن الصقر الأنصاري(ت 569هـ) من مدينة غرناطة و كان قاضيا عليها [2]، وقد أهّلته خِبرته في ترتيب الكتب وتنظيمها إلى ذلك.

واشتهر الخلفاء بحبّهم للكتاب والاحتفاء به جَمعًا ونسخًا وحُسن مظهر، ومن الشواهد العظيمة على ذلك اهتمام أبو يوسف بن عبد المؤمن بجمع الكتب ووضعها في الخزانة العامة ، وكذا اقتراحه بتأليف مؤلفات جديدة في مواضيع معينة مثلما فعل مع ابن رشد حين طلب منه أن يُصنف له كتابا يشرح فيه فلسفة أرسطو طاليس [3]، ويذكر غُموض أغراضه، وكان يأمر بنسخ بعض الكتب ليشجع الناس على الاطلاع عليها [4] وقد بلغ اهتمامه بالكتب والمكتبات إلى حد نزع ملكية المكتب من صاحبه أبي الحجاج المراني خشية ضياعها مع تعويضه عنها، والاحتفاظ بها في ملكيته من أجل صيانتها والاعتناء بها[5].

ولم تكن الرغبة في جمع الكتب مقتصرة على وُلاة الأمر فحسب ، بل كان من العلماء والفقهاء أيضا من ينفق المال الكثير في سبيل اقتناء المؤلفات وتكوين مكتبات

[1]– ينظر: إبراهيم حركات ، مدخل إلى تاريخ العلوم ، ج1، ص 65.

[2]– ينظر: عبد الملك المراكشي، الذيل و التكملة، السفر1، ص228.

[3]– ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص175.

[4]– ينظر: علي عشي ، المغرب الأوسط على عهد الموحدين، ص127.

[5]– ينظر:عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص168.

خاصة بهم تضم الدواوين العتيقة والذخائر النفيسة، كالشيخ أبي حفص بن عمر الهنتاني الّذي كانت له هواية كبيرة في جمع الكتب ومطالعتها واقتنائها ونسخها، حتى اجتمعت له خزانة عظيمة عالية الفنون [1] ، و" العالم الفقيه محمد بن عبد الحق اليعمري التلمساني (ت 625هـ) الذي كان جمّاعة للكتب الجليلة والمفيدة والذخائر النادرة، وقد احتوت خزانته على ما لم يجتمع لأحد ، من أبناء جنسه ، كثرة ونَفاسة" [2]، وقد أدّت هذه المكتبات دورًا حضاريًا في بثّ إشعاع الثقافة في شتى ضروب المعرفة ،إذ اعتبرت محلا لتثقيف وتنوير المجتمع ، ومكانًا لنشر المبادئ والقيم التقدّمية وتعميم العلوم النافعة .

3- ميادين الحركة الثقافية و الفكرية:

عرف عصر المُوحّدين اعتناءً كبيرا بالعلوم ، فنهضت ظروف التأليف في العُدوتين نظرا لسياسة الخلفاء الّتي جرت على إطلاق حرية البحث والتفكير ، ومِما ساعد أيضا على تنشيط الحركة العلمية في هذه الحقبة التاريخية ، تقاطر العلماء على اختلاف مداركهم ومشاربهم ومسالكهم من الأندلس إلى المغرب ، وعُبور العلماء والطلبة المغاربة إلى الأندلس الرطيب لطلب العلم والنهل من منابعه الأصلية، كـما كان للتبادل الثقافي بين المغرب والمشرق دورٌ كبيرٌ في توسيع المدارك وتقريب الثقافات ونقل العديد من العلوم والفنون ، وهذا كله انعكس إيجابا على العلماء الّذين ذكرتهم كتب

[1]- ينظر: شفيق محمد، شعر الجهاد في عصر الموحدين، ص33.

[2]- عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة ، ج5، ص209.

التراجم والّذي حفل بهم هذا العصر الذهبي ، وعلى غزارة الإنتاج العلمي الّذي تجلى في كثرة المصنفات في جميع فروع المعرفة.

أ- **العلوم النقلية** : وتشمل علوم الدين ، وعلوم اللغة العربية ، وهي مأخوذة من الكتاب بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق ، وقد أولى المُوحّدون عنايتهم بهذا الضرب من العلوم ومن أهمها:

-علم القــراءات:

يُصنّف في مقدمة العلوم الدينية ، باعتباره أول محاولة في تفسير القرآن الكريم بلغ اهتماما كبيرا في عهد المُوحّدين بهدف تعليم الناس القراءة الصحيحة لكتاب الله عز وجل [1]، ويمكننا أن نلمس هذا الاهتمام في عدّة مظاهر منها "أخذهم الناس بقراءة حزب من القرآن الكريم مرتين في اليوم ، وذلك بعد صلاة الصبح، و بعد صلاة المغـــرب وقد تمسكوا بهذه العادة حتى في أوقات الحرب و مُنابذة الأعداء" [2]، كما أمر الخليفة عبد المؤمن نُوابه في الولايات المختلفة بِحَث الناس على حِفظ ما تيسّر من القرآن الكريم وألزم النواب بأن يستعينوا في ذلك بمُعلّمين من مشاهير القُرّاء لتحقيق هذا الهدف [3] مقابل إعطائهم لمُعلم القرآن مبلغا من المال تقوم بها حياته ، وقد لقي هذا الأمر رواجًا بين الرعية .

ومن تم كان لحرص الخلفاء على حفظ الكتاب العزيز، و إجادة قراءته والمعرفة بعلومه ،أثره الكبير في ازدهار الدراسات القرآنية، والتمكين للمنهج الأصولي و نبذ التقليد

[1]- ينظر: علي عشي ، المغرب الأوسط على عهد الموحدين، ص200.

[2]- ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، ص164-165.

[3]- ينظر: ليفي بروفنسال ، مجموع رسائل موحدية ، ص133-137.

من خلال تأصيل الأحكام من مصدرها الأول وهو القرآن الكريم [1] ، ومن أشهر من برز في هذا العصر من القراء الّذين أثْروا المغرب و الأندلس بالعديد من المصنفات القيّمة : أبو الحسن بن أحمد بن كوثر المُحاربي الغرناطي (589هـ) كان من جُلة المقرئين وكِبار المجوِّدين ألّف في القراءات كتابًا مفيدًا سماه "العروس" [2]، بالإضافة إلى محمد بن خير اللمتوني (ت 575هـ) من مدينة فاس ، وهو من علماء المغرب في الإقراء، مُتّسع الرواية أخذ عن الكبير والصغير حتى اجتمع له في القراءات ما لم يجتمع لغيره من نظرائه[3] ، فضلا عن علي بن محمد بن هذيل(ت 588هـ) من بلنسية ، وهو من العلماء الّذين انتهت إليهم رئاسة الإقراء العمر كلّه ، قصده الناس من كل مكان وأخذوا عنه لِما عُرف من الصدق والأمانة وعُلو الرواية [4].

- علم التفســـير:

يُعدّ من أجلّ العلوم وأشرفها إذ يُعنى بكتاب الله تعالى من خلال بيان معنى الآيات وتفسيرها وإبراز قيمتها وهدفها ، وقد ارتبط علم التفسير بتنزلات القرآن الكريم الّتي كان يحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تبليغها للناس، والكشف لهم عن معانيها العقدية والشرعية، وقد وجد هذا العلم الرعاية الكافية في كنف الدّولة المُوحّدية، حيث تطورت الدراسات الخاصة به تطورًا كبيرًا قياسًا بما كانت عليه في عصر أسلافهم المرابطين ،الّذين نهجوا منهج التفسير الحرفي للقرآن الكريم والحديث الشريف، ورفضوا

---

[1]- ينظر:أحمد بن يحيى الونشريسي ، المعيار المغرب و الجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقي ـة والأندلـــس و المغرب أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف : محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت- لبنان- ط1،1981م ص252.

[2]- ينظر:ابن الأبار، التكملة،ج3، ص104.

[3]- ينظر: عبد الملك المراكشي ، الذيل و التكملة ،ج5، ص185.

[4]- ينظر:ابن الأبار ، التكملة ، ج2، ص67. .

الأخذ بتأويل المتشابه من الآي والحديث [1]. ونبغ في هذا العصر العديد من المفسرين أبرزهم :أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي المراكشي(ت 637هـ) صنّف تفسيرا للقرآن سماه " مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل" [2]، وأبو الحسن علي بن عبد الله بن خلف الأنصاري البلنسي ، المعروف بابن النعمة (ت 570هـ)، من أحد المفسّرين الّذين قصدهم الناس لتفسير القرآن الكريم، له كتاب : "ري الظمآن في تفسير القرآن"[3].

- علم الحديــث :

لقِي هذا العلم عناية واسعة من قبل المُوحّدين ، نظرا لإيمانهم واهتمامهم بعقائدهم الدينية، وقد كان الخلفاء أنفسهم حافظين للحديث ، فإلى جانب المهدي بن تومرت الّذي يُعدّ مصدرا في الحديث وروايته ، كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يحفظ أحد الصحيحين ، ومن المرجح أنّه صحيح البخاري [4]، والمأمون الّذي كان معدودًا من حُفاظ الحديث ، لم يزل أيام خلافته يسرد كتب الأحاديث مثل البخاري والموطأ، وسنن أبي داوود [5]، وقد بلغ هذا العلم مبلغًا عظيمًا أيام خلافة يعقوب المنصور الّذي كان عالمًا به وبِسند رواياته الصحيحة منها والمكذوبة ، حتى أنه أصدر ظهيرًا [6] في سنة 585هـ، دعا دعا فيه العلماء و رواة الحديث من تدريس عامة طلبة المُوحّدين حديث النّبي صلى الله عليه وسلم [7]، فنال طلبة الحديث في عهده رعاية خاصة ،وحُظوة عظيمة لم ينالوها في

[1]- ينظر: محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية و تأثيراتها الأندلسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة- مصر- دط ،1987م، ص73.

[2]- الغبريني : عنوان الدراية ، ص145-146.

[3]- ينظر: ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة، ج3، ص97.

[4]- ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج7، ص134.

[5]- ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، 309.

[6]- الظهير:هو المرسوم الملكي الصادر من خلفاء الموحدين.

[7]- مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار، ص220.

أيام أبيه و جدِّه [1]، وقد كان يستدعي علماء الحديث من البلدان البعيدة للقدوم إلى بلاده للانتفاع بعلمهم [2]، ومن أبرز المُحدثين في هذا العصر : محمد بن إبراهيم بن خلف الأنصاري(ت590هـ) من أهل مالقة ،عُرف بالورع وجلالة القدر والمعرفة التّامة بسلسلة الأحاديث النبوية ورُواتها [3]، وأبو عبد الله محمد قاسم بن عبد الكريم التميمي الفاسي (603هـ) كان محدّثا حافظا ، ذاكرا للحديث ورجاله وتواريخهم وطبقاتهم، ترك مصنفات عديدة منها:" تحفة الطالب ومنية الراغب"، و"الأربعون حديثا"[4].

- الفـــــقه:

كان الفقه وأصوله من العلوم الّتي أولاها الموحدون اهتماما خاصا، و ذلك لِما له من دورٍ فعالٍ في الحياة الدينية للمجتمع المُوحّدي ، فعلى أسُسه واجتهادات علمائه كانت تُحل الكثير من المسائل الفقهية ، وكان الخليفة يعقوب المنصور من أبرز علماء الفقه في عهده حيث يتم الرجوع إلى فتاوِيه في حلّ العديد من المسائل الدينية ذات الإشكالات الفقهية [5] ، ولقد كان لدعوة المُوحّدين إلى الاجتهاد والاستنباط من مَعِين القرآن والسنة ، أثر في ازدهار الفقه والارتقاء بالدراسات الفقهية من الدراسات التقليدية المعتمدة على الفروع ونَقل الأقوال إلى الاستنباط والاعتماد على الحجج و البراهين [6] ومن أثر هذا النهج أن ظهر بالمغرب والأندلس فقهاء عِظام نذكر منهم : أبو عبد الله محمد بن علي العيسى (ت 567هـ) كان حافظًا للفقه ، بارعًا في معرفة أُصوله ، له

---

[1]- ينظر:عبد الحميد النجار ،المهدي بن تومرت ، حياته و آرائه و ثورته الفكرية و الاجتماعية و أثره بالمغرب القاهرة – مصر- ط1، 1983م، ص496.

[2]- ينظر: عبد الواحد المراكشي ، المعجب، ص354.

[3]- ينظر: ابن الأبار، التكملة، ج2، ص69.

[4]- نفسه: ج3، ص139.

[5]- ينظر: المقري ، نفح الطيب ، ج4، ص100.

[6]- ينظر: محمد الحسن الحجوي الفاسي ، الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة، دط، دت، ج2، ص170.

مؤلفات منها "تسهيل المطلب في تحصيل الذهب" و"التبيين في شرح التلقين" [1]، والفقيه علي بن أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي قنُّون التلمساني (ت577هـ) ،عُرف بالتوسع في حفظ الفقه ، والتحقيق بأصوله ، له كتاب "المقتضب الأشفى في اختصار المستصفى" [2] إضافة إلى محمد بن علي بن مروان بن جبل الهمداني من أهل وهران ، درس بتلمسان وتولى قضاءها ثم قضاء الجماعة بمراكش، وكان فقيهًا مُتمكّنًا شديد الهيبة ، يتحرى العدل ولا يخشى في الحق لوْمَة لائم ، تُوفي بفاس سنة 601هـ[3].

- علم الكـــــلام:

لقد شجّع المُوحّدون علم الكلام ، فنبغ فيه الكثير من علماء المغاربة إلى درجة كانت تشدّ الرّحال إلى بلاد المغرب لِطلبه ، فقد أجاز عبد الله ابن باديس اليحصبي البحر إلى مدينة فاس و تبحّر على يد علمائه[4] ، ومن ألمع مُتكلّمي هذا العصر : أحمد أحمد بن عبد الله بن خميس بن معاوية بن نصر الأزدي ، البلنسي (ت 548هـ) [5] ، ومحمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي(ت 596هـ) كان إمامًا في علم الكلام، وأصول الفقه وقد عكف على تدريسهما طوال حياته [6]، إلى جانب عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد اليجفشي الفزازي (ت629هـ) عارف أهل المغرب في علم الكلام[7].

- التـــــصوف:

---

[1]- يحيى ابن خلدون : بغية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، تحقيق : عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، دط، 1980م، ج1، ص100.

[2]- ينظر:ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكمة، ج5، السفر الثامن، ص11.

[3]- نفسه: ص335.

[4]- ينظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة،ج2، ص293.

[5]- ينظر: عبد الملك المراكشي، الذيل و التكملة ،ج1، السفر الأول ، ص143.

[6]- ينظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص161.

[7]- ينظر: خير الدين بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ط5 ، 2006م ،ج3، ص342.

عرف عصر المُوحّدين حركة فكرية رائدة و نمطًا من السلوك الذوقي مبني على رؤيا خاصة للإنسان، والوجود والعلاقة بين الخالق ومخلوقاته ، وبذلك قُدّر للفكر الصوفي أن يزدهر في القرنين السادس والسابع للهجرة ، وينتشر في ربوع المغرب والأندلس ، في ظل الامتزاج الثقافي والحضاري الّذي أفرزه توسع الدولة الإسلامية إقليميا . وقد عمل الخلفاء الموحدين على الجمع بين الزهد والتقشف إتباعا لهدي ابن تومرت في تشجيع الممارسات الصوفية الزهدية ، حتى أن يعقوب المنصور زهد وتقشف في لباسه ومأكله ، "وانتشر في أيامه الصالحون والعابدون وأهل الحديث وعَظُمت مكانتهم ، وقامَت لهم سوق ، وكان يستدعي الصالحين إلى البلاد ويكتب إليهم ويسألهم الدعاء، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة" [1]، ويشهد جنائزهم ويزورهم ويَتبرك بهم[2] .

ومن العوامل الّتي أدت إلى ازدهار التصوف: كثرة الحروب والفتن، واستغلال الحُكام للعامل الديني إلى جانب الاضطراب السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، مما ولّد شعورا بالضياع والاغتراب المكاني ، حتى حَدا بالبعض إلى الهرب من هذا الواقع حيث وجد ضالته واستقراره النّفسي في التصوف [3] ، كما كان لموقف الصوفي من السلطة دور في نشأة النزعة الصوفية نتيجة إحساسه العميق بالغربة عن العالم ، "نظرا لما يستشعره في عالمه من نقص ، ونشاز ، متمثلًا بسلطة صَنَمية جبرية ، ذات موضوعية زائفة بعيدة عن روح الإسلام وحقيقته ، تجسّدت في خلافة وراثيّة مطلقة ضمن نظام اجتماعي جشع ، لا تحكمه المثل العليا ، قدر ما تحكمه المصالح الماديّة

[1]– عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص201.

[2]– ينظر: حسن علي حسن ،الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس، ص477–478.

[3]– ينظر: حمزة حمادة ، جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب ، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير في الأدب العربي ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ، الجزائر،1428–1429هـ/2007– 2008م ، ص60.

والصراعات والفوضى"[1] ، فراح الصوفي يبحث عن الاستقرار والأمن والسلام في هذا العالم المريض، وأَشاح بوجهه عما ينتشر فيه من صراع ، تهربا من معضلات الحياة المتناقضة ، وخشية من مغبّة الولوج فيها ، ليتجه إلى الخلوة بحثا عن الطمأنينة [2] ،لأنه لن يستطيع تغيير واقعه اجتماعيا، ليجد في الشعر مُتنفسا لمشاعره فيُعبّر من خلاله عن واقعه ، وإحساسه ، وأشواقه.

وقد لاح للعيان جمعٌ من المتصوفة وعلى رأسهم أبو مدين شعيب (ت594هـ)[3] الّذي أكبَّ على التصوف عِلمًا وعَملًا حتى أصبح عَلمًا يقصده الناس من كل حـــدب وصَوب ، و للشيخ أبي مدين حِكم هادفة تدل على عُلو مقامه، و نبيل قصده ومرامـيه و له شعر صوفي جُمع في ديوان خاص، ومن تصانيفه " أنس الوحيد و نزهة المريد في التوحيد"[4]، كما ظهر في هذا العهد محي الدين بن عربي(ت630هـ)[5] الّذي يُعد أحد أقطاب التصوف الفلسفي ، من الّذين تأثروا بالفلسفة اليونانـــية ، وتجلّـى ذلك فـــي

[1]–عدنان حسين العوادي ، الشّعر الصّوفي ، دار الشّؤون الثقافية العامة ، بغداد، دط ،1986م، ص223.

[2]– ينظر: حمزة حمادة ، جمالية الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعيب ، ص60.

[3]– هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي ، الشهير بأبي مدين المغربي، من أبرز أعلام التصوف و أقطابه ، وُلد بإشبيلية عام 509هـ، مالت نفسه منذ صغره إلى الزهد و حُبّ العبادة ففتح الله عليه بِمواهب قلبِية و أسرار ربانية استفادها بالتّوجه والعمل ، وارتقى إلى غاية ما يؤمل ، توفي بتلمسان عام 594هـ. ينظر: التنبكتي نيل الابتهاج ، ص 198. والغبريني : عنوان الدراية ، ص55. محمد مرتاض: من أعلام تلمسان "مقاربة تاريخية – فنية– دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران– الجزائر– 1438هـ/2004م.

[4]– الحاج محمد رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان ، عاصمـة دولة بنى زيان ، ديـوان المطبوعات الجامعية ،1995م ، ص465.

[5]– هو محي الدين بن علي بن محمد العربي الطائي الحاتمي ، الملقب بالشيخ الأكبر و سلطان العارفين و الكبريت الأحمر ، وُلد بمرسية سنة 560هـ، و انتقل مع أسرته إلى اشبيلية و هو في الثامنة من عمره ، و أخذ العلم على يد أشياخها ثم ارتحل إلى المشرق و درس الحديث فأجازه أكابر العلماء ، توفي سنة 638هـ، ترك العديد من المؤلفات أهمها :"الجمع و التفضيل "و" ترجمان الأشواق" و "الفتوحات المكية" و هو مؤلف ضخم يعالج فيه طرائق الصوفـية علاجا شاملا .ينظر: الغبريني ، عنوان الدراية ، ص158–159، المقري ، نفح الطيب ج2، ص316، عبـد الله عنان ، الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ، ص 679.

المصطلحات الّتي عبّر بواسطتها عن ظواهر الشعور الّتي لا تُفهم إلا بالعـودة إلـــــى الأصل اليوناني[1].

و من أقواله "وِحدة الوجود"[2] الّتي سيطرت على فِكْره بكامله فبَثّها في كُتبه حيث يقول : " إنه ما في الوجود إلا الله ، العين واحدة و إن تكثّرت في الشهود هي أُحدِية فـــــي الوجود"[3].

ويقول أيضا:

فما ثَمَ إلا اللهَ لَيسَ سِوَاه و كل بَصِير فِي الوُجُودِ يَراه[4]

وقد اكتست آراؤه بُعدًا عالميًا عندما قال بوِحدة الأديان السماوية، وضرورة إلغاء التفرقة الدينية والمذهبية، لأن قلوب البشر وجَب أن يحُل فيها حُب الأنبياء جميعا لهذا جعل ابن عربي الحب هو الرابط الحقيقي الذي يشمل كل الديانات مهما تمايزت [5] فالإنسان مهما تعددت أشكال عبادته ، فهو في الحقيقة لا يعبد إلا الله الواحد. يقول ابن عربي:

عقْدُ الخَلائِقِ فِي الإله عَقائِدًا وَأَنَا اعتَقَدْتُ جَمِيعَ مَا اعتَقَدُوهُ[6]

---

[1]– ينظر: فاطمة الزهراء هدي ،جمالية الرّمز في الشعر الصوفي عند ابن عربي ،رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث ، جامعة أبو بكر بلقايد ، تلمسان، الجزائر، 2006م، ص 124.

[2]– هو مفهوم ذو بعد فلسفي يبحث في الذات الإلهية و صفاتها و العلاقة بين الحق و الخَلق ، و فيض الله و تجليه و صلته بالعالم .ينظر: نظلة أحمد نايل الجبوري ، فلسفة وحدة الوجود ، أصولها و فترتها الإسلامية ، الدار العثمانية للنشر ، عمان ، ط1، دت، ص31.

[3]– محي الدين بن عربي : الفتوحات المكية ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ،ج4، دت، ص 357.

[4]– المرجع نفسه، ج3، ص329.

[5]– ينظر: هيفرو ديركي ، ابن عربي الأندلسي ، سيرته و تجديده في الفكر الصوفي ، ضمن فعاليات دمشق عاصمة الثقافة العربية ،2008م، ص567.

[6]– محي الدين بن عربي : الفتوحات المكية، ج3،ص132.

وقد نال ابن عربي شهرة واسعة فأشاد المستشرقون بدوره في النهضة الأوروبية والإصلاح الديني ، وقد أثرت أفكاره وأعماله في الشاعر الإيطالي(دانتي) من خلال ملحمته (الكوميديا الإلهية)[1].

ويعتبر أبو الحسن الششتري(ت 668هـ)[2] آخر مُمثل للتصوف المتأخر بالغرب الإسلامي ، وهو من أبرز تلامذة ابن سبعين(ت 669هـ)[3] صاحب نظرية الوحدة المطلقة[4] ، وقد كان الششتري من أبناء الملوك ، خلع ما كان عليه من لبس الأمراء وارتدى ملابس الفقراء ، وكان يتجوّل بين الأحياء داعيا الناس إلى الحُب الإلهي والعودة إلى المحبوب بالقلب والعقل معًا[5] ، وقد جاء أكثر شعره في الأزجال والموشحات.

أ-1-علوم اللغة العربية:

راجت علوم اللسان في عصر المُوحّدين رواجًا كبيرًا ، وسارت في خدمة اللّغة والكتاب والسنة ، يقول أبو طاهر التميمي القرطبي:" لقد كان لعلم اللسان العربي في صدر هذه الأمة نهضة واسعة حيث تجرد لضبطها وتقييدها الأخيار الصلحاء حين رأوا

---

[1]- ينظر: هيفرو ديركي ، ابن عربي الأندلسي ، سيرته و تجديده في الفكر الصوفي، ص567.

[2]- هو أبو الحسن بن عبد الله النميري الششتري ، وُلد سنة 610هـ بلُوشة ، حفظ القرآن الكريم منذ صغره ثم أخ ـذ العلوم الدينية و الحكمة ، و انتهى به المطاف إلى التصوف متأثرا بأبو مدين شعيب و ابن عربي ، من أهم مؤلفاته " المقاليد الوجدانية في أسرار الصوفية" و " الرسائل العلمية" . ينظر: الغبريني ، عنوان الدراية ، ص239-242 المقري : نفح الطيب ، ج2، ص185-187.

[3]- هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين من أهل مرسية و المُلقّب بقطب الدّين ، وُلد سنة 614هـ درس العربية و الآداب ثم انتقل إلى سبتة بالمغرب و مال إلى التصوف ، مرّ ببجاية أين لَقي أكابر العلماء فع ـظُم صيته و كثُر أتباعه، توفي بمكة المكرمة سنة 669هـ، ترك العديد من المؤلفات أهمها :" كتاب الدرج" و "الأبـواب اليمنية". ينظر: الغبريني ، عنوان الدراية ، ص237-238.

[4]- تسمى أيضا بالوحدة النقية الخالصة أو بالإحاطة، وهي تُميّز بين ما هو وجود حقيقي وبين ما هو وُجود وهمـي فالحق واحد أما ما عداه فضرب من الوهم، ينظر:أحمد عبيدلي ،الخطاب الشعري الصوفي المـغربي في القرنـين السادس والسابع الهجريين "دراسة موضوعية فنية" بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر ، باتنة- الجزائر-2004-2005م، ص79.

[5]- ينظر: أحمد عبيدلي، الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس والسابع الهجريين، ص71.

أنه لسان العلوم الشرعية ، والهادي إلى المعاني الأصلية والفرعية ، بها يتوصل إلى حقيقة معانيها ، ويتسم درج مبانيها ، عنها يصدر التأويل ، وتتوجه الأقاويـــل ، وأنه لا يوصل إلى معرفة كتاب الله تعالى ، ومعرفة حديث رسول الله – صلى الله عليه و سلم– إلا بحفظ لغات العرب"[1] ، ومن أهم علوم اللغة العربية :

النحـــو:

يُعدّ النحو من أهم العلوم اللغوية ، وأكثرها تعبيرًا عن قدرة النحاة المعرفية ومَنهجهم في النظر والبحث العِلمِيين ، إذ له الأسبقية في استكشاف أسرار العربية ومعالجة النصوص الشرعية بُغية توظيفها وتنزيلها على الواقع العملي ، وحِفظ كلام العرب من اللّحن وصيانته عن التغيير والتحريف [2]، ومن أشهر علماء عصر الدراسة الذين اهتموا بالنحو، وقدّموا نظريات جديدة في هذا الجانب ، ابن مضاء القرطبي (ت592هـ)[3] صاحب كتاب " الرد على النحاة" الّذي يُعد ثورة على نظرية العامل النحوي ،حيث طالب ابن مضاء بإلغائه باعتباره من القضايا الّتي يستغني النحو عنها فيقول:" قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه ، وأُنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادِّعاؤهم أن النصب والخفض و الجزم لا

[1]– عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، الأدب في المغرب و الأندلس "عصر المرابطين و الموحدين" ، دار العلم للملايين ، بيروت– لبنان– ط2، 1985م ، ج5، ص242.

[2]– رضا عبد الغني الكساسبة ، النثر الفني في عصر الموحدين و ارتباطه بواقعهم الحضاري ، دار الوفاء لدُنيا الطباعة و النثر ، الاسكندرية ، مصر، 2004م، ص39.

[3]– هو أحمد بن عبد الرحمن اللخمي القرطبي ، وُلد بقرطبة سنة 513هـ ، كان ابن مضاء على عادة أهل عصره مُلما بمختلف العلوم ، عارفا بالطب و الحساب و الهندسة ، شاعرا بارعا ، و كاتبا متمكنا، اجتمعت هذه الأوصاف كلها في هذا العالم النحوي الفقيه الذي اختاره الخليفة يعقوب المنصور لمنصب قاضي الجماعة ، كانت وفاته باشبيلية سنة 592هـ، و بذلك عاش ما يقارب الثمانين عاما قضاها في الدراسة و التدريس و العمل في سلك القضاء في دولة الموحدين . ينظر: محمد الطنطاوي ، نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة ، دار المعارف ، القاهرة، دت ص231–232. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : بغية الوعاة في طبقات النحويين و النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت –لبنان– مج1، دت، ص223.

يكون إلا بعامل لفظي ، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي وبِعامل معنوي" [1]، فهو يرى أن هذه العوامل يجب الاستغناء عنها إن أردنا للنحو اليسر والسهولة ، واعتبرها خطأ يجب الرجوع عنه ، سواء أكانت عوامل معنوية أم لفظية ، لذلك يجب تخليص النحو العربي منها ، لأن العامل في رأيه هو المتكلم نفسه، "وأما في الحقيقة ومحصول الحديث ، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم ، إنما هو المتكلم لا لشيء غيره" [2] لذلك انطلق ابن مضاء في نظرية هدم العامل النحوي من مبدأ واحد هو التيسير والتسهيل. ومن النحاة البارعين في هذا العهد: أبي القاسم بن هشام الأزدي(557هـ) ترك تصانيف كثيرة منها " تقويم اللسان" و"شرح مقصورة ابن دريد" [3] ، وبَرز موسى بن أبي بكر بن السطاح الجزائري (ت 629هـ) كان أستاذا في اللغة والنحو [4] ، إلى جانب أبو عبد الله محمد بن الحسن بن ميمون (ت 637هـ) صاحب كتاب " الموضّح في علم النحو"[5]، وكان رئيس نُحاة المغرب في ذلك الوقت أبو موسى عيسى بن عبد الله الجزولي مؤلف "المُقدمة الجزولية"[6] ، وقد سُميت بِعدّة أسماء كالقانون والاعتماد ، ومن أبرز النحاة أيضا ابن معطي الزواوي (ت628هـ)[7] ومن أشهر مؤلفاته " الدرة الألفية في

---

[1]– ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف، القاهرة ، مصر،ط 2، 1947م ص76.

[2]– ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة، ص77.

[3]–ينظر: الرعيني ، برنامج شيوخ الرعيني ، ص 197.

[4]– ينظر:الغبريني، عنوان الدراية، ص225.

[5]– الغبريني : عنوان الدراية ، ص70.

[6]– محمد المنوني : حضارة الموحدين ، ص44-45.

[7]– هو يحيى بن معطي بن عبد النور زين الدين المغربي الزواوي يكنى أبا الحسين ، و يعرف بابن معط ، وُلد سنة 564هـ بقبيلة زواوة بظاهر بجاية في إفريقيا ، أقبل منذ صغره على تلقي العلم ، و اكتساب المعرفة ، فاهتم بالتحصيل و الدرس و التأليف ، و خير دليل على ذلك ما تركه من مصنفات عديدة أهمها : العقود و القوانين في النحو ، المثلث في اللغة . ينظر: يحيى بن معطي ، البديع في علم البديع ، تحقيق : محمد مصطفى أبو شوارب راجعه و قدم له ، مصطفى الصافي الجويني ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية ، ط 1، 2003م ص18.

في علم العربية" وهي أول منظومة نحوية جمعت قواعد العربية في ألف وواحد وعشرون بيتا[1]، و قد ابتدأها بقوله:

يَقُولُ رَاجِـــــي رَبّه الغَفُـــــور يَحيَى بنُ مُعـــــطٍ بنِ عبْدِ النّـــور

الحَمدُ للهِ الّـــــذي هَـــــدَانَا بأحـــمَد دِينَـــا لَهُ ارتَضَـــــانا [2]

لقد تضمنت منظومة ابن معطي كل أبواب النحو، بما فيها من المصطلحات والأحكام العامة والضوابط والتفسيرات، بالإضافة إلى أبواب صرفية وعروضية، وقد تميزت بالسلاسة والعذوبة في صياغة القواعد النحوية ،لأن مؤلفها اشتغل بالأدب درسًـا وتصنيفًا وجُل مصنفاته تدور في فلكه ،وقد انعكس ذلك في معالجته لقواعد النحو نظما. وقد أثّرت ألفيته في مصنفات الآخرين، فأشادوا بها واستلهموا بآرائها، ونظموا على شاكلتها، كابن مالك صاحب الألفية الشهيرة في النحو[3].

ب- العلوم الإجتماعية :

هي العلوم الّتي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فِكره ، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها، و أنحاء ووجوه تعليمها [4]، وقد عرفت نهضةً واسعةً في عهد المُوحّدين ،الّذي كان عصرها الذهبي، حيث كانت الدولة تعج بعدد من الأطباء والفلاسفة والمهندسين ، الّذين وجدوا ترحيبا من الخلفاء لمزاولة نشاطهم. و من أهمّ هذه العلوم:

---

[1]- يحيى بن معطي :الدرة الألفية في علم العربية، ضبطها و قدّم لها : سليمان إبراهيم البلكيمي ، دار الفضيلة للنشر و التوزيع ، عابدين ،القاهرة ، ط1، 2010م ، ص17.

[2]-المرجع نفسه : ص85.

[3]- ينظر:عبد الرحمان عبان ،الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم في عهد الموحدين ، دراسة في موضوعاته و بُنْيَته "ابن معطي أنموذجا"، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي ، تخصص : الأدب الجـزائري القديم ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ،1427هـ-1428هـ/2007م- 2008م ، ص77.

[4]- ينظر: محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب، ص127.

1- التاريـــخ:

ازدهر التاريخ ازدهارا واسعا، يتناسب ومقام المُوحّدين العلمي، فظهرت طائفة كبيرة من المؤرخين الّذين كتبوا تواريخ عديدة، و ألفوا مصنفات كثيرة تناولوا من خلالها العديد من فنون هذا العلم، فألفوا في السِير، والأنساب، والتراجم، وتاريخ المـلوك وتاريخ البلدان وغير ذلك ، ومن المؤلفات الّتي ثم تصنيفها في هذا العهد : "الدر المُنظم في مولد النبي المعظم صلى الله عليه وسلم"،لأبي العباس أحمد بن محمد العزفي اللخمي (ت633هـ) ، والّذي ذكر فيه بعض ما خص به النبي الكريم وفُضّل به [1] ، كما أُلِّف كتاب " الأنساب في معرفة الأصحاب " لمؤلف مجهول كان يعيش في عصر المُوحّدين وقد عَثر ليفي بروفنسال في مكتبة الأسكوريال على تأليف مقتبس منه فأخرجه وصحّحه وترجمه للعربية ونشره سنة 1928م [2]، كما تألّق في هذا العهد البيذق أبو بكر الصنهاجي (ت بعد 550هـ) من خلال كتابه أخبار المهدي بن تومرت و بداية دولة الموحدين[3] ، ومن أبرز من كَتب حول تاريخ الموحدين عبد الملك بن صاحب الصلاة صَاحب مؤلف "المن بالإمامة"[4]، وابن عذارى وكِتابه "البيان المغرب" [5] ،إضافة إلى عبد الواحد المراكشي وكتابه " المعجب في تلخيص أخبار المغرب" [6]، ومن أعظم أقطاب الرواية والتاريخ في هذه الفترة أبو عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبار(ت 658هـ)[7]

---

[1]- ينظر: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبطه وحققه وعلّق عليه مصطفى السقا،إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، مصر، دط، دت، ج2، ص 374-375.

[2]- محمد المنوني : حضارة الموحدين، ص47-48.

[3]- ينظر: البيذق ،أخبار المهدي بن تومرت، ص10.

[4]- محمد المنوني :العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص73.

[5]- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس"عصر المرابطين والموحدين" ، مكتبة الخانجي مصر، ط1، 1980م، ص504.

[6]- عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، ط2، 1961م ، ج1، ص112.

[7]- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار، وُلد بمدينة بلنسية سنة 595هـ ، حيث شبّ شغوفا بالمعرفة حريصا على طلب العلم، برع في اللغة و الأدب وتولى قضـاء دانـية ثم تولـى

الّذي عاصر أحداث الأندلس وشارك في مُجريات أمورها ، وترك لنا مؤلفات هامة منها: "الحلة السيراء" ،"التكملة لكتاب الصلة" ، و"إعتاب الكتاب"[1].

2- الجغرافيـــا:

عُرف المغاربة بحُبِّهم للسياحة والتنقل والاطلاع على أحوال الأمم ،وزيارة الأماكن الدينية المقدسة بقصد الحج والعمرة ، فكثرت المؤلفات الجغرافية الّتي ساهمت في توسيع مدارك الإنسان عن الكون والحياة ،و إعطائه فكرة دقيقة عن الكوكب الّذي يعيش فيه وقد لمع في هذه الفترة جغرافيـــون كُثر، ويأتي في مقدمتهم أبو عبد الله الإدريسي (ت562هـ) [2]مؤلف كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، وقد قسّم الإدريسي فيه الأرض إلى سبعة أقاليم ، و كل إقليم إلى عشرة أجزاء متساوية ، وهدفه من هذا التقسيم إثبات درجات العرض وتحديدها[3]، وقد أفلح في هذا إلى حدٍّ كبيرٍ، كما تعرض في كتابه إلى وصف البلاد والممالك والمسالك الّتي تربط بين أجزاء الأرض ، ثم ذكر المسافات بالميل ، وانتقل إلى وصف الجبال والأنهار، والبحار وأجناس الناس، والحـــيوانات والنبات والمعادن ، وتحدث عن الصناعات والمتاجر وتكلّم عن الديانات والمذاهب

منصب الكتابة في بلنسية ، قرّبه السلطان الحفصي أبو زكريا إليه وولاه كتابة العلامة ، ولما توفـي الســلطان سنـة 647هـ ، خلفه ابنه المستنصر فالتحق ابن الأبار لخدمته ، ولكن نتيجة للدسائس و الدعايات ضده أمر بقتله طـعنا بالرماح سنة658هـ، ينظر: الغبريتي، عنوان الدراية، ص 309-310، والمقري: نفح الطيب،ج2، ص590.

[1]- ينظر:سعود غازي محمد الجودي ،شعر ابن الأبار البلنسي القضاعي (595هـ-659هـ) دراســة في مضامــين الخطاب و مكونات المتن ، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، 1421هـ، ص25-26.

[2]- هو أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف الإدريسي ، وُلد في سبتة بالمغرب الأقصى ، سنة 493هـ،عالم عربي مسلم وأحد كبار الجغرافيين في التاريخ، كتب في الأدب والشعر والنبات ، ودرس الفلسفة والطب والنجوم في قرطبة من مؤلفاته "الجامع لصفات أشتات النبات وضروب أنواع المفردات" ، ينظر:عبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص356.

[3]- ينظر: محمد المنوني ، حضارة الموحدين ، ص59.

واللغات والأزياء والعادات و التقاليد [1] وقد نسج الجغرافيون والمؤرخون على منوال كتابه كما ترجمت العديد من أقسامه إلى مختلف اللــغات [2]، وعرف عهد الدراسة عدّة رحالة دوّنوا مشاهداتهم عن البلدان الّتي زاروها ، ومن أشهرهم "ابن جبير" (ت 614هـ)[3] صاحب كتاب "رحلة ابن جبير" الّذي طاف العالم العربي الإسلامي شرقه وغربه ووصف ما رآه وصفا حيّا دقيقا ، مستعملا أسلوب العالم الناقد المُحلل.

ج- العلوم العقلية:

1- الرياضيات:

دعت حاجة البناء والتعمير الّتي شهدتها الدولة المُوحّدية إلى تخصص بعض العلماء لدراسة الهندسة والجبر والحساب، حيث استعان بهم ولاة الأمر في عمليات البناء الكثيرة الّتي شهِدتها المنطقة، كما ساعد على نهوض هذا العلم احتياج الدولة إلى ضبط أحكامها و مواردها و مصارفها ،و استخلاص الضرائب [4] و كل ذلك يحتاج إلى دراية في بعلم الحساب ، لذلك شهدت العلوم العددية نهضة واسعة في هذا العهد وصارت من العلوم الّتي تُدرّس عندهم ، وممن اشتغل بتدريسها الإمام أبو العباس السبتي الّذي كان

[1]-محمد المنوني: المرجع نفسه، ص60.

[2]- ينظر: عبد السلام السيّد ، موسوعة علماء العرب، الأهلية للنشر و التوزيع ، الأردن، ط2، 2011م، ص145.

[3]- هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني ، وُلد ببلنسية عام 539هـ ، و قيل سنة 540هـ، برع في الفقه و الحديث و الأدب ، و لكن شهرته جاءت من خلال رحلته إلى المشرق .ينظر: صفوان بن إدريس التجيني المرسي زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر ،اعتنى بنشره و تهذيبه و التعليق عليه عبد القادر محداد ، لبنان ، دط 1939م ، ص72.المقري : نفح الطيب ، ج2، ص381.

[4]- ينظر: محمد شقرون ، مظاهر الثقافة المغربية في القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر ، مطبعة الرسالة الرباط- المغرب- 1982م، ص216-217.

يُعلّم الحساب ويأخذ على ذلك أجرة [1]، وأبو الحسن علي بن محمد القيسي القرطبي (ت601هـ) استقر بفاس ، حيث درّس بها الحِساب الّذي كان بصيرا به ، له فيه تأليف سماه" اللباب في مسائل الحساب" [2] ، ومِمن اشتهر به أيضا ابن الياسمين الفاسي (ت601هـ) إمام في هذا الفن ، ألّف فيه منظومته في الجبر، كما خلّف أرجوزة أخرى في أعمال الجُذور [3]، فضلا عن عبد المنعم بن محمد المراكشي الذي كان إلى جانب معرفته بالعربية والآداب كان عالما بالحساب[4].

أما علم الهندسة فقد خطا المُوحّدون خطوات هامة فيه ، لذلك كثُر المهندسون كثرة فائقة ، ومِمن تألق في هذا الميدان : أبو جعفر أحمد بن حسان القضاعي المغربي (ت598هـ)، وهو الّذي أسس الشكل الهندسي لاستخراج القِبلة ليعقوب المنصور بمراكش ، وكذلك جامع حسان بالرباط [5]، ومن المهندسين البارعين أيضا الحاج يعيش المعروف بالأحوص المالقي الّذي أشرف على بناء جبل طارق ، وهو من تولّى صنع المقصورة الميكانيكية[6].

وقد كان لتقدم المغرب الإسلامي في الرياضيات أثره الكبير على أوروبا الأمر الذي جعل (ليوناردو فيبوناتشي Lionardo Fiponatchi) يسافر إلى بجاية على غير عادة الإيطاليين ، في ذلك الوقت ، لتعلم الحساب والجبر والهندسة بالحروف العربية

[1]– محمد المنوني : حضارة الموحدين ، ص74.

[2]–عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ، مؤسسة نويهض الثقافية ، بيروت– لبنان– ط4، 1983م، ص267.

[3]– ينظر: ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى ال مغربي ، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف ، مصر، دط، 2009 م،ج1، ص42–50.

[4]– ينظر:حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية بالمغرب والأندلس، ص506.

[5]– ينظر:عبد الواحد المراكشي ، المعجب، ص209.

[6]– ينظر: محمد المنوني ، حضارة الموحدين، ص76.

والصفر الّذي كان ثورة في تاريخ الرياضيات في مدينة بجاية [1]. فأصبح من الرُوّاد الأوائل الّذين أدخلوا إلى أوروبا الأرقام والحساب والهندسة العربية.

2- الطب و الصيدلة :

نال الطب عناية الخلفاء المُوحّدين ، فاهتموا به اهتمامًا فائقًا ، كما اعتنوا بشؤون الرعية ، فبنُوا المارستانات ، ونظموا هذه المهنة ، وجعلوا عليها رؤساء ، ومن أشهر رجالات الطب في هذا العصر:أبو مروان عبد الملك بن زهر الإيادي (ت 557هـ) طبيب الخليفة عبد المؤمن بن علي ، ومن مؤلفاته كتاب " الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد" [2]، وقد أثر بن زهر في الطب الأوروبي تأثيرًا بليغًا ، وظل هذا إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي ، وذلك بفضل ترجمة كتبه إلى العبرية واللاتينية، وأبو بكر محمد الحفيد (ت 595هـ) الّذي خدم بالطب الخلفاء الثلاثة الأوائل :عبد المؤمن وابنه يوســـف وحفيده يعقوب المنصور [3]، ومن الأطباء أيضا :أبو الوليد بن رشد(ت 595هـ) الّذي استدعاه الخليفة يوسف إلى مراكش لتعليم الطب ، فصار طبيب المنصور والناصر وكان يلاقي احتراما خاصا منهما[4].

كما اقتحمت المرأة هذا المجال و برعت فيه، ومِن أهمهن: شقيقة ابن زهر الحفيد الّتي كانت مختصة بنساء الأمراء [5]، ولقد اهتم الحكام بالصيدلة فجعلوها ضمن

---

[1]- ينظر: يحيى بوعزيز ، ازدهار الحضارة و الفكر الإسلامي في المغرب الإسلامي و دورها في نهضة أوروبا و تقطنها ، مجلة الأصالة ، الجزائر، العدد 75، 1979م، ص132.

[2]- ينظر: نصر الدين البحرة،عبد الملك بن زهر الأندلسي ومكانته العلمية، مجلة التراث العربي، دمشق-سوريا- العدد75، ص11.

[3]- ينظر: المقري، نفح الطيب، ج3، ص185.

[4]- ينظر:عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص209.

[5]- ينظر: محمد المنوني ، حضارة الموحدين ، ص91.

المستشفيات، ومِن أبرز رواد هذا العلم أبو محمد بن البيطار المالقي (ت 646هـ) [1]رائد علم النبات ، تنقّل بين عواصم الأندلس الكبرى ، وبلدان المغرب العربي ، ومصر والشام ، واهتم بدراسة الأعشاب والنباتات الطبية والصيدلة حتى لُقب برئيس العشابين وبالطبيب الحاذق والنباتي[2] ، فعُني بِذكر ماهيات الأدوية ، وقوامها ومنافعها، ومضارها وإصلاح ضررها، ومن كُتُبه الّتي ألّفها " الجامع في مفردات الأدوية والأغذية "الّذي وصف فيه 1400دواء جديد ،وكتاب"الإبانة والإعلام لما في المنهاج من خلل وأوهام [3] ويعتبر كتابه الجامع موسوعة كبيرة غزيرة المادة، عظيمة الفائدة، بَقيت مرجعًا وحيدًا للأوروبيين في أبحاثهم الطبية من القرن السادس عشر وما بعده[4] ، وجعلت ابن البيطار من عظماء علم النبات .

3- الفلك و التنجيم:

كان المهدي بن تومرت من أئمة علم التنجيم المعدودين في عصره ، كما أقبل الخليفة يعقوب المنصور(ت 595هـ) على هذا العلم ، ووضع أبراجا فلكية عن كسوف الشمس وأمَر بإقامة برجٍ عالٍ بجامع إشبيلية الأعظم للآذان، و لِرصد النجوم أيضا فكان أول مرصد فلكي في قارة أوربا [5]، وعندما أمر يعقوب المنصور بإحراق كتب

---

[1]- هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي ، وُلد سنة 593هـ بالأندلس بمدينة مالقة ، تلقى علومه في اشبيلية على يد علمائها ، ثم انتقل إلى المغرب بعد أن بلغ العشرين من عمره ، زار الجزائر و تونس كباحث في علم النبات ، يعتبر من أعظم العلماء الذين ظهروا في القرون الوسطى و عالم عصره في علم النبات و العقاقير ، توفي في دمشق سنة 646هـ ، و هو يقوم بأبحاثه و تجاربه على النباتات ، و تسرّب إليه السم أثناء اختباره لنبتة حاول وضع دواء منها . ينظر: المقري، نفح الطيب ،ج2، ص691-692.

[2] - ينظر: عبد الله علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ص363.

[3]- ينظر: محمد كامل حسين، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة- مصر- 1987م، ص242.

[4]- ينظر: جلال مظهر، أثر العرب في الحضارة الأوروبية نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة، دار الرائد بيروت- لبنان- 1967م، ص273-275.

[5]- ينظر: عبد الله علام ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص355.

الفلاسفة الّتي وُجهت لهم تهمة الزندقة ، استثنى منها تلك المتعلقة بعلم التنجيم ومعرفة أوقات الليل والنهار [1] ، ومن أهم الشخصيات الّتي أنجبها هذا العصر : أبو محمد عبد الملك الشذوني أحد المتخصصين في علم التنجيم ، وأبو علي الحسن بن علي المراكشي (ت660هـ) صاحب كتاب " المبادئ والغايات في علم الميقات" [2] ، حيث يُعد من أعظم فلكي العرب.

4-الفلسفة والمنطق:

دعا الخلفاء المُوحّدون إلى الانفتاح الفكري ، والتحرر العقلي ، فازدهرت الفلسفة وازدان البلاط المُوحدي بكبار الفلاسفة ، وخاصة في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بفضل تشجيعه لها ، حيث سَمت نفسه إلى دراستها و تعلّم علومها ، وجَمع الكثير من أجزائها ، وأمر كذلك بجمع كتبها ، وقرّب إليه الفلاسفة ، مثلما فعل مع الفيلسوف أبي بكر بن طفيل الّذي كان يحتجِزه في قصره أيامًا ليلًا و نهارًا ، لمَحبّته له ورغبته في مناقشته[3]، ولابن طفيل تصانيف في أنواع الفلسفة من الإلهـيات والطبيعيات من أشهرها رسالة "حي بن يقضان"[4] الّتي عرض فيها بيان المعرفة الإنسانية، كما يرجع الفضل في نشر فلسفة أرسطو إلى الفيلسوف أبي الوليد بن رشد (ت 595هـ) الّذي شرحها و قرّبها لأذهان الناس بما يتناسب مع الشريعة الإسلامية [5] ، وعرف هذا العصر

[1]- عبد الله علام: الدولة الموحدية بالمغرب ، ص358.

[2]- محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص110.

[3]- ينظر: حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس"عصر المرابطين والموحدين"، ص507.

[4]- عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص172.

[5]- ينظر : المصدر نفسه ، ص175.

فلاسفة آخرين على غرار أبو يعقوب بن يوسف بن إبراهيم السدراني (ت 570هـ)الذي له باعٌ طويلٌ في علم الفلسفة و المنطق ،ألّف كتاب "مرج البحرين في علم المنطق"[1] .

ومن شواهد تفوّق المغرب في علم الفلسفة أن فردريك الثاني ملك إيطالية وجّه مسائل فلسفية إلى علماء سبتة ليجيبوا عنها، حيث اختاروا الفيلسوف ابن سبعين (ت669هـ) للنظر في مسائلها ، فجعل الأجوبة في كتاب عنوانه:"المسائل الصقلية" وقد اشتمل على 49 صفحة، وتُوجد منه نسخة خطية في أكسفورد[2].

نهضت الدولة المُوحّدية بالفكر و حّررته من القيود المثبطة لكل محاولة انطلاق أو تجديد ، فانتشرت العلوم الفلسفية و ازدهرت دراستها بعدما كانت موضع مقت ونُفور إبان الحقبة المرابطية ،لا يستطيع صاحبها الجِهار بها خوفا من العامة أن ترميه بالزندقة أو الكفر ، وعرفت العلوم العقلية والنقلية نهضة كبيرة ، فتنوعت المعـــارف وازدهرت الفنون في ظل التمازج ، والتفاعل بين العدوتين ، وبذلك كان المَد المُوحّدي عهد نِعمة على شعوب المنطقة والعالم الإسلامي ، بل تجاوز فضله إلى العالم الغربي.

و مِن خلال ما تطرقنا إليه في هذا الفصل يمكن التوصل إلى ما يلي:

– أسّس ابن تومرت دولته على أساس ديني إصلاحي يقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ،وإحياء العلم والترغيب فيه.

– ضمّ المجتمع الموحدي عناصر بشرية تختلف عرقيا ودينيا ولغويا، وقد كان اختلاطها وتعايشها مع بعضها سببا في إثراء الحياة الاجتماعية.

[1]–ينظر: رحلة الوارجلاني ، تحقيق وتعليق يحيى بن بهون حاج امحمد، منشورات الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007، ص28.

[2]– محمد المنوني : العلوم و الآداب و الفنون على عهد الموحدين ، ص97.

– تمتعت المؤسسة العسكرية الموحدية بوجود ترسانة عسكرية برية وبحرية، وكوادر مدربّة أسست لقاعدة قوية ، هذا ما أعطى للوجود المُوحدي ميزة و فعالية.

– تطورت الأنشطة الاقتصادية في عهد المُوحّدين تطورا ملحوظا ، وقد أدّى هذا الازدهار إلى كثرة الإنتاج وتنوعه ، وخلق نشاطا وحركة في المبادلات التجارية الداخلية والخارجية.

– شهدت البلاد الموحدية نهضة معمارية واسعة ، سواء بتشييد مدن جديدة أو توسيع أخرى .

– أولت الدولة المُوحّدية اهتماما بالغا بشأن التعليم باعتباره البذرة الأولى في مبعث كل نشاط ثقافي وفكري ، فجعلته إجباريا مفروضا على الرجال والنساء في كل أقاليم المملكة ،إذ لا فرق بين ميسور ومعسور في طلب العلم، لأنه فريضة على كل مسلم ، وأداة فعالة في خلق مجتمع مُتماسك لغويًّا و مُتقارب فِكريًّا.

– عكف حكام هذه الدولة على تشييد مؤسسات تعليمية مختلفة من بسيطة شعبية إلى منظمة حكومية ، سعيا منهم على نشر الثقافة و تخفيف نِسبة الأمية.

– برزت في العهد الموحدي حواضر ثقافية هامة، كانت مركز إشعاع علمـــــي وفِكري يقصدها الطلاب و الدارسين من مختلف الأصقاع و البقاع.

– و كانتا مدينتي بجاية وتلمسان من المراكز العلمية الهامة اللّتين تخصصتا في العلوم الدينية وخاصة الحديث والفقه، بالتالي شهدتا إقبالا كبيرا من الفقهاء والمُحدثين والمتصوفين.

– وكان طلبة العلم يقطعون مسافات طويلة لأخذ العلم من ينابيعه الصافية ، وهذا ما ساهم في تخريج أفواج من العلماء علا ذكرهم في أوطانهم وخارجها ، وأدى إلى

بلوغهم مستوى عالٍ من النبوغ والإبداع ، كما شغلوا مناصب عُليا في بلدانهم أو في الأماكن الّتي هاجروا إليها ، كما كان لهم مُشاركة ايجابية في حركة التأليف، الّتي أثمرت بآراء ونظريات هامة كالعالم ابن مضاء في نظرية العامل النحوي.

– لم يلتزم العلماء المغاربة والأندلسيين في عصر المُوحّدين بحدود مُدنهم وأدركوا أن آفاقهم المعرفية لن تتطور إلا بالرحلة إلى مناطق العالم الإسلامي، ولاسيما المشرق الّذي يُعد قِبلة العلم والعلماء، فنجدهم يتجهون صوبه وهدفهم الانتهال من عُلومه ومعارفه المتنوعة .

– حظيت العلوم الدينية في عصر المُوحّدين بقسط وافر من الرعاية والاهتمام، فكان لها الصدارة، حيث لم يقتصر اهتمام المُوحّدين على تدريسها فقط ، بل بذلوا جهودا كبيرة للنهوض والارتقاء بها ، فحملوا الناس على التّمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية وتوسعوا في دراسة الفقه وأصوله، وحاولوا القضاء على تشتت الآراء وتشعبها في المسائل الفقهية ، وعطلوا علم الفروع ، وحاربوا الاحتكار المذهبي، وعنوا بدراسة علم الكلام بعد أن كان محظورا في البلاد، وقد أفرزت تلك الجهود نشاطا دينيا مُتعدد الجوانب في سائر العلوم الدينية ، من قراءات وتفسير وحديث وفقه وغيره، أقبل فيه العلماء على التدريس والرواية والتأليف، وأُضيف به إلى التراث العلمي والفكري نصيب

وافر من المُصنّفات القيّمة والنفيسة الّتي تتميّز بروح الأصالة والجِدّة ، وتُعبّر عن أُستاذية علماء هذا العصر وجدارتهم.

– قدّس المهدي بن تومرت العلم ودعا إليه ، فكانت ثمرته أن أصبح جُل أمراء الدولة المُوحدية شغوفين به مُشجعين رعِيّتهم عليه ، إذ لم يتردّدوا في الترغيب في العلوم ورفع رايته عاليًا ، ورعاية العلماء في كل مجالات الفكر، كما حرصوا على إنشاء معاهد العلم

والإشراف على الطلاب والحُفاظ ، واقترحوا كذلك تدوين الكتب وعقدوا المناظرات وجمعوا المجامع العلمية الكبرى، وسبقوا إلى التعليم الإجباري وابتكروا التعليم المجاني فكان لذلك أثر عظيم على ازدهار الحياة العلمية في عصر المُوحّدين.

يُعدّ الأدب مرآة لِما يدور في المجتمع ، يرسم آماله وأحلامه ، ويُصور مُعاناته وآلامه ، ويُخلد مآثره وبُطولاته ، ويحكي خيباته ومآسيه ، ولعل العودة إلى كُتب الأدب في عصر ما كفيلة أن ترسم في أذهاننا صورة واضحة عن المجتمع في ذلك العص ـر وتكشف قضايا خفية في تاريخ أمة مُعيّنة في زمانها ومكانها ، وهذا من خلال ما أنتجته قرائح شعرائه وأدبائه ، فقد رسموا لنا صُورة واضحة المعالم عن مجتمعهم من خلال المادة الأدبية التي تركوها بين أيدينا ، ولأن هناك علاقة وثيقة بين الأدب وحركة المجتمع ، فقد عبّر أدباء الفترة المُوحّدية عن كثير من العادات والتقاليد في المغ ـــرب والأندلس وصوّروا جوانب شتى من مظاهر السلوك اليومية .ومن المواضيع الاجتماعية التي تُصور الحياة المُوحّدية وتؤكد على وَعْي أدباء تلك المرحلة بواقع ـــهم المعيشـــي وبيئتهم المحيطة.

أولا: العادات و التقاليد

عرف سكان المغرب والأندلس في عصر المُوحّدين عادات وتقاليد بعضها موروث عن الأجيال السابقة ، وبعضها استُحدث خلال هذه الفترة نتيجة ظروف سياسية ودينية مرّت بها العُدوتين ، وسوف نتناول في هذا الجانب تكوين الأسرة بدءً بالزواج ، فضلا عن الأعياد والمواسم وألوانها ، ثم التعرض بعد ذلك للمجالس الأدبية التي كانت تُقام آنذاك،بالإضافة للحياة اللاهية التي ميزت المجتمع المُوحّدى وانتشار مجالس اللهو والشراب والرقص والغناء .

1- الزواج :

تُعدّ الأسرة أصل النوع البشري وسبيل للبقاء الإنساني ، لذلك حثّ المجتمع المُوحّدي كغَيره من المجتمعات على الزواج حرصا منه على سلامة السكان ، وتحقيقا لغايات سامية :دينية ،وأخلاقية ، وصِحية ، ومن المعلوم أن صلاح الأسرة يُفضي إلى

صلاح المجتمع إذا كانت تسير على منهج الله تعالى ، وبالأخص أن القرآن الكريم والكتب السماوية عموما قد دعت للزواج ، لما فيه من طمأنينة وسكينة مُتمثلين بقوله عز وجل : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةٗۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]. ويتضح ذلك من خلال قول صفوان بن إدريس التجيني(ت598هـ)[2]: " وأمَرَ بِالنِّكَاحِ الذِي تَوَافَقَت فِيهِ الطّبِيعَة والشَّ رِيعَة ولَبّتْهُ وهِي سَرِيعَة وأخْصَبَت بِهِ رُبْوَة التَّنَاسُل فَهِي مُرِيعَة ، وسَدّ به عن إتبَاعِ الهَـوَى وارتِكَـاب المَحَارِمِ الذَّرِيعَة، وحَفِظَت بِهِ الأَنْسَال والأَنْسَاب ، وفَاضَ بِهِ نَهْر الالْتِئَام السَّلْسَال المُنْسَاب ، إِذْ لا سَبِيل لِأن يَسْتَغْنِي بِذَاتِهِ مَن كَانَ أَسِيرَ هَوَاه ، ومَأْمُورًا لِذَاتِه ، وإِنّما الانْفِرَاد والاسْتِغْنَاء لِمَن لَهُ الكَمَال الغَنِي" [3] فبالزواج نُبعد المجتمع من الوقوع في ا لمفاسد والمعاصي فتسُد بذلك الشهوات ، وتحفظ الأنساب التي يُوليها الإسلام عِناية فائقة.

وقد أفصحت قسمونة بنت اسماعيل اليهودي عن رغبتها الطبيعية في الزواج بعدما نظرت يوما في المرآة ، فرأت جمالها ، وقد بلغت أوان التزوج ولم تتزوج فقالت:

أَرَى رَوْضَـــةً قَدْ حَانَ مِنْهَا قِطَافُـــهَا وَلَـــسْتُ أَرَى جَانٍ يَمُـــــدُّ لَهَا يَـــدَا

فَيَا أَسَـفَا يَمْضِي الشَّبَابُ مُضَـــــيَّعًا وَيَبْـقَى الّذِي مَا إِنْ أُسَـمِّيهِ مُفْـرَدَا[4]

فالشاعرة تنظر إلى جسدها فترى روضة يانعة قد حَان قِطافها ، ولكن ليس من يَدٍ تمتد إليها لتقطف ذلك الورد وتجْني تلك الثمار ، فتتأسف لذلك وتتألم لأن الشباب يمضى سريعا وهي وحيدة.

---

[1]– سورة الروم : الآية 20.

[2]– هو أبو بحر صفوان بن إدريس بن إبراهيم التجيني ، وُلد بمرسية سنة 562هـ ، في بيت علم و أدب ، تتلمذ على يد فضلاء عصره ، فبرز في الأدب حتى غدا من أنبه أهل الأندلس في زمانه ، له شعر كثير و مؤلفـات أدبـية أشهرها "زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر"ينظر:ابن الأبار القضاعي ، تحفة القادم ، ص135.

[3]– المقري : نفح الطيب ،ج7، ص659.

[4]– نفسه : ج3، ص530.

ويستمر أسلوب الحزن والشكوى والقلق ، إذ تقول قسمونة ، وقد رأت ظبية تُشبهها في التوحُّش والحَور .

يَا ظبْـيَةً تَرْعَـــى بِـــرَوْضٍ دَائِمًـــــا إِنِّي حَكِـيتُكِ فِي التَوَحُّــشِ و الحَــوَرِ
أَمْسَى كِـــلَانَا مُـفْـرَدًا عَنْ صَاحِــبٍ فَلْنَصْـطَبِر أَبَدًا عَلَى حُـكْمِ القَـــدَرِ[1]

و يُروى أن أباها سَمِعها وهي تنشد هذه الأبيات ، فنظر في تزويجها[2].

كانت عادة الزواج في المجتمع المُوحّدي تتم بالاختيار والخطبة ، كقولهم:"مَنْ لا يَخْتَارْ لَا يَفْقِدْ عَارْ"[3]، حيث يختار الشاب شريكة حياته مُراعيا عِدة مزايا :أهمها الجمال الّذي اختلفت معاييره بين العُدوتين، فقد فضّل الأندلسيون الفتاة الحسناء الشقراء ، فيما رَغِب المغاربة بالفتاة البدينة لقولهم : "الشّحَمْ زِينْ ومَن فَقْدُو حْزِينْ" [4] ،استهزاءً بنحيفة البدن ، الّتي يُشبهونها بنوع من حلوى العيد ، لذلك قالوا "خْفَافْ رْشَاقْ بَحَلْ عْصَيَّاتْ العِيدْ"[5].

وكان يقوم بمُهمة الخِطبة" الخَاطِبة " الّتي تُمَهِّد الاتفاق بين العائلت ين، وتُوكَّل المهمة عادة إلى النساء المُسنّات على سبيل حُبِّ الخير والوَصل بين الفتى والفتاة [6] وبعد الوصول إلى الفتاة المُعَيّنة يذهب أهل العروس لطلب الفتاة للزواج رسميا ، وغالبا

---

[1]– المقري: نفح الطيب ، ج3، ص530.

[2]– ينظر: جلال الدين السيوطي ، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق ، عبد اللطيف عاشور ، طبعة مكتبة القرآن، القاهرة – مصر – دت، ص75.

[3]– أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي : أمثال العوام في الأندلس ، تحقيق و شرح و مقارنة محمد بن شريفة ، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، مكتبة محمد الخامس ، المغرب، دط ،ج2، 1975م ص330.

[4]– نفسه : ص34.

[5]– نفسه : ص 207.

[6]– ينظر: كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الدينية و العلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل و فتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، ط1، 1997م، ص 11.

ما كانت الصفات المطلوبة في زوجة المس تقبل تتلخص في ثلاث خصال هي : طِيب الأصل، وحُسن الخُلق، وكَمال الدين[1] ، نرى هذه الفكرة عند الشاعر أحمد السياني المُري الذي ينصح بضرورة تخيُّر الكِرام من النساء ، لوِلادة النجباء من الأبناء فيقول :

مَـــنْ يُـزَوِّج كَـــرِيمَـةَ الهِـمَّةِ العُلْـــيَا عُلُـــوًّا فـَــقَدْ أَجَـادَ الخَـــيَارَا

سَـــترِيه عِـــنْدَ الوِلَادَة بَـــنِيهَا العِـــلْمَ والحُـــلْم وَالأَنَـــاة كِـــبَارَا[2]

اشترطت النّسوة على الرّجال إتقانهم لصَنْعة يتَّ ـقون بها شرّ الحاجة والعوَز[3] وأن يكون الزوج كُفء للزوجة في الدِّين والمال والحَسب ، وأن يكون سالمًا من العُيوب التي تتجنبها النساء في الرجال [4]، مثل القُبح الذي رَدّت من أجْله الشاعرة نزهون القلاعية التي عاصرت المرابطين – أحد خاطبيها – فقد أكدت حقّها في رفض رجل مُشوّه تقدم إليها ، ويذكر أن حُبه لها قَاده إلى خِطبتها ، فراحت تسْخر منه وتُصوره في أبشع منظر، وكانت سريعة البديهة فقالت في ذلك :

عَذِيـرِي مِنْ عَاشِـقٍ أَنْـوَك أَصْـلَعِ سَفِيـــهِ الإِشَـــارَةِ و المَـــــنْزَعِ

يَـــرُومُ الِوصَـــالَ بِـــمَا لَـوْ أَتَـــي يَـــرُومُ بِهِ الصَّـــفْعَ لَم يَصْفَـــع

بِـــرَأسٍ فَقِـــــيرٍ إِلَـــى كَـــــيِّهِ وَوَجْـــــهٍ قِـَــيرٍ إِلَى بُرْقُـــــعِ[5]

واضح أن الخاطب لم يكن كفؤا لنزهون ، ولهذا أشبعته قذفا من غير ما تحـــفُّظ حيث تمنّت لو أنّه اتخذ برقُعا كي لا يُؤذي الآخرين بوحشة منظره ، وهذا لتنتقم لنفسها

---

[1]– ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش ، المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت – لبنان – ط1، 1993م، ص23.

[2]– المقري : نفح الطيب ، ج6 ، ص 76.

[3]– ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش ، المغرب و الأندلس في عصر المرابطين، ص 24.

[4]– ينظر :جمال أحمد طه ، الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي عصري المرابطين و الموحدين ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، الإسكندرية – مصر– 2004م، ص282.

[5]– ابن الأبار القضاعي : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، ص 216.

وأنوثتها، فالفتيات كن يُفضلن البقاء عازبات على الزواج بمن لا يتوفر فيه ـــــم ما يتمنيْنهُ حتى أن العامة قالوا: جْلُوسِي فِي الدَّار وْ لَا زْوَاجْ العَارْ[1] .

ومن عاداتهم أيضا المُبالغة في المُهور ، فهذا الشاعر أبو القاسم السهـيلي (ت 580هـ) ينصح أبناء وطنه بتجنُّب المُغالاة في المُهور ، حتي لا يُؤدي إلى بَوَار الفتيات فيقول :

المَهْـــرَ مَهْـرَ العُـــرْسِ لَا تُغَـلِّهِ فَإِنَّـــهُ مَـــهْمَا غَـــلاَ مَهْرَمَـــهْ

مَنْ دَمَـــهُ صَـانَ لِحِـــرْزِ التُـــقَى لَمْ يَخْـــشَ مِنْ لَـــوْمٍ وَ لَا مَنْدَمَـــهْ[2]

لقد أثقلت المُغالاة في المُهور كاهل الشباب الرَّاغب في الزواج ، الّذين احتاروا بين دفع المُهور، وتأثيث البيوت ، وتغطية التكاليف المتبقية للزفاف ، وهذا يُنافي مكارم الأخلاق، خصوصا وأن تعاليم الإسلام قد حضّت على الاكتفاء بالمُهور اليسيرة لتَحُل البركة وتَعُم السّعادة ، وقد تكون تلك المبالغة انعكاسا لثقافة المجتمع الّذي تتباهى فيه نساؤه بغلاء مُهورهن، وجعلها محلّا للمفاخرة ، ولِملء المجالس للتحدث عن ضخامة هذه المُهور.

وبعد انتهاء فترة الخطوبة يتم عقد القِرَان بكتابة وثيقة النِّكاح ، وكانت تتم في المسجد جَلبًا للخير والسَّعد ، وكان يبدأ فيها بالبسملة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول أبو بحر بن صفوان " وانعَقد النِّكاح بَينهما على بَركَة الله الّتِي يَتضاعَف بِهَا القَلِيل ويَزِيد ، ويَمنُّه الّذي ينتَهِض به من اعْتمدَه ويتَـــأَيد، وحُسْن تَوْفِيقِه الَّذِي يَرتَبِطُ بِهِ من أَخْلَصَ ضَمِيره ويَتقيَّد ، عَلى أن أَصدقَها كذا تَزوَّجها بكَلِمَة الله الَّتِي

[1]– الزجالي : أمثال العوام ، ج2، ص 208.

[2]– ابن دحية ذي النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن :المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري حامد عبد الحميد ، أحمد بدوي ، راجعه طه حسين ، دار العلم للجميع ، لبنان ، دط، دت، ص238.

عَلَت الكلِمَات وبَهَرتْها ، وعلَى سُنة نَبِيِّه الّتي أحْيَت الحنَـفِية وأظْهرَتْها، وأنْقَت المِلّة مِن أرْجَاس الجَاهِلِيَّة و طَهَّرتها "[1] .

ومن تقاليد العُرس ارتداء العروس أفخر الملابس ، الّتي تميل إلى الألوان الزاهية الجميلة ، والحِرص على تجميل نفسها ليلة الزفاف ، وتتولى المَاشِطة مُهمة ت زيينها نظير أَجْرٍ مُعَيّن ، ومن وسائل التجميل دِهان جسدها ووجهها ببعض الطُي ـوب والأصباغ الّتي تظهر جمالها[2]. ليست العروس وحدها من تكون في أبهى حُلة ، بل كل النسوة الحاضرات في العرس يتميّزن بالأناقة والجمال حتى يصعب التفريق بينهن وبين العروس، لولا التاج الّذي تضعه العروس على رأسها [3] ، ووصف أبـو بكر محمد بن قزمان(ت555هـ) حال النسوة في العرس بقوله :" وقد زُيِّنَت العُيُونُ بالتَّكْحِيل والشُّعُورُ بالتَّرْجِيل وحُرِّرَ السِّوَاك عَلَى مَوْضِعِ التَّقْبِيل ، وطُوِّقَت الأَعْنَاق بِالعُـقُود، وضُرِبَ العِكْر عَلَى صَفَحَاتِ الخُدُود ، ومَدَّ بِالغَالِيَةِ عَلَى مَوْضِعِ السُّجُود ، وأَقْبلَت صَنْعَا ء بِأَوْشِيَتِهَا وَعَنَت بِأَرْدِيَتِهَا ، وَدَخَلَت العَرُوسُ فِي حُلْيَتِهَا وَرَمَقَت الكُفُوف بِالحِنَّاء وَأَثْنَى عَلَى الحُسْنِ وهُو أَحَقُّ بِالثَّنَاء ، وطَلَقَّت ال رِّبَة ثَلَاثًا بَعْدَ البِنَاء ، وَعَضَّ الذِّرَاعُ بِالسِّوَار وَتَخَتَّم فِي اليَمِين واليَسَار ، وَأَمْسَكَت الثِيَاب بِأَيْدِي الأَبْكَار ، ومَشَت الإِمَاء أَمَام الأَحْرَار ، و تَقَدَّمت الدَّايَات بِالأَطْفَالِ الصِّغَار، وَامْتَلَأَتْ الدنْيَا سُرُورًا ، وانْقَلَب الكلُّ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا "[4].

ولإحياء حفلات الزفاف كانوا يستقدمون المغنين والمغنيات ، وضاربات الدفـوف والراقصات ، ولاشتمال حفلات الزفاف على كثير من المناكر والمفاسد ، فقد دعا الفقهاء إلى تجنب الحضور في مثل هذه الحفلات ، يذكر لنا الونشريسي صفة عرس قائلا :

---

[1]- المقري : نفح الطيب ،ج5 ، ص 61.

[2]- ينظر: أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي ، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقـــية و الأندلس و المغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلاميـة بالمملكة المغربية ، الرباط، ط1، 1401هـ/ 1981م، ج3، ص278.

[3]- ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش ، المغرب و الأندلس في عصر المرابطين، ص30.

[4]- ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، 253.

"صِفة العُرس أن يَحضُر المَزامِير ...فيَجتمِع مع الفُسّاق و يَخْرُجُوا لَهُم إلى مَوضِ .ع وَاسِع فيَجلبُون الخَمْـر ويَشربُونَها ، وإن كَان اللَّيل يَحْضُرونَ النِّساءَ و الزَّوانِي مخْتلطَات مَعهم ، ويَجتمِع أهْلُ المَوضِع الرِّجَال مَعهُم النِّسَاء فَوقَ أسْقافِ الدِّيَار، وعَلى الجُدْرَانِ والطُرُق"[1].

أما عن كيفية نقل العروس إلى بيت الزوجية فيُذكر أنه لما دخل المهدي مدينة تلمسان وجد بها عروسا تُزَف لِبَعلِها وهِي رَاكبَة على سِرج ، واللَّهو والمُنكَر أمَامَها فكَسَّر الدُفُوف وغَيّر المَنَاكِو وأَنزَلَها عن السرْج[2].

نستنتج مِمّا سبق أن المجتمع الموحدي قد عرف تفاصيل الزواج العربي الإسلامي معرفة تامة ، فهناك الخطوبة التي يشترط فيها النسب وأصالة العرق الذي كان واردا بشكل كبير في اختيار الزوجة ، ثم المهر والزفاف الذي يشتمل على جُملة من الترتيبات كإعداد العروس وتزيينها، وحضور المُغنيات لنشر البهجة والسرور بين الحضور.

2- العادات الجنائزية :

صاحب الموت بعض العادات والتقاليد الّتي سارت عليها العُدوت ين ، ومنها أنّ الرجال كانوا يقِفون لتقَبل التعازي ، في حين تُحيط النسوة بالميّت يندبْنَه و يَبْكِين عليه بكثير من اللوعة والحسرة ، فهذا ابن الزقاق البلنسي (ت528هـ) يُسجل لنا صورة بكاء على أخيه من خلال تِعداد مناقبه ، ووصف العويل عليه ، فيقول :

كَـثُـرَ العَـوِيلُ عَـلَيْهِ بَعْـدَ نَعْـيِهِ حَـتَّى كَـأَنَّ العَالَمِـينَ حَمَـامُ
وحَـكَتْ دُمُـوعَ الغَانِـيَاتِ عُقُـودَهَا لَوْ لَمْ يَكُـنْ بِعُـقُودِهِـنَّ نِظَـامُ

[1]- المعيار المعرب ،ج2، ص202.

[2]- ينظر: البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت، ص39.

ضَـــجَّتْ لِمَــصْرَعِكَ النَّوَادِبُ ضَجّةً سَـدَّتْ مَسَـــامِ-عَهَا لَهَا الأَيّــامُ [1]

ومن عادات الأندلسيين لبس البياض للتعبير عن الحزن والأسى [2]، وهذه العادة تعود إلى العصر الأموي ، وقد انتقلت فيما بعد إلى العُدوة المغربية [3] ، وفي ذلك يقول أبو الحسن الحصري القيرواني:

إِذَا كَـانَ البَيَـــاضُ لِبَـــاسَ حُزْنٍ بِأَنـْدَلُــسٍ فَـذَاكَ مِنَ الصَّــوَابِ
أَلَمْ تَـرَنِي لَبِـــسْتُ بَيَاضَ شَيْبِـي لِأَنّي قَدْ حَـــزِنْتُ عَـلَى الشَّـبَابِ[4]

لقد كان الناس يحملون موتاهم في توابيت مُعدة لهذا الغرض، وكانت هذه النعوش تُحمل على أكتاف الرجال، وهذا واضح من خلال بيت ابن الزقاق، بأن الأحباب كانوا يتهافتون على حمل نعش أخيه فيقول:

يا حَامِـــلِينَ النَّـــعْشَ أَيْـنَ جِيَـادُهُ يَا ملْبِسِـيـنَ التُّـــرْبَ أَيْــنَ اللامُ[5]

ومن عاداتهم أيضا النّقش على شواهد القبور بأبيات شعرية للوعظ والاستعبار ووضع النّاس الموت نُصب أعينهم، وقد يُنظمون هذه الأبيات عند شعورهم بحضور الموت ، أو عند يأسهم من الدنيا الّتي ينصرفون عنها ، وعن ملذاتها، مُدركين أنها دُنيا فانية زائلة ، لا أمان لها.

---

[1]– ابن الزقاق البلنسي : الديوان ، تحقيق محمود ديراني ، دار الثقافة للنشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان، دط ، دت ص 264.

[2]– ابن الحسن علي ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق سالم مصطفى البدري منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان – ط1 ،ج 3 ، 1998م ، ص 218.

[3]– يوسف بن إسماعيل النبهاني : جامع كرامة الأولياء، تحقيق و مراجعة عطوة عوض، المكتبة الثقافية، بيروت لبنان، 1995م، ص 79.

[4]– المقري : نفح الطيب ، ج3، ص 263.

[5]– ديوانه ، ص 124.

ويُعد الطبيب الشاعر أبو بكر ابن زهر الحفيد(ت595هـ) من الّذين أوصُوا بالكتابة على قبورهم أبيات تتضمن فلسفته في ثنائية الحياة والموت، يقول:

تَأَمَّـــلْ بِفَـــضْلِـــكَ يَا وَاقِـــفًا وَلَاحِـــظْ مَـــكَـانًا دُفِعْـنَـــا إِلَيْـــهْ
تُـــرَابُ الضَّـــرِيحِ عَلَى صَفْحَتِـي كَأَنِّـــي لَـمْ أَمْـــشِ يَوْمًـــا عَلَيْـهْ
أُدَاوِي الأَنَـــامَ حَـــذَارَ المَنُـــونِ فَهَـــا أَنَا قَـــدْ صِـــرْتُ رَهْنًـا لَدَيْهْ[1]

يعرض الشاعر على الواقف على قبره مفارقة الحياة والموت ، وهي مفارقة تتعلّق بكونه إنسانًا يعيش فوق الأرض حيًّا ، ثم يُدفن تحت ترابها ميّتًا ، وتتعلّق أيضا بِمُهنته طبيبًا يحاول تخليص مرضاه من شبح الموت، غير أن القدر طَاله هذه المرّة ، فلا مُخلّص له من قضاء مُحتّم وشيك ، لذلك يرى أنه من الحكمة أن يعظ الآخرين بأن الموت قَدَرٌ لا مفر منه ، فليلتفت الناس إليه قبل فوات الأوان.

ويتجه أبو بكر بن مغاور (ت587هـ)[2] إلى الله سبحانه وتعالى يسأله الرحمة والمغفرة من خلال قطعة أمَر أن تُكتب على قبره إذا مات ، حيث يقول:

أَيُّهَـــا الوَاقِفُ اعْتِـــبَارًا بِقَـــبْرِي اسْتَمِـــعْ فِيهِ قَوْلَ عَظْمِي الرَّمِـــيمِ
أَوْدَعُونِي بَطْـــنَ الضَّـــرِيحِ وَ خَافُوا مِنْ ذُنُـــوبٍ كُلُـــومُـهَا بِأَدِيـــمِ
قُلْـــتُ : لَا تَجْـزَعُوا عَلَيَّ فَإِنِّـــي حَسَـــنُ الظـــنِّ بِالرَّؤُوفِ الرَّحِـــيمِ[3]

يؤكد الشاعر في هذه الأبيات ثِقته وحُسن ظنّه برحمة الله تعالى وبِفَيض كَرمِه محاولا بذلك وقد داهمه الموت وأصبحت عظامه رميما، أن يُطمئِن نفسه وأهـله وأصدقاءه بأنه ذاهب إلى ربّ جواد كريم يُكرم ضيفه ، ويعفو عن ذنوبه و إن كَثُرت.

---

[1]– المقري : نفح الطيب ، ج3، ص 434.

[2]– هو أبو بكر عبد الرحمن بن مغاور، ولد بشاطبة سنة502هـ ، كان من الأدباء المشاهير في الأندلس، له حظ وافر في قرض الشعر و تصرف في فنون الأدب .ينظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب،ج2، ص385.

[3]–التجيبي: زاد المسافر، ص117.

وهكذا يتضح أن فكرة الموت والفناء قد أرَّقت الناس في العصر المُوحّــدي خصوصا الشعراء الّذين حرصوا على تَوصية ذويهم أن يكتبوا بعض المقطوعات الشعرية التي نظموها في حياتهم لتكون على قبورهم ، وقد يكون السبب الحقيقي في كتابة الشواهد الشعرية على القبور هو الرغبة في البقاء على الأرض ، والخوف من مغادرتها، أو الميل إلى تخليد الذِّكر وبقاء الاسم ، وحفظ المآثر ، خاصة إنهم يعرفون ما للشعر من أثر سِحري في النفوس ، ومن قُدرةٍ على البقاء والتداول عبر الأزمنة أكثر مما للنثر في هذا الأمر.

3- الأعياد و المواسم :

احتفل المسلمون في المغرب والأندلس في عصر المُوحّدين بالعديد من الأعياد والمناسبات الدينية والاجتماعية المختلفة، مثل عيد الفطر، والأضحى، والنيروز وغيرها من المناسبات الأخرى.

أ- شهر رمضان:

كان لشهر رمضان قُدُسية خاصة عند المسلمين في المغرب والأندلس باعتباره مناسبة دينية عظيمة "ظاهرها الحرمان وباطنها الرّحمة" [1] ، وآثارها تُعلّم المُكلفين الصّبر والخشوع ، وتحثهم على التّمسك بالدّين طلبًا للعفو والمغفرة والثــواب ، يسارع فيه المسلم للطاعات تقربًا لله وتزلفًا ، فيتحرى الإكثار من الصدقات ، والتفتيش عن أهل الحاجات ومساعدتهم، والكف عن الفواحش والموبقات ، وختم القرآن عديد المرات.

وأما الأسر المُوحّدية فتَستعد لاستقبال هذا الشـــــهر الفضيل بشـراء اللـــوازم والمتطلبات ، وبِشَوق المُترقب ينتظر الفقهاء هلاله، ليعلموا كافة الناس بحُلوله ، وقد تفنن الشعراء في وصف هلال رمضان الّذي يُعدّ إمارة خير ، وبِشارة يُمْن و بركـــــة

[1]- ينظر: أحمد شوقي ، أسواق الذهب ، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ، القاهرة- مصر- دط ، دت ، ص96.

مُعبِّرين عن ذلك بأجمل العبارات ، يقول ابن الصّباغ الجذامي(ت 650هـ) [1]احتفالا بِمَقْدم هلال رمضان.

هَذَا هِـلَالُ الصَّـــوْمِ مِنْ رَمَضَـــان بِالأُفُـــقِ بَـــانَ فَلَا تَكُـــنْ بِالوَانِـــي
وَافَـــاكَ ضَيْفًـــا فَالتَـــزِمْ تَعْظِيمَـهُ وَاجْـــعَلْ قِـــرَاهُ قِـــرَاءَةَ القُـــرْآنِ
صُمْـــهُ وَ صُنْـــهُ وَاغْتَنِـــمْ أَيَّامَـهُ وَاجْبُـــرْ ذَمَـــا الضُّعَفَـاءِ بِالإِحْسَانِ [2]

يَذْكر الشاعر في هذه الأبيات فضل شهر رمضان ، ويحُث على صيامه ، وعدم التّكاسل في أداء الطاعات ، فهو ضيف والواجب تعظيمه و إكرامه ، وهذا الإكرام يكون بِصوْن اللسان ، وقراءة القرآن، والإكثار من الإحسان لنيل الرضوان.

ويُذَكّرنا الشاعر أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني بضرورة ال تقبة وهجر الملذات ، والعُزوف عن ألوان اللّهو والمُجُون بعد رؤية الهلال فيقول :

قَالُـــوا: غَذَا رَمَضَانَ فَاسْـتَعِدْ تُقَى وَ تُبْ عَلَى الصَّوْمِ وَاهْـجُرْ لَذَّةَ الكَأْسِ
إِنَّ الهِلَالَ يُـرَى حَتْمًا فَقُلْتُ لَهُـمْ حُيِّـيْـتُمْ بِشَـــتَاتٍ بَـــيْنَ جُـــلَاسِ [3]

---

[1]– هو أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الصّباغ الجُذامي ، شاعر مثقف ، تعددت عناصر ثقافته التي تجـمع بيـن الثقافة الدينية و الأدبية و الجغرافية، له نُخب موشحات في المديح النبوي. ينظر: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبطه و حققه و علّق عليه، مصطفى السقا، إبراهيم الأبـياري، عبد الحفيظ الشلبي، مطبعة فضالة، دت، ص230.

[2]– الديوان ، تحقيق محمد عناني و أنور السنوسي ، دار الأمين ، القاهرة – مصر– ط1، 1999م ، ص168.

[3]– العماد الأصفهاني : خريدة القصر و جريدة العصر ، تحقيق أذرتاش أذرنوش ، نقّحه و زاد عليه ، محم ـــد العروسي المطوي، و محمد المرزوتي ، و الجيلاني بن الحاج يحيى ، الدار التونسية للنشر ، ط2، ج2، 1986م ص 188.

وفي رمضان ليلة خير من ألف شهر، هي ليلة القَدْر الّتي يُحتفل بها ليلة السابع والعشرين، من خلال ختم القرآن في المساجد ، و في الحث على عدم التواني والكسل على قيام هذه الليلة المُباركة ، يقول ابن الصّباغ الجذامي:

أَيَا لَيْلَةَ القَدْرِ الشَّهِيرِ مَكَانُهَا أَضَعْنَا وَ حَقَّ الله قَدْرَكَ مِنْ قَدْرِ
فَوَا أَسَفَا كَمْ ذَا التَّكَاسُلُ وَالوَنَا تَغَافَلْتَ يَا مَغْرُورُ عَنْ لَيْلَةِ القَدْرِ
وَقَوْمٌ عَلَى بَابِ الكَرِيمِ وُقُوفهُمْ يُنَاجُونَ مَوْلَاهُمْ قِيَامًا إِلَى الفَجْرِ
تُضِيءُ بِإِشْرَاقِ الخُلُوصِ وُجُوهُهُمْ فَنُورُهُمْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ كَالبَدْرِ [1]

يُوَبِّخ الشاعر المتكاسل عن اغتنام الحسنات في هذه الليلة العظيمة، وفي المقابل يمدح أقواما أخلصوا العبادة لله تعالى، فأشرقت وجوههم فهي كالبدر في الليل المظلم.

وفي البكاء والتّأسف على رحيل شهر رمضان المبارك يقول ابن الصّباغ الجذامي:

أَدْرِكْ بَقَايَا العُمْرَ وَيْحَكَ وَانْتَهِضْ فَالحَزْمُ يَا حِلْفَ الوَنَا أَنْ تَنْهَضَا
هَذَا فَدَيْتُكَ شَهْرُ صَوْمِكَ رَاحِلُ وَكَأَنَّهُ بَرْقٌ أَضَاءَ فَأَوْمَضَا
أَتَرَاكَ قَدْ حَسَّنْتَ فِيهِ جِوَارَهُ وقَضَيْتَ فِيهِ حُقُوقَهُ فَقَدْ انْقَضَى [2]

يشبّه الشاعر في هذه الأبيات انقضاء شهر رمضان بالبرق الّذي يُضِيء ثم يختفي فجأة ، لذلك على المرء أن يستغل أيّامه في الطاعات، وأن يقضى فيه ما يتوجب عليه اتجاهه لأنه راحِل.

والمعنى نفسه ذهب إليه ابن قزمان القرطبي الّذي تحسّر لرحيل شهر رمضان فقال:" ...نَشط الصَّالِحُونَ بِكَ صَوْمًا ، وَهَجَرَ المُتَهَجِّدُونَ فِي لَيْلِكَ نَوْمًا، وَأَكْمَلْنَاكَ إِنْ أَذِنَ الله ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، فَيَا أَيُّهَا الّذِي رَحَل ، رَحَلَ بَعْدَ مَقَامِهِ ، وَقَامَ للسَّفَرِ مِنْ مَقَامِهِ

[1]– ديوانه، ص 188.
[2]– نفسه : ص 150.

وَرَأَى مَنْ قَضَى حَقّهُ، وَمَنْ قَصَّرَ فِي صِيَامِهِ، فَمَشَى النَّاسَ إِلَى تَشْيِيعِهِ، وَبَكوا لِفِرَاقِهِ وَتَوْدِيعِهِ، وَنَدِمَ المُضَيّعُ مَا كَانَ مِنْ تَضْيِيعِهِ، وَلم يَتق بِدَوَامِ العَيْشِ إِلَى يَوْمِ رُجُوعِهِ..." [1] يذكر الأديب صفات الصالحين العابدين الّذين أخلصوا العبادة لله تعالى ، وأكملوا شهر رمضان صيامًا وقيامًا ، وكُلهم حسرةً على رحيله ، وبكاءً على فِراقه.

ب- عيد الفطر:

عقب نهاية شهر رمضان كان الناس يخرجون للتطلع لهلال شوال ، وبدء الاحتفال بعيد الفطر الذي يمثل مظ هرا اجتماعيا حقيقيا ، وكان من تقاليد العيد ، ارتداء جديد الثياب والتوجه إلى المسجد لأداء صلاة العيد ، التي تشهد إقبالا كبيرا من الناس وقد أشار ابن قزمان إلى ذلك فقال:"هُوَ هْلَالْ الفِطْرْ،أَوْ قُلْ : هُوَ هْلَالْ العِيد ، فَلَقَهُ صْبَاحْ مْشَى النَّاسْ فِيهْ مَشْيْ الحْبَابْ ، و لَبْسُوا أَفْضَلْ الثِّيَابْ، و بَرَزُوا فِي مُصَلَّاهُمْ مِنْ كُلِّ بَابْ"[2].

ويقول الشاعر محمد بن عبد الله الاشبيلي(ت 543هـ) عندما نظر يوم العـــيد وَرأى كثرة الناس في المسجد احتفالا و تضرعا:

إِلَيْكَ إِلَهَ الخَلْقِ قَامُوا تَعَبُّدًا وَذُلُّوا خُضُوعاً يَرْفَعُونَ لَكَ الـيَدَا
بِإِخْلَاصِ قَلْبٍ وَانْتِصَابِ جَوَارِحٍ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ سُجَّدَا
نَهَارُهُمْ لَيْلٌ وَلَيْلُهُمْ هُدًى وَدِينُهُمُ رعى ، وَدُنْيَاهُمْ سُدَى[3]

لقد أثار مشهد المسلمين في المسجد قريحة الشاعر فأنشأ هذه الأبيات الّتي ترسم صورة المُصلّين وهم يُؤدّون صلاة العيد ، رافعين أكُف الضراعة يتوسّلون ويتذللون لربهم

[1]- ابن الخطيب :الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج2، ص 498.
[2]- نفسه : ص501.
[3]- الضبي أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة ، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب المصري ، القاهرة- مصر- ط1، 1989م، ج1، ص82.

تسمع زفرات قلوبهم ، وترى دموع عيونهم ، وكُلهم رجاء لتَقبُّل عباداتهم في جوّ روحاني يعكس مدى تأثير الدين ورُوحه في الوسط الاجتماعي.

وجرت العادة في هذه المناسبة أن تصنع الأُسر المُوحّدية أصنافًا عديدةً من الحلويات، ومن أبرزها "عصيات العيد" الّتي ذكروها في أمثالهم [1] ، وكانت تُصنع هذه الحلوى على شكل عصيّ، و لا تزال معروفة في أيامنا.

ج- عيد الأضحى:

أما عيد الأضحى الّذي يأتى في العاشر من ذي الحجة ، فقد كان فرصة للاحتفال والتفاخر بالأطعمة كل حسب مُستواه ، وكانت كل أسرة سواء فقيرة أو غنية تحرص على شراء خروف ، وكان ذلك يتم قبل العيد بيومين أو أكثر ، وصوّر لنا ابن قزمان حال المدن الإسلامية في القرن السادس الهجري ، حيث " تُساق الخراف من كل مكان إلى ميادين تسور بأخشاب ، ويذهب الناس يوم الوقفة(يوم مني) إلى هذه الأسواق ، والتي يشتد عليها الزحام فيُقلبون الخِراف ويُساوِمون الباعة ، ويدفعون الثمن لما اشتروه "[2].

أما مواصفات الأضحية الّتي يتسابق الناس لاقتنائها فنجدها في "مقامة العيد" للأزدي التي تعطينا صورة تقريبية لها ، فحتى و إن كانت متأخرة زمنيا عن فترة الدراسة إلا أنها تُسلّط الضوء على مجتمع لم تختلف ملامحه كثيرا بل يتقاطع في سماته مع الحاضر ، يقول:" كَبْشٌ سَمِينٌ ، وَاسِعُ الصَّدْرِ وَالجَبِينِ، أَكْحَلٌ عَجِيبٌ ، أَقْرَن ...يَعْبَقُ مِنْ أَوْدَاكِهِ كُلُّ طِيب ، يَغْلُبُ لَحْمَهُ عَلَى شَحْمِهِ، وَيَسِيلُ الوَدَكُ مِنْ عَظْمِهِ، قَدْ عُلِف بالشَّعير، وَدُبِّر عليه أحْسن تَدْبير ،لَا بالصَّغِيرِ وَلا بِالكَبِير، تَصْلُحُ فِيهِ الأَلْـــوَان

[1]- قالوا :"خُفَافْ رْشَاقْ بَحَلْ عْصَيَّاتْ العِيدْ"، الزجالي : أمثال العوام ، ج2، ص 207.

[2]-عصمت عبد اللطيف دندش : الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين ، عصر الطوائف الثاني ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان – ط1 ، 1408هـ/ 1988م ، ص 329.

ويَسْتَطْرِفُ شِوَاهُ فِي كُلِّ أَوَان، ويسْتَحسن ثَرِيدَهُ وقِدّيدَهُ فِي سَائِرِ الأَحْيَان" [1]، وقد كانت نوعية الكلأ المعتمدة في تغذية الأغنام من بين المعايير المعتمدة في الشّراء لضمان جودة اللحوم ، كما لوحظ كراهية الأُسر التضحية بالماعز وتحبيذهم للضان.

وكان الناس يخرجون في الأعياد رجالا ونساءً وأطفالاً للتفرج في ال ـــــشوارع والساحات، وكانت تقام في الساحات حلبات الاحتفال يلعب فيها الحَواة ، ويُسمونه أيضا بالعجايبي ، لأنه يأتي بالألعاب العجيبة الغريبة ، ويصف ابن عميرة المخزومي [2] أحد اللاعبين كيف يصُف الأطباق على العصا بقوله: " وَكَانَ لِأَحَدِهِمَا وَصْفٌ يَزِيدُ عَنِ الأَوْصَافِ وَعَمَلٌ هُوَ المُشَارُ إِلَيْهِ فِي الصِّحَافِ ، تُصَفُّ لَهُ فِي مَدَارِ هِ، وَتُلْقَى بِمَجَالِ إِقْبَالِهِ وَإِدْبَارِهِ، فَيَأْخُذُهَا بِإِصْبَعِين ، وَيُدِيرَهَا لِرَأْيِ العَين ، فَتَرَى عَجَبًا مِنْ نَصْبٍ وإِمَالَـــة وَإِثْبَات وَإِزَالَة ، وَاتِسَاق بِغَيْر قَد ، وَالْتِصَاق دُونَ وِد ، وَرُبَّمَا أَكْفَأَهَا فِي الهَوَاء وَقَدْ غَمَرَهَا بِالمَاءِ ، فَتَحْسِبَهُ جَمّدَ فِيهَا فَمَا يَقْطُر ، أَوْ عَادَ سَرَابًا فِي عَيْنِ مَنْ يَنْظُر ، وَيَمُرُّ بِهَا فَيَجْعَلَهَا تَحْتَ ذَيْلِه ، ثُمّ يَقْتَلِعها بِجُمْلَةِ سَيْلِه ، فَيَفْقِدُهَا العَيَان ، وَيَخْلِى مِنْهَا المَكَان "[3].

رصد ابن عميرة أحد الاستعراضات الّتي قدّمها العجايبي وهو يقوم بحركات جميلة تتمثل في صفّ الأطباق وإدارتها بطريقة سِحريّة أبهرت الحاضرين ، فتارةً يجعلها تقف مُصطفّة على العصا ، وتارةً يجعلها تتحرّك ذهابًا و إيابًا ، ومما زاد المنظر غرابة تجمّد

[1]– أحمد مختار العبادي : مقامة العيد أبي محمد عبد الله الأزدي (ت 750هـ/1350م) صورة من صور الحياة الشعبية في غرناطة ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، مدريد ، العدد 1،2، 1954م، ص173.

[2]– هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومي ، وُلِد سنة580هـ بجزيرة شقر بالأندلس، كان فقيها مُتبحرا في اللغة والأدب ، والتاريخ والأخبار، بصيرا بالحديث، راوية مكثرا ، تولى القضاء بشاطبة ، ثم انتقل إلى عدوة المغرب وولّى قضاء سلا ومكناسة بالمغرب الأقصى، ثم رحل إلى تونس، وحظي لدى أميرها المستنصر بالتقدير فولاه قسنطينة ، ثم استقر بتونس إلى أن توفي بها سنة 658هـ. ينظر: المقري، نفح الطيب،ج3 ، ص 386 وابن الأبار: تحفة القادم ، ص 197، وابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ،ج1، ص 174.

[3]– الزجالي : أمثال العوام ، ج1، ص252.

الماء فيها، فلم يقطر منه ولو قطرة واحدة ، وعندما أراها للنّاس اختفى الماء ولم يجدوا له أثرًا .

د- المولد النبوي الشّريف:

درج أسلافنا في المغرب والأندلس على الاحتفال بمولد شفيع الأنام محمد صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول من كل عام ، وذلك باتخاذ يوم مَولده عيدًا رسميًا في مختلف أنحاء البلاد ، حيث يتم التوقف فيه عن العمل لكي يشارك النّاس في التظاهرات الدينية والثقافية والعلمية المُقامة في هذا اليوم، وليعبّروا عن مدى حبهم للنبيّ الكريم ، وفي ذلك يشير مالك بن المرحل (ت699هـ)[1] بقوله:

فَحَــقٌّ لَنَـــا أَنْ نَعْتَـنِـــي بِــوِلَادِهِ وَنَجْعَــلَ ذَلِـــكَ اليــوْمَ خَيْــرَ المَوَاسِـمِ
وَأَنْ نَصِـــلَ الأَرْحَـــامَ فِيهِ تَقَرُّبًـــا ونَغْـــدُو لَهُ مِـــنْ مُفْطِرِيـــنَ وَصَائِـمِ
وَنَتْـــرُكَ الشُّغْـــلَ إلا بِطَاعَـــةٍ وَمَا لَيْـــسَ فِيـــهِ مِنْ مَـــلَامٍ وَلَائِـــمِ [2]

وحرص المسلمون على إظهار الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد للشمع وتنزّه السمع والنظر ، وقراءة سيرته وشمائله صلى الله عليه وسلم، وإنشاد المدائح النبوية والتزيّن بما حَسُن من الثياب، يقول مالك بن المرحل: "يُؤْثر أَوْلَادَهُم لَيْلَةَ المَوْلِدِ السَّعِيدِ بِالصَّرْفِ الجَدِيد مِنْ جُمْلَةِ الإِحْسَانِ وَالأَنْعَام ، يَمْشُونَ فِي الأَزِقَّة يُصَلُّونَ عَلَى النَبِي عَلَيْهِ السّلَام ، وَفِي طُولِ اليَوْمِ المَذْكُور يُسْمِعُ المُسْمِعُون لِجَمِيعِ أَهْلِ البَلَدِ مَدْح

[1]-هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن علي بن المُرحّل ، وُلد بمالقة عام 604هـ، سكن سبتة طويلا ، ثم رحل إلى فاس ، كان بارعا في النحو و اللغة و البيان و العروض، مشاركا في الفقه و الفرائض، ترك كتبا متنوعة منها التبيين و التبصير في نظم كتاب التيسير، أرجوزة في العروض وغيرهما. ينظر:عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم و الأدب و السياسة ، اعتنى به و رتّب تراجمه محمد بن عزوز ، دار ابن حزم للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت- لبنان- ط1، 1430هـ/ 2010م ،ج2 ، ص992-993.

[2]- نفسه: ص1015.

النّبِي عَلَيْهِ السّلَام بِالفَرَحِ وَالسرُور ، وَالإِطْعَام لِلْخَاص وَالعَام جَارٍ عَلَى الدّوَامِ ، فِي كُلّ عَام مِنَ الأَعْوَام"[1].

كما تحدّث الشعراء عن شهر ربيع الأول وفضله على الأشهر الأخرى ، وجَلال ليلة مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بين ليَالِيه، وفي ذلك يقول ابن الصّباغ الجذامي:

هَـذَا رَبِيـــعٌ قَـدْ أَتَـــاكَ مُبَشِّـــرًا بِقُـــدُومِ خَيْـــر مَـــنْ وَطِـــئَ الـــثرَى
لَا شَـــكَّ فِيـــهِ أَنَّـــهُ فِـي فَضْـلِـهِ بَيْـنَ الشُّهُـورِ كَمِثْـلِ أَحْمَـدَ فِي الوَرَى
وَفَـــاكَ يَزْهُـــو بَيْـــنَ أَشْهُـرِ عَامِـــهِ مُتَـــهَلِّـــلًا مُـتَدَلِّـــــلًا مُتَبَـخْتِـرَا
بَهَـــرَ الشُّهُـــورَ بِلَيْـلَـــةٍ نَـبَوِيَّـةٍ ضَمَنَـــتْ لَـهُ آيَـــاتُهَا أَنْ يَبْهَـــرَا [2]

إنّه شهر ميلاد خير البشر، ويمتاز على الشهور الأخرى كما يمـتاز الرســول صلى الله عليه وسلم على جميع الخلق، كما يضفى الشاعر على هذا الشهر صـــفات التدلّل والتبختر، لأنه يحوي ليلةً عظيمةً هي ليلة ميلاد المصطفى عليه السلام.

ويدعو ابن الصّباغ في أبيات أخرى نفسه وغيره إلى مُداومة الطاعة في شهر ربيع الأول وبالأخص ليلة الثانية عشر منه، فيقول:

وَصِـلِ القِيَـامَ بِـهِ لِتُثْنَـــيْ عَشَـــرَةٍ مِنْـــهُ وَحَـالُـكَ زَفْـــرَةٌ وَدُمُـــوعُ
وَاضْـــرَعْ لِرَبِّكَ فِي التَّجَـاوُزِ وَلْيَكُـــن فِيـــهَا مَـقَامُـكَ ذِلَّـــةٌ وَخُـضُـوعُ
وَلِتَغْتَنِمْـــهَا وَصْلَـــة مِـــنْ لَيْلَـــةٍ مَا سَلَّمْـــتَ حَتَّـــى دَنَـا التَّوْدِيـعُ [3]

[1]– جبران محمد مسعود : مالك بن المرحل أديب العدوتين ، تحقيق و دراسة ، المجمّع الثقافي ، أبو ظبي– الإمارات العربية المتحدة– 2005م ، ص350.

[2]– ديوانه ، ص184.

[3]– ديوانه: ص 209.

فالبكاء والتضرع لله تعالى من صفات المسلم الّذي يخضع ويتذلّل لربٍّ كريمٍ راجيًا مغفرة خطاياه وذُنوبه.

هـ- النَّيــروز:

احتُفل به في المغرب والأندلس في شهر يناير استبشارًا بالعام الجديد، تُصنع خلاله مدائِن من الحلوى ذات أشكال جميلة لتقديمها للضيوف، وقد وصف عبد الملك المراكشي طريقة صنعها بقوله :" أشكال من البيض مركبة ومصبوغة بالحُمرة والخُضرة أو غير ذلك من الألوان ، ثم يُفرم الجميع بالزعفران وُيطبخ في الفُــرن" [1] ، ويتم تزيينها بأصناف من الفواكه مثل الجوز، واللوز والتّمر ، والبلّوط ، ويشترط تقطيعها وأكلها بالأيدي دون استعمال السكاكين لشدّة طراوتها، وفي ذلك يقول أبو عمران موسى الطرياني لما دخل يوم النيروز إلى بعض الأكابر ، فنظر إلى صورة مدينة من الحلوى فأعجبته ، فقال له صاحب المجلس : صِفها وخُذها ، فأنشد واصفا هذه المدينة.

مَدِيـــــنَـــــةٌ مُصَـــوَّرَهْ تُحَـــــــارُ فِيـهَا السَّـــحَرَهْ
لَـــمْ تَبْـــنِـهَا إِلَّا يَـــدَا عَـــــذْرَاءَ أَوْ مُـخَـــــــدَّرَهْ
بَـدَتْ عَـــرُوسًا تُجْـــــتَلَى مِـــنْ دَرْمَـــــكٍ مُزَعْـــفـَرَهْ
وَمَـــا لَهـــــا مَفَـــاتِـــحٌ إِلَّا البَنَـــــانُ العَشَـــــــرَهْ [2]

يتحدث الشاعر عن أيدي العذارى الناعمة التي تفننت في صـــنع هذه المدينـــة وتزيينها بما أُتيح لها من أشكال الزّينة المعروفة، وقد شبّه حُسن منظرها بالعروس المُتألقة الّتي تخطف الأبصار ليلة عرسها .

[1]- الذيل و التكملة ، ج2، ص 565.

[2]- ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج1، ص294.

و- العَنْصَــرَة:

كان يحتفل به نصارى الأندلس ، وفيه وُلد سيدنا يحيى بن زكريا عليهما الـسلام ويُسمّى أيضا "يوم المهرجان" وهو اليوم الرابع والعشرون من حزيران [1] ، ومن عادتهم في هذا اليوم إشعال النار في الشوارع حيث كانوا يقفزون فوقها مُبتهجين مسرورين، ونظرًا لتعلّق الأندلسيين بهذا الاحتفال فقد انعكس في أمثالهم حيث قالوا: "الكَبْشْ المصَوَّفْ، مَا يْكَفَّزْ العَنْصْرَة"[2]، أي أن الشخص البَدِين الذي شبهوه بالكبش ذي الصّوف الغزير لا يستطيع القفز فوق النار خوفا من الاحتراق، كما تقام في هذا اليوم العديد من المسابقات كسباق الخيل ، ومسابقات شعرية ، وللأطفال أيضا طريقتهم للاحتفال بالعَنْصَرة حيث كانوا يَرشون الناس بالماء في الأسواق والشوارع ، لينالوا حظهم من البهجة والصّـــخب ومع مرور الوقت شارك المسلمون النصارى الاحتفال بهذا اليوم ، وهذا يدل على مـدى تعاطـف المسلمين وسلاطينهم مع إخوانهم المسيحيين.

ثانيا: المجالس الأدبية

وهي الأماكن الّتي اعتاد الأدباء والشعراء أن يجتمعوا فيها لغايات أدبية كالمحاورة والإنشاد، وتطارح الشعر ونظمه، وتُعد المجالس الأدبية من أهم مظاهر الرقي الأدبــي والثقافي في عصر المُوحّدين، ومن أبرز ما يُعبر عن الذوق والجمال إذ تُصوّر الحياة الاجتماعية تصويرا يُنْبِئ عن رِقّة طبع الشعراء ، وحُسن ذوقهم ونقاء مواهبهم.

وكان لاهتمام المُوحّدين بالأدب وتقديرهم للأدباء والشعراء ، الأثر الكبير في الانتشار الواسع للمجالس الأدبية ، حيث كانوا يستقطبون الأدباء والشعراء إلى مجالسهم

[1]- ينظر: مريامة لعناني ، الأسرة الأندلسية في عصري المرابطين و الموحدين ، ص149.

[2]- الزجالي : أمثال العوام ، ج2، ص 85.

بغرض تشجيعهم والاستماع إليهم ، وإغداق الأعطيات عليهم ، كما ساهم حرص الأدباء على المشاركة في هذه المجالس على نجاحها وتعدّدها ، ومن هؤلاء الأديب أبو جعفر(ت559هـ)[1] الّذي أصرّ على والده عبد الملك بن سعيد أن يذكر براعته في قول الشعر، طمعا في حضور مجلس عبد المؤمن بن علي، وعندما حصل له ما أراد قبّل يد الخليفة ، ثم أنشد قصيدته التي قال فيها:

عَلَيْـــكَ أَحَالَنِـــي دَاعِي النَّجَـــاحِ وَنَحْـــوَكَ حَثَّنِـــي حَـــادِي الفَـــلَاحِ
وَكُنْـــتُ كَسَاهِـــرِ لَيْـــلًا طَوِيـــلًا تَرَنَّـــحَ حِيـــنَ بُشِّـــرَ بِالصـــبَاحِ
وَذِي جَـــهْلٍ تَغَلْـــغَلَ فِي قَفَـــارٍ شَكَـا ظَمَـأً فَـــدُلَّ عَـــلَى القِـــرَاحِ
دَعَانَـا نَحْـــوَ وَجْهِـكَ طِيـبُ ذِكْـرٍ وَيَذْكُـــرُ لِلـرِّيَـــاضِ شَـــذَا الرِّيَـــاحِ [2]

وكانت المجالس الأدبية تنقسم على ضربين :

1- مجالس أدبية رسمية :

وهي تلك المجالس الّتي تُعقد في أماكن مخصصة للعلم والأدب، ومنها ما كان يُقام في قُصور الخلفاء والأمراء، إذ جعلوا من قصورهم أماكن تُعقد فيها النـدوات وتُدار فيها المناظرات، و يُدعى لها أعيان الوزراء ونُبهاء الأدباء والشعراء.

ومن أشهر خلفاء المُوحّدين اهتماما بالمجالس الأدبية والمنتديات الشعرية الخليفة عبد المؤمن بن علي، الّذي عَقد مجلسًا في قصره الواقع في جبل الفتح "جبل

[1]- هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، وُلد في قلعة بني سعيد بالقرب من غرناطة ، كان له حظ بارع في كتابة الأدب و نظم الشعر عشِق حفصة الركونية شاعرة الأندلس و كان بينهما مراسلات و مكاتبات شعرية ، شاركه في حبها عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة و لأجلها قتله سنة 559هـ . ينظر : ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، ج2، 164.

[2]- المقري ، نفح الطيب ، ج4، ص 181.

طارق" فأخذ الشعراء يتنافسون في مدحه ووصف الجبل ، وأشهر القصائد الّتي قِيلت في ذلك المجلس قصيدة الرصافي البلنسي (ت572هـ)[1]التي قال فيها:

لَوْ جِئْـتَ نَارَ الهُـدَى مِنْ جَانِـبِ الطُّورِ قَبَسْـتَ مَا شِئْـتَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ نُـورِ
مِنْ كُـلِّ زَهْـرَاءَ لَمْ تُرْفَـعْ ذُؤَابَتُـهَا لَيْـلًا لِسَـارِ وَلَمْ تُشْبَـبْ لِمَـقْرُورِ
فَيْضِـيَّةُ القَـدْحِ مِنْ نُـورِ النُبُـوَّةِ أَو نُـورِ الهِـدَايَةِ تَجْلُـو ظُلْمَةَ الـزُّورِ [2]

لقد صوّر الشاعر ممدُوحه بالنَّقي التَقي لأنه "يُغذي نار الهُدى بالتّوهج من أجل هداية البشر إلى دين التوحّد" [3] ، وهذا الإيمان لا يأتي اعتباطا وإنما جاء نتيجة عبـادة وصلاة وصيام ، وبهذا يحاول الشاعر نقل صورة الممدوح إلى صورة النبي موسى عليه السلام جامع لوازم تلك الصورة (نار الهدى ، الجبل، القبس، نور النبوة، نور الهداية) فكل هذه المعاني القرآنية قد رُددت في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى:
﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[4]. فاقتباس الممدوح من جبل الفتح نار الهداية التي لم تُوقد ليهتدي بها الساري ليلا، وإنما هي نور النبوة والهداية التي تُبدّد ظلمة الانحراف والزّور الّذي كان مدفونًا تحت رماد الكفر، حتى مجيء المهدي بن تومرت والممدوح خليفته فأضاء ما حوْله.

---

[1]– هو أبو عبد الله بن غالب الرصافي، وُلد عام 536هـ ، بلنسي الأصل ، سكن غرناطة مدة ، كان فحلا من فحول الشعراء ، و رئيسا في الأدباء ، رقيق الغزل ، سلس الطبع ، بارع التشبيهات ، بديع الاستعارات ، نبيل المقاصد و الأغراض ، كاتبا بليغا ، وقورا عفيفا ، عُرف بشعر الحنين لوطنه ، ظل عازبا و لم يتزوج حتى وافته المنية ينظر:ابن الأبار ، المقتضب من كتاب تحفة القادم، ص56.

[2]– ديوان الرصافي البلنسي ، أبي عبد الله محمد بن غالب: جمعه و قدم له إحسان عباس ، دار الشروق، بيروت – لبنان– ط2، 1403هـ/ 1983م، ص87.

[3]– خالد شكر محمود صالح الفراجي : شعر الرصافي الرفاء البلنسي" دراسة موضوعية فنية" ، رسالة من متطلبات الحصول على درجة الماجستير آداب في اللغة ، جامعة ابن رشد ، العراق ، 2003م، ص 38.

[4]– سورة القصص : الآية 29.

وكان الخليفة عبد المؤمن لا يتو رّع عن نقد الشعراء أمام الحاضرين ، فكان يستحسن قول هذا ويستقبح قول ذاك ، ومن ذلك لما أنشده ابن سيّد الاشبيلي المُلقب باللّص (ت577هـ):

غَمِّضْ عَنِ الشَّمْسِ وَاسْتَقْصِر مَدَى زُحَلِ وَانْظُرْ إِلَى الجَبَلِ الرَّاسِي عَلَى جَبَـلِ

أَنِّي اسْـتَقَرَّ بِهِ أَنِّي اسْتَـقَلَّ بِـهِ أَنِّي أَرَى شَخْصَـهُ العَالِي فَلَم يَزَل

فقال له عبد المؤمن : لقد أثقلتنا يا رجل ، فأمَره بالجُلوس[1] .

وكان أمر إجلاس الشاعر تنبيها لِباقي الشعراء ، وتحذيرا لهم حتى لا ينهجوا في قصائدهم نهج ابن سيّد ، لأن المناسبة تقتضي من الشعراء وصف جَبَل الفتح بأوصاف الشجاعة والبأس والإقدام على الجهاد، وليس تشبيهه بالركن الثابت .

وروى صاحب المعجب ، أن الشاعر الأصم المرواني ، مدحه بمناسبة بيعة أهل الأندلس له بقصيده يعارض فيها بائية أبي تمام فقال :

مَا لِلْعِـدَا جُـنَّةٌ* أَوْقَى مِنَ الهَـرَبِ .....

فقال عبد المؤمن رافعا صوته : إلى أين ...إلى أين ؟

فقال الشاعر :..... وَأَيْـنَ المَفَرُّ وَ خَيْـلُ اللهِ فِي الطَّـلَبِ

وَأَيْنَ يَذْهَـبُ مَنْ فِي رَأْسِـهِ شَامِـقَةٍ وَقَدْ رَمَـتْهُ سَمَـاءُ اللهِ بِالـشُّـهُبِ

حَدِّثْ عَنِ الرُّومِ فِي أَقْطَـارِ أَنْدَلُـسٍ وَالبَحْـرُ قَدْ مَلَأَ العِبْرِيـنِ بِالـعَـرَبِ

فلما أتم قال عبد المؤمن : بمثل هذا يمدح الخلفاء [2].

---

[1]– عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 159.

* الجُنَّةُ : السُّترة أو كل ما وقى من سلاح و غيره.

[2]– أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي : زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر، اعتنى بنشره و تهذيبـه و التعليق عليه عبد القادر محداد ، لبنان ، دط ، 1939م، ص64.

وكان من جُلَّاس هذا المنتدى الأدبي الشاعر محمد التيفاشي حيث حضّر قصيدة استأذن عبد المؤمن لإنشادها فأذن له ، فقال:

مَا هَزَّ عِطْفَيْـــهِ بَيْنَ البِيــضِ وَالأَسَـــلِ مِثْلَ الخَلِيـفَةِ عَبْدُ المُؤْمِــنِ بْنُ عَلِـي [1]

بعد سماعه أشار عبد المؤمن على الشاعر بعدم مواصلة إنشاد بقية القصيدة والاقتصار على مطلعها هذا، لأنه جمع فيه كل شيء، فقد مدحه بالشجاعة والتفوّق في الوغَى المرتفعة بين السّيوف اللامعة ، وفوق هذا فقد دعاه بالخليفة وهي الأُمنية الّتي طالما تمناها ملوك الإسلام، فيعدوها الشرف الصّميم والفخر العظيم أن يُنعتوا بالخلفاء.

وكانت مجالس الأدب في المغرب والأندلس ميدانا لامتحان سرعة البديهة وحضور القول والقدرة على الارتجال ، والإحاطة بالمعاني ، وانتقاء الألفاظ ، فقد دخل يوما ابن حمّاد صاحب بجاية لمجلس عبد المؤمن بن علي، وفي يده قفص من حديد بداخله شبل أسد صغير وقدّمه للخليفة هدِية ، فأمر بحَل الشبل من عُقاله ومشى الشبل بين الناس حتى وصل إلى الخليفة فربض بين يديه، وسكن في موضعه لا يتحرك فعجب الناس من ذلك ، وكان قد سبق في ذلك المجلس زُرْزُورًا تكلّم بكلام حسن فارتجل أبو علي الأشيري(ت569هـ)[2] أبياتا من الشعر في صفة الحال بالمجلس فقال:

أَنِـــسَ الشِّبْلُ ابْتِهَاجًـــا بِالأَسَـــدِ وَرَأَى شِبْـــــهَ أَبِـيــهِ فَقَصَـــــدْ

وَدَعَـــا الـطَّائِـرُ بِالنَّصْـرِ لَكُـمْ فَقَضَـــــى حَقَّـكُـــمْ لَمَّـــــا وَفَـــــدْ

[1]– العماد الأصفهاني : خريدة القصر و جريدة العصر ، ج1، ص 128.

[2]– هو حسن بن عبد الله بن حسـن الكاتب ، يُعرف بالأشـيري ، و يُكنّى أبا علي ، من أهل تلمســان، كان عارفا بالقراءات و اللغة ، و يغلب عليه الأدب ، ناظما ناثرا ، له مجموع من غريب الموطأ بخط يده . ينظر: التجيبي ، زاد المسافر، ص 71.

أَنْطَـــقَ الخَالِـــقُ مَخْـــلُوقَاتِـــــهِ بِالشَّاهِـــدَةِ فَكُـــلٌّ قَـــــدْ شَهِـــدْ
أَنَّـــكَ القَاسِـــــمُ بِالأَمْـــرِ لَـــــهُ بَعْـدَمَا طَـــالَ عَلَى الـــنَّاسِ الأَمَـــدْ [1]

لقد صوّر الشاعر ردّة فعل الأسد عندما أمره عبد المؤمن بالجلوس فاستجـــاب لأمـره ، ثم وصف طائر الزّرزور الذي أنِس بالخليفة، فنطق بالنصر والتّمكين لأميـر المؤمنين، وهذا يدل على صلاح حالِه ، فهو من تولّى تسيير أمور رعيته.

2- مجالس أدبية عامة:

وهي المجالس التي تُعقد بين الأدباء في أماكن عامة ، ومنها ما يُقام في أماكن العمل ، فلقد كان الرصافي البلنسي (ت 572) يعمل في سوق مالقة ، و بِحُكم مِهنته كان يجتمع في دُكّانه الشعراء والكُتاب فيستمعون منه ، ويأخذون عنه، وممن كانـوا يترددون على دُكانه أبو عبد الله بن الحجازي ، وأبو عمرو بن سالم ، وابن الفخار المالقي ، وأبو علي بن كسرى ، وبينما كان هذا الأخير عنده خَطر بِباله أن يكتب أبياتًا من الشعر في لوْحٍ وعَرضها على الرصافي ، ولم يَذكر قائلها ، فعرف الرصافي الأمر ثم أخذ القلم من يده ، وكتب على البديهة:

اجْـــعَـــلْ العِلْـــــــمَ أَوّلًا وَاجْـــعَلْ الشِّـــــعْرَ آخِـــــرًا
فَـــإِذَا مَـــا جَـــــعَلْـــتَ ذَا كُنْـــتَ لَا شَـــكَ شَاعِـــــرًا [2]

ومن المجالس ما كان يعقد في الطبيعة ، حيث يتبارى الشعراء بقصـائدهم و يُنشدون الشعر على البديهة نظرا لنضج وعيهم بأدبهم ، فقد رَوى الشاعر أبو بحر بن صفوان عن محاورة شعرية دارت بينه وبين الوزير أبي محمد بن حامد في يوم جميل

[1]- لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، عنِي بتصحيحه البشير الفورتي ، مطبعة التقدم الإسلامية ، تونس ، ط1، دت ، ص 113.
[2]- ديوانه ، ص 79.

و قد اتخذا من الطبيعة موضوعا لمجلسهما فراحا يتباريا بمنظر شجرة تهز الريح ثمرها فقال أبو محمد ارتجالا:

وَسَرْحَـــةٍ كَالـــلِّـــوَاءِ تَهْفُـــــــــو بِعِطْفِـــهَا هَـــــبَّةُ الرِّيَـــــاحِ
فَقُلْـــتُ :كَـــأَنَّ أَعْطَافَـــهَا سَقَتْـهَا كَـــفُّ النُّعَامَـــى كُـــؤُوسَ رَاحِ
فَقَـــالَ : إِذَا انْثَنَـــهَا النَّسِيمُ هَـــزَّتْ أَعْطَافَـــهَا هَـــــزَّةَ السَّمَـــــاحِ
فَقُلْـــتُ: كَـــأَنَّ أَغْصَانَـــهَا كِـــرَامٌ تُقَابِـــلُ الضَّيْـــــفَ بِارْتِيَـــاحِ[1]

تدل هذه المحاورة الشعرية على مقدرة الشاعرين على الارتجال وبراعتهما في الوصف ، فقد شبّها اهتزاز أوراق الشجرة بشخصٍ يُميله السّكر يمينًا ويسارًا ، أو بمن يقترف ذنبًا ثم يعود ويطلب الصّفح ، وقد جاءت لغة الأبيات سهلة وسريعة تعكس ابتهاج الشاعرين بالمكان، كما نُظمت على نفس حرف الرّوي.

هذا فضلا عن المجالس الأدبية التي كانت تُعقد في بيوت الأدباء والشعراء الّذين فتحوا بيُوتهم لِطَالبي العلم ومُحبي الأدب، وبذلك شاعت هذه المجالس شُيوعًا كبيرًا فكان لها دورٌ بارزٌ في ازدهار الشعر، وإغناء قاموس اللغة العربية بمفردات جديدة كما أنها نمّت روح الإبداع والمثابرة والتحدي لدى الشعراء لنيل قُبول الخلفاء والأمراء.

ثالثا: الحياة اللاهـية

إن الحياة الناعمة الّتي عاشها المجتمع المُوحّدى والثروة المتدفقة ، وشُيوع الترف وتوفر أسبابه ، أدى إلى ظهور حياة اجتماعية تميل إلى الفساد وانغماس المجتمع في الرذيلة ، وارتكاب المعاصى ، وهذا ما نستشفه من خلال تصوير الشعراء لمجالس الشراب والرقص والغناء .

[1]–التجيبي: زاد المسافر و غرة محيا الأدب السافر، ص158.

1- مجالس اللهو و الشراب :

تفنن شعراء العُدوتين في عصر المُوحّدين في وصف مجالس الشراب وليالي الأنس التي كانوا يعقدونها غالبا في الرياض والبساتين ، وعلى ضـــفاف الأنـــهار والوديان، فعلى الرغم من حَمْلة خلفاء المُوحّدين على الخمر حيث عدّوها "مفتاح الشـــرور ورأس الكبائر والفجور"[1]، وتشديدهم في مطاردة شاربيها وإصدار الأوامر بِكَسر دنانها وإراقتها وإغلاق الحوانيت التي كانت تباع فيها ، فإن ما وصلنا من أدب يشير إلى احتدام موجة من اللهو والمجون ، كما يشير إلى رواج شعر الخمر في هذا العصر .

كان الشعراء يقصدون مجالس الشراب يحثون كؤوس ال خمر، ويستمعون إلى الطرب والغناء وقد تفننوا في وصف تلك المجالس ، فتحدثوا عن الندماء ، ووصفوا الكـــؤوس والسقاة ، وصَوروا ما كان يتخلل هذه المجالس من لهو ومُجون ، فمن ذلك قول ابن سعيد المغربي (ت685هـ)[2] يصف مجلسا جمعَه ورِفاقه مِمّن يعرفون بالمُ ـروءة والسّم ـاح ويشربون كُؤوس الرّاح ، فيقول :

قُـــمْ هَاتِـــهَا لَاحَ الصَّـــــبَاحْ مَـــا العَيْـــشُ إِلَّا الاصْطِبَـــــاحْ
مَـــــعَ فِتْيَـــةٍ مَـــا دَأْبـــهُـــمْ إِلَّا المُـــــــرُوءَةُ وَالسَّمَـــــــاحْ

فالشاعر يطلب من ساقيه أن يسقيه الخمر قبل أن يتبدد الشمل، وينصرف الجَمع ويخرج الصباح.

---

[1]- أبو محمد حسن بن علي بن عبد الملك الكتاني الشهير بابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبـار الزمان ، درسه و قدّم له و حقّق له محمد علي المكي ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان، ط1 ، 1990م ، ص 197.

[2]- هو أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد ، من أئمة الأدب ومن المُؤرخين والمُصنفين ، شاعر و رحالة ، عجيب الشأن في التجول في الأقطار و مداخلة الأعيان للتمتع بالخزائن العلمية ، و تقييد الفوائد المشرقية و المغربية ، خلّف العديد من المؤلفات منها: " المرقصات و المطربات" ،"المقتطف من أزاهر الطرف"، "المغرب في حلى المغرب " ينظر: عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص 270. ابن سعيد المغربي : الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، ص 131-134.

ويصف ابن زهر الاشبيلي (ت557هـ)أصحابه بعد ليلة أنس ، وقد انتهوا من شربهم فغلبهم النعاس ، وناموا وقد جعلوا أكفهم مُتكأ لخدودهم ، فيقول :

وَمُوَسِّـدِينَ عَلَى الأَكُـفِّ خُـــدُودَهُمْ قَدْ غَالَبَـهُمْ نَـــوْمُ الصَّبَاحِ وَغَالَنِي
مَازِلْـتُ أَسْقِيهِمْ وَأَشْـرَب فَضْلَـــهُمْ حَتَّى سَـكِرْتُ وَنَالَـــهُمْ مَـا نَالَـــنِي
وَالخَمْــرُ تَعْلَــمُ كَيْــفَ تَأْخُذُ ثَـأْرَهَا إِنِّـــي أَمَلْـتُ إِنَـاءَهَا فَأَمَـالَنِـــي[1]

وكانت الخمر حاضرة في مجالس الأمير أبي الربيع سليمان المُوحّدي (ت604هـ)[2] ولم يكن شعره بمنأى عن رصد بعضها، مُجاهرًا وداعيًا إليها مع أصدقائــه خاصة أبو عبد الله ابن عبد ربه كاتبه الخاص، حيث يقول:

لِلـــه يَـوْمٌ قَـــدْ تَكَامَـــلَ أُنْسُـــهُ أَبْـــدَتْ لَنَـا وَجْــهُ المَسَـرَّةِ كَأْسُـــهُ
خَلَعَـتْ كَمَائِمَـهَا الأَزَاهِـرُ بَهْجَـــةً وَتَلَفَّعَـــتْ بِالدُجْـــنِ فِيـــهِ شَمْسُـــهُ
نِلْنَـا بِهِ كُلَّ المُنَـــى فَلَـذَاكَ مَـــا قَـــدْ ظَـلَّ يَحْسُـدُهُ عَلَيْـــهِ أَمْسُـــهُ
فَاعْكِفْ عَلَى شُرْبِ المَدَامِ فَيَوْمُـــنَا جِسْـــمٌ و لَكِـــنَّ المَـــدَامَ نَفْسُـــهُ [3]

يبدو أن الشاعر في أتمّ السعادة بعد اجتماعه بخِلانه ، وما زاد المجلس بهاءً هو إشراق الشمس وصفاء الجو ، فضلا عن الأزهار الجميلة والخُضرة الباهية التي لوّنت المكان، ولم يكن لهذا الفرح والسرور أن يكون لَوْلا حُضور الخمر الّتي جعلت يَوْمه مُمَيّزا.

[1]– المقري : نفح الطيب ، ج2 ، ص 305.

[2]– هو الأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الكومي الموحدي صاحب السيف والقلم ، وُلد ببجاية زهاء سنة 552هـ ، تلقى تعليمه على يد جُلة من شيوخها ، نشأ في بيت الريّاسة والملك و لم يمنعه ذلك من الاشتغال بالأدب والانكباب على التحصيل ، كان من الكتاب البلغاء والشعراء المُجددين فصيح اللسان باللغتين العربية والبربرية ، له ديوان شعر جمعه كاتبه محمد بن عبد ربّه المالقي ، ينظر : عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ج1، ص 168.

[3]– ديوان أبو الربيع سليمان المُوحّد : تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، سعيد أعراب ، محمد بن العباس القباح محمد بن تاويت التطواني ، منشورات كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس ، المغرب ، دط ، دت ، ص 139.

ولابن سهل الأندلسي (ت 649هـ)[1] قصيدة تضمنت الحديث عن ليلة من ليالي الأنس والشراب يقول فيها:

رُعْ بِجَيْـــشِ اللَّـــذَاتِ سِرْبَ الشجُـون وَخُـــذِ الكَـــأْسَ رَايَـــة بِاليَمِيـــــنِ
طَلَعَـــتْ أَنْجُـــمُ الكُـــؤُوسِ سُعُـــودًا مُنْـــذُ قَابَلْـــنَ أَنْجُـــمَ اليَاسَمِيـــنِ
وَظِـــلَالُ القُضْـــبِ اللِّطَافِ عَلَى النَّـــرْ جِـــسِ تَحْكِـي مُرَاوِدًا فِـي عُيُـونِ
آنَسَانِـــي وَ كَفْكَـــفَا دَمْـــعَ عُيُونِـــي بِسُـــلَافٍ كَدَمْعـــةِ المَحْـــزُونِ
أَلِفَـــا جَوْهَـــرَ الأَزَاهِـــرَ و القِـــطْ رِ إِلَـى جَوْهَـــرِ الحَيَـــاةِ المَصُـونِ
وَانْظمـــاهَا فِـي لَيْلَـــةِ الأُنْـــسِ عِقْـــدًا مُلْـــكُ كِسْـــرَى لَدَيْـهِ غَيْـرُ ثَمِيـن [2]

في هذه الأبيات تصوير لمدى ولع الشاعر بالخمرة ، وهيامِه بها وسط الطبيعة الغنّاء حيث البساط الأخضر والورود المختلفة الأشكال والأنواع ، وفيها تعبير عن تذوقه للجمال الحسي وانقياده للذائذ ، وعدم مبالاته بكلام لائِميه.

وكتب أبو الوليد ابن الجنان الشاطبي (ت675هـ)[3] رسالة لصديقه يصف فيها مجلس لهو جمعَه بخِلانه فيقول: " نحن في مَجْلِسٍ أَغْصَانُهُ النَّدَامَى ، وغَمَامه الصَّهْبَاء فبالله إلا ما كنت لرَوْضِ مَجْلِسنَا نَسِيمًا ، وللجِسْمُ رُوحًا ، وللطِّي ـبِ رِيحًا ، وبيْنَنَا عَذْرَاء زُجاجتها خِدْرِها ، وحَبَابِها ثَغْرها ، بَلْ شَقِيقة حَوَتْها كمَامَة ، أو شَمْس حَجَبَتْهَا غَمَامَة إذا طَافَ بِهَا مِعْصَم السَّاقِي فَوَرْدَة عَلَى غُصْنِها ، أَوْ شربِها مُقَهْقَهَة فَحَمَامَة عَلَى فَنَنِها طَافَت علَيْهَا طَوَفَان القَمَر عَلَى مَنَازِل الحلُول ، فأنْتَ وحَيَاتُك إكْلِيلًا وقَدْ آنَ حُلُولهَا فِي

[1]– هو إبراهيم بن سهل الأندلسي ، ولد في اشبيلية سنة 605هـ ، من أسرة ذات أصول يهودية ، برز نجمه في سماء الأدب حتى سُمي بشاعر الأندلس ووشاحها . ينظر: ابن سرعيد ، المغرب في حلى المغرب، ج1 ص269.

[2]– ينظر : ديوانهـ ، تحقيق يسرى عبد الغنى عبد الله ، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان – ط3، 1424هـ 2003م ، ص 77.

[3]– هو محمد بن سعيد بن هشام بن الجنان أبو الوليد الشاطبي ، وُلد سنة 615هـ بشاطبة ، كان أديبا فاضـــلا و شاعرا مُحسنا ، رفيع الأخلاق كريم الشمائل ، يخالط الأكابر و فيه حسن عشرة و مزاح ، توف ـي بدمـــشق عام 675هـ . ينظر: ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج2، ص 383.

الإِكْلِيل" [1] ، يصف الأديب الخمر بأنها تُجلى كما تُجلى العروس ، وبأنها عذراء تتخذ من زجاجتها خدرا ، وقد استمد بعض أوصافه من الطبيعة ، فشّبهها بالشمس التي حجبت نورها غمامة ، وإذا حملها الساقي بدت في يدِه كوردة على غصن.

وعُني شعراء المُوحّدين بوصف آنية الخمر، فذكروا أنواعها ، وألوانها وأشكالها ومِن هذه الأنواع التي ذُكرت: الكأس ، والإبريق ، وقد ورد ذِكر الكؤوس عند ابن هشام القرطبي(ت606هـ) حيث شبّهها بالقناديل الّتي تجْذب الفَراش إليها ثم ترمِيه قتيلا فيقول:

أَمْسَى الفَرَاشُ يَطُوفُ حَوْلَ كُؤُوسِنَا إِذْ خَالَهَا تَحْتَ الدُّجَى قِنْدِيلَا
مَا زَالَ يَخْفُقُ حَوْلَهَا بِجَنَاحِهِ حَتى رَمَتْهُ عَلَى الفرَاشِ قَتِيلَا[2]

ويعقد أبو الربيع بن سالم مقارنة بين الإبريق والكأس، فيتخيل الإبريق عاشقًا والكأس حبيبًا له يغازله، يقول :

كَأَنَّمَا إِبْرِيقُنَا عَاشِقٌ كُلٌّ عَنِ الخَطْوِ فَمَا أَعْمَلَهْ
غَازَلَ مِنْ كَأْسٍ حَبِيبًا لَهُ فَكُلَّمَا قَبَّلَهُ أَخْجَلَهْ[3]

إن ما ذكره الشعر المُوحّدي من وصف لآنية الشراب ، يدل على ما وصل إليه المُوحّدون من براعة وتفوّق في صناعة أنواع كثيرة من الأواني، حفظ لنا الشعر وصفًا لبعضها، وقد كانت لها صلة وثيقة بمجالس الشراب بما تبعثه من بهجة وسرور.

واقترن وصف سُقاة الخمر بوصف مجالس الشراب، فالشاعر إذا ذكر مجلس الشراب، ذكر الساقي والغلام وصفاته وجماله ولِباسه ودَلالَهُ، فالخمر وحدها تُذهب بالألباب وتضيع عقولهم، فكيف إذا ما اقتُرنت بالغلمان المِلاح والفِتيان الحِسان.

---

[1]– المقري : نفح الطيب ، ج2، ص 123.

[2]– ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى: اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، اختصره محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق إبراهيم الأبياري ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأمريكية، القاهرة – مصر– دط ،1959م، ص147.

[3]–التجيبي: زاد المسافر، ص 160.

وتأتي أهمية السّاقي من كثرة ما دار حوله من كلام وأوصاف على ألسنة الشعراء لأنه أكثر الجميع حَركةً ونشاطًا ، حيث لا يتوقف عن العمل طيلة الجلسة، وعليه تتوقف مُتعة الشّاربين وسعادتهم ، وقد يكون السّاقي من الغلمان ، كما يمكن أن يكون من الجواري أو القيان.

فالساقي عند ابن مسعود الجياني حُلو الأوصاف ، رخيم الصوت، كثير الوَسامة ساحر الألفاظ ، يُسكر الندماء ، لا يتأخر عنهم في شيء ، ولا يعصي لهم أمرًا، فيقول:

يُدِيرُهَا شَادِن رَخِيمْ يَصْبُو إِلَى حُسْنِهِ الجَمِيعْ
إِذَا أَتَى بِالصُّدُودِ ذَنْبًا فَالحُسْنُ فِي وَجْهِهِ شَفِيعْ[1]

أما ابن سعيد فللساقي عندهمتبذل ، لا يمنع نُدَماءه أن ينالوا منه ما يَشْتهون من العناق ، يقول في ذلك:

سَاقِيهِمُ مُتَبَذِّلٌ لَا يَمْنَعُ المَاءَ القِرَاحْ
كُلٌّ يَمُدُّ يَمِينَهُ مَا فِي الَّذِي يَأْتِي جُنَاحْ
هَبُّوا عَلَيْهِ كُلَّمَا هَبَّتْ عَلَى الرَّوْضِ الرِّيَاحْ
طَوْعُ الأَمَانِي كُلُّ مَا يَأْتِي بِهِ فَهُوَ اقْتِرَاحْ
عَانَقْتُهُ حَتَّى تَرَكْـ ـتُ بِخَصْرِهِ أَثَرَ الوِشَاحْ[2]

لقد كان الساقي محطّ أنظار ابن سعيد ، حيث كان يُلاطفه و يُغازله ، وهو في هذا المجلس مبعث فرح وسعادة من خلال مظهره ومِشيته وطريقة تقديمه للشراب يميل بين الأيادي مثل الغصن الّذي تُميله الرياح ، يُحقّق لهم ما يتمَنّونَه ، ويأتيهم بكل

[1]– ابن الأبار القضاعي : تحفة القادم ، ص 120.
[2]– المقري : نفح الطيب ، ج4، ص 560.

خمر ذي طعم جديد ، ومن شدّة معانقة الشاعر له حتى ترك على خَصْرِه أثـرا كأنـــه أثر الوِشاح.

ويُكثر الشعراء من وصف ما كان يجرى في تلك المجالس من تهتك ومُج ـــــون وقد وصل الأمر ببعض الشعراء ممن كانوا يعيشون حياة ماجنة عابثة ، ويدعُون إلى ارتكاب المعاصي ، وإلى المجاهرة بالزندقة والفاحشة، إلى وصف الإسلام بدِين الرِّعاع والاستهزاء بشهر رمضان ،على نحو ما يبدو من قول أبي جعفر ابن طلحة(ت631هـ):

يَقُولُ أَخُـو الفُضُـولِ وَقَـدْ رَآنَـــا عَلَـى الإِيمَـــانِ يَغْلِبُـنَـا المُجُـــونُ
أَتَنْتَهِكُـونَ شَهْـــرَ الصِّيَـــامِ هَـلَّا حَمَـــاهُمِنْـكُـــمُ عَقْـــلٌ وَدِيـــنُ
فَقُلْـتُ أَصْحَبُ سِـوَانَا نَحْنُ قَـــوْمٌ زَنَادِقَـــةٌ مَـذَاهِبُنَـــا فُـــنُـــونُ
نَدِينُ بِكُـلِّ دِينٍ غَيْـرَ دِيـنِ الـرِّ عَـــاعِ فَمَـــا بِـــهِ أَبَـدًا نَدِيـــنُ[1]

فالشاعر يُصرّح بُمجونه وفُجوره دون زاجر أو رادعٍ، فهو ينتهك شهر رمضان دون أن يُراعى في ذلك غضب الله عزّ وجل وسخطه، أو نَظْرة المجتمع المُسلم الّذي ينتمي إليه، ناعتًا نفسه بالزنديق الذي يتَّبع أي شِرعة أو مِلّة من غير دين الإسلام الّذي سماه بدين الرِّعاع ، وهو في اختياره هذا لا يُجبِر أحدا على إتباعه أو لَوْمِه لأنه حرٌّ في انتمائه.

ويحذو ابن العوام الاشبيلي[2] حذو الزنادقة ، فنجده يُجاهر بترك الصـــــلاة والعكوف على الخمر، إذ يقول :

[1]–المقري: نفح الطيب، ج3، ص309.

[2]– "و بلاه الله بحُب المدام ،حتى خرج سكران في شهر الصيام، فكادت العامة تبيح دمه ، و رموه بالحـــجارة و طردوه من حارة إلى حارة...و لا أحصي كم لقيته في طريق دير الروم و هو مطوي على حمار أو بغل، يُحمل كما يُحمل الزبل ،لا يعقل سكرا ،و لا يبالي حمل ذما أو شكرا.ينظر: ابن سعيد :اختصار القدح المعلى، ص179.

إِذَا سَمِـــعْتَ حَـــيَّ عَلَى الفَـــلَاحِ فَقُـــمْ فِـــي نَحْـــوِ رَيْحَـــــانٍ وَرَاح
وَصَـــلِّ إِلَى وُجُـــــوهٍ مِـنْ جَمَـــالِ كَسَـــاهَا الحُسْـــنُ أَرْدِيَـةَ الصَّبَـــاح[1]

إن هذا التيار الماجن الّذي انتشر في وسط المجتمع المُوحّدى ، لم يكن إلا انعكاسا للحرية الاجتماعية ا لتّي سيطرت على المجتمع آنذاك ، فأكثر الشعراء من المُجاهرة بالزندقة ،والدعوة إلى الفساد والتحلل الأخلاقي في مجتمع إسلامي حرص حُكّامه الأوائل من المُوحّدين ،على الالتزام بتعاليم الدّين بإقامة حدوده واجتناب نواهيه .

2- مجالس الرقص و الغناء:

عارض المُوحّدون الغناء ومنعوا الاشتغال به، من باب أنه مُنـــكر يجـــب تغييره ، واعتبروا اهتمام المرابطين به من الأخطاء الّتي ساهمت في انهيار دولتهم نتيجة انغماسهم في اللهو والشهوات، حتى أن ابن تومرت وهو في طريقه إلى بجاية رأى مُطربين فهجم عليهم ، وأخذ منهم آلاتهم وكسرها بزعم أن ذلك يُلهيهم عن دينهم [2]، كما سار أتباعه على خُطاه حيث اتخذ الخليفة يعقوب المنصور ، مع بداية عهده أمرا" بقطع المُلهِين ، والقبض على من شَهِرَ من المُغنين، فثقف من وُجِد منهم بكل مكان فغيّروا هيآتهم وتفرّقوا على الأوطان، وبارت سوق القيان، وزهد كلّ الزهد في هذا الشّأن" [3] ، لقد لاحق المنصور المغنّين، لذلك أمر بتوقيفهم ، كما طارد بعضهم مما أدى إلى ترك أوطانهم ،لأنه اعتبرهم مفسدة على المجتمع لاحترافهم فنون الغِواية.

لكن هذه الإجراءات وغيرها لم تستطع مقاومة حياة التّرف واللّهو الّتي سادت العُدوتين ، إذ سرعان ما تغيّر موقفهم اتجاه فن الموسيقى والغناء ، فأضْحوا أكثر انفتاحا على ترف الحضارة بالأندلس ، وعادت تجارة القيان للظهور من جديد وصارت تُعرض

[1]- ابن سعيد : اختصار القدح المعلى ، ص179.
[2]- ينظر: البيذق ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص 23-24.
[3]- ابن عذارى : البيان المغرب ، ص 275.

على عهدهم جوارٍ بارعات في الألحان الأندلسية، فـانتشرت مجالس الرقص والغنـــاء وتعددت أنواعها وألوانها ، حيث ترنّمت فيها الجواري ، وانطلقت أصوات الّذين برعوا في ميدان الغناء على وقع الآلات الموسيقية وأنغامها .

ويُصور لنا الشعر براعة الرقص ، وتنوع حركاته ، فهذا أبو علي حسن بن الأنصاري (ت 604هـ) ، يصف لنا راقصة ماهرة تُدعى نُزهة فيقول :

" تَخُطُّ " يَخُطُّ الشَّوْقَ فِي القَلْبِ شَخْصَهَا فَفِي كُل مَـا تَأْتِـيهِ حـسنٌ وَ تَحْسِـينُ
وَ لَيْتَ تطِيق " الشِّين" فِي حَالِ نُطْــقِهَا فَمِـنْ أَجْلِ بُعْدِ الشِّينِ بَاعَـدَهَا الشِّــينُ
إِذَا رَقَصَـــتْ أَبْصَـرْتَ كُلَّ بَدِيـــــعَةٍ تَرَى أَلِفًـــا حِينًا وَ حِينًـا هِيَ النُّـونُ
فَيَا نُـــزْهَةَ الأَبْصَارِ سُمِّيَـت نُزْهَـــةً لِكَـــيْ يُوَضِّحَ المَعْنَى بَيَـانٌ وَتَبْيِـنُ[1]

عُرفت هذه الفتاة أيضا باسم تخط الشوق من حيث رشاقتها في الرقص ، وقد شبّهها الشاعر بالألف إذا استقامت، وبالنون إذا انثنت تقوّسًا وانحناءً.

وإذا كان الشعراء قد صوّروا براعة الراقصين وذُهول الحاضرين ، فإن الشاعر ابن قزمان كان هو نفسه راقصًا بارعًا ، وقد أدهش الحاضرين في مجلس رقص بحركاته الرائعة بتحْريك أكمامِه بسُرعة خاطفة ، تدل على براعته المُتناهية في الرقص وقد غلبت عليه الخمر ، إذ يقول :

يَأَهْلَ ذَا المَجْلِسِ السَّامِـــي سرَارَتَـــهُ مَا مِلْـتُ لَكِنِّي مَالَـــتْ بِـيَ الـــرَّاحُ
فَإِنْ أَكُنْ مُطْفِئًـــا مِصْبَـــاحَ بَيْـتِكُم فَكُـــلُّ مَنْ قَدْ هَـوَاهُ البَيْـت مِصْبَاحُ[2]

[1]– المقري : نفح الطيب ، ج3، ص 256.

[2]– ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص 264.

ولا يكون الرّقص إلا على أنغام الموسيقى، الّتي تُعتبر من مُكملات مجالس الغناء في العهد المُوحّدي ، وقد أدى ازدهار فن الموسيقى والغناء إلى تعدّد الآلات الموسيقية الّتي تُستخدم في العزف ، وقد ذكر الشقندي (ت629هـ) في رسالة ما نصه " وقد سمعت ما في هذا البلد من أصـناف وأدوات الطـرب كالخيال [1] ، والكريج [2] والعـود والروطة[3] والرباب [4]، والقانون[5] ، والمؤنس ، والكثيرة ، والفنار والزلامي [6] والشقرة والنورة – وهُما مِزماران الواحد غليظ الصوت ، والآخر رقيق – والبوق"[7].

لقد تحدث الشعر عن مجالس ال رقص ، كما تأثر ببراعة الضاربين بالآلات الموسيقية والعازفين ، الّتي كانت ألحانهم مبعث سرور في نفوس الشعراء فعبّروا عن ذلك شعرا ، ومن أشهر الموسيقيين الّذين ضمتهم مجالس الغناء، ابن با جة (ت533هـ)[8] (ت533هـ)[8] في العصر المرابطي الّذي أقام سوق الموسيقى وألحانها [1]، وهو" بالمغرب

---

[1]– اسم آلة موسيقية في مدينة اشبيلية .ينظر: رينهارت دوزي ، تكملة المعاجم العربية ، ترجمة محمد سليم النعيمي دار الرشيد للنشر، العراق ، دط، 1981م ، ج3 ، ص 261.

[2]– الكريج : آلة وترية مُزوّدة بأوتار مشدودة و هي مستديرة الشكل ، تسمى بالإسبانية Carrizo ، ينظر :راوية عبد الحميد شافع، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط غرناطة ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، مصر، ط1، 2006م، ص 77.

[3]– الروطة : اسم آلة موسيقية وترية يعزف عليها في مصاحبة الغناء، تسمى بالإسبانية Rota ، ينظر :المرجع نفسه ، ص77.

[4]– الرباب :آلة مربعة الشكل مسدود عليها جزرة من شعر الخيل ، يعزفون عليها بِقوس ، انظر حسين محفوظ قاموس الموسيقي العربية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد – العراق– دط ، 1977م، ص 98.

[5]– آلة من آلات الطرب ذات أوتار ، يلعب عليها بالأصابع، ينظر: رينهارت دوزي،المرجع السابق ، ج8، ص286.

[6]– الزلامي: تسمى أحيانا المزمار ، وهي مزودة بقصبة صغيرة ينفخ فيها ، ينظر: راوية عبد الحميد شافع، المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط غرناطة، ص 77.

[7]– المقري : نفح الطيب ، ج3، ص 213.

[8]–هو أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ الملقب بابن باجة من أهل سرقسطة ، يعد أبرز الفلاسفة المسلمين ، اهتم بالطب و الرياضيات والفلك والأدب والموسيقى ، من مؤلفاته "مقال في البرهان" ،" رسالة الوداع" ،" تدبير المتوحد" ينظر :آنخل جانثالث بالينيثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تعريب حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة – مصر– دط ، 2008م ، ص 342.

بالمغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق "[2]، كما كان صاحب مدرسة خرجّت موسيقيين بارعين لامعين أمثال أبي الحسن علي بن الحمارة الّذي برع في الألحان وعِلمها ، وهو من أهل غرناطة ، فكان يقطع العود بِيَده ، ثم يصنع منه عودًا للغناء ويُنظم الشعر ويُلحنه ويُغني به فيُطرب سَامعيه[3].

ولعل أوثق علماء أواخر العصر المُوحّدي صِلة بالموسيقى وأكثرهم اهتماما بالغناء تنظيرًا وممارسةً المتصوف أبا الحسن الششتري ، فلقد قَدِم هذا الصوفي الشهير والوشاح الأندلسي إلى المغرب ، فلَقي ابن سبعين فأراد أن يتتلمذ علي يَدِه ، فاشترط عليه شروطًا ، كان من بينها أن يأخذ بنديرا ويدخل السوق ، وبالفعل امتثل الششتري لتعليمات أستاذه وراح يتجول في أسواق المدن المغربية ، وكان خلال تِجواله في الأسواق يُنشد أزجال أستاذه وأزجال أخرى نظمها بنفسه ، مما يدل على تَحْليه هذه الأشعار بالألحان الموسيقية ، ومن ذلك قوله في مطلع أحد أزجاله :

شُوَيْخٌ مِنْ أَرْضِ مَكْنَاسْ وَسَطَ الأَسْوَاق يُغَنِّي
آشْ عْلِيَا أنَا مْن النَّاسْ وَآشْ عْلَى النَّاسْ مَنِّى[4]

ولفتت أدوات العزف انتباه الشعراء، وكان العُود من أعتق الآلات الموسيقية المستعملة في العزف وأهّمها، وقد نظم الصدفي(ت651هـ) شعرا فيه ، حيث يقول:

قَامَت لِعُود تُنَاغِيهِ فَيَتْبَعُهَا فَانْظُر بَدَائِعَ مَا تَأْتِي بِهِ الشَّجَرُ
غَنَّتْ عَلَى غُصْنِهِ الأَطْيَارُ مُفْصِحَةً رَطْبًا عَسَى غَنَّى بِهِ البَشَرُ
فَلَا يَزَالُ عَلَيْهِ أَوْ بِهِ طَرَبٌ يُهِيجُهُ الأَعْجَمَان: الطَّيْرُ وَالوَتَرُ [1]

---

[1]– ينظر: عبد العزيز عبد الجليل ، مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية ، عالم المعرفة، الكويت ، 1978م ، دط ص 31.

[2]– أنور الرفاعي :الإنسان العربي و الحضارة ، دار الفكر، دمشق، ط1، 1970م، ص 350.

[3]– ينظر: المقري: نفح الطيب، ج4، ص 140.

[4]– عبد العزيز عبد الجليل : مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية، ص 41.

يُقارن الشاعر بين حالة العُود وهو فرعٌ أخضرٌ تتغنى عليه الطيور، وحالته بعدما صُنِع من خشب الأشجار وصار بين يدي النّاس، وفي كِلتا الحالتين كان مبعث طرب سواء من الطيور أو من أوتار العُود.

وكان حُسن الغناء ، ورَوعة الأداء عند ابن غالب الرصافي ، مِمّا مَلَكَ عَليه قلبه فانطلق يصف لنا شخصًا امتهن الغناء بأوصاف بديعة و رشيقة، فيقول:

وَمَطَـــارِحٌ مِمَّا تَجُـــــسُّ بَنَانَـــهُ لَحْـــنًا أَفَـاضَ عَلَـــيْهِ مَاءَ وقَـارِهِ
يَثْنِـــي الحَمَـــامَ فَلا يَروحُ لوَكْـرِهِ طَـــربًا ، وِرِزْقُ بَنِيـــهِ فِـي مِنْقَارِهِ[2]

لقد أفاض صوت المُغنّي لحنًا شجـيًّا عمَّ المكان ، مما جعل الحمامة تترك صغارها في الوَكر للاستماع إلى هذه الألحان المُطربة ، على الرغم من حَملها الطعام في منقارها لهؤلاء الصغار.

وحَضر ابن القطاع الصقلي إحدى سهرات الأُنس فأعْجبه صوت مُغنّي، فأنشد قائلا:

إِذَ غَنَّـــى يُزِيـــلُ الهَـــمَّ عَنَّـــا وَيَأْتِيـــنَـــا بِمَـــا نَهْـــوَاهُ مِنْـــهُ
لَهُ وَتَـــرٌ يُطَالِـــبُ كُـلَّ هَـــمٍّ بِوَتَـــرٍ فَالهُـمُـــومُ تَفِـــرُّ عَنْـــهُ [3]

لقد بعث صَوت هَذا المُطرب هدوءً في النّفس، و أزاح الحزن عن الحضور في السهرة بصوته العذب الشّجي، وما زاده تألقًا هو عَزفه على آلة العود ببراعة، كما أنه ذوّاق يُلبي رغبة المُستمِعين للمعزُوفات الّتي يُريدونها، فيُجيد في تأديتها.

رابعا: المرأة في الشعر الموحدى

---

[1]– ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة ، مج5، السفر8، ص 520.

[2]– ديوانه ، ص 89.

[3]– العماد الأصفهاني : خريدة القصر، ج1، ص 59.

تُجمِع الدراسات الأدبية على مكانة المرأة في المجتمع المُوحّدى ، والدّور الّذي نهضت به في حركة ذلك المجتمع ، فقيهة ، وقاضية ، مُعلمة وشاعرة ، هذه الأنماط المختلفة تثبت مشاركة المرأة في جميع مناحي الحياة على المستوى الاجتماعـــــي والثقافي والاقتصادي.

لقد قامت المرأة المُوحّدية بِدورها الأساسي المُتمثل في رعاية الأسرة والإشراف على شؤون البيت وتربية الأبناء ، إلا أنها بجانب ذلك حرصت الكثير من النساء على الحصول على ثقافة عالية في العلوم والآداب، فلم تعُد مُجرد وتر يُلهب عاطفة الرجل فتدعُوه إلى القول، وتَحمِله على الإجادة، و إنما ساهمت في تطور الحركة الأدبية فجارت الشعراء في النظم والإنشاد[1].

وقد كانت الأندلسيات أستاذات اشتهرن بالمعرفة العلمية والأدبية ، حيث كانت حرائر المرية من المُتفوقات في البلاغة ونَظم الشعر والمُوشحات ، يقول ابن حزم الأندلسي في معرض حديثه عن خِبرته بالنساء "...وهن علمنني القرآن ورويننني كثيرًا من الأشـعار ودربْنني في الخط "[2].

فمِن بين الأسماء اللامعة الّتي عُرفت بصفتها العلمية "الأميرة زينب بنت الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الّتي درست علم الأصول، و كانت عالمة صائبة الرأي فاضلة"[3] بالإضافة إلى خيرونة الفاسية (ت594هـ) الّتي كانت تحضر مجلس عثمان السلالجي

[1]– ينظر: عبد العزيز محمد عيسى: الأدب العربي في الأندلس ، مطبعة الاستقامة، مصر، ط1، 1945م ص 211.

[2]– رسائل ابن حزم الأندلسي : تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة– مصر– ط2 1987م ، ج1، ص 166.

[3]– ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة ، مج5، السفر8، ص417.

(ت574هـ) إمام أهل فاس في الأصول، وقد اقترحت عليه تأليف كتاب في مذهب الأشاعرة فألّف العقيدة البرهانية [1].

ومن ضمن نساء الدولة اللّواتي خلدن اسمهن في هذا العصر: الأميرة رُمَيْلة أخت الخليفة عبد المؤمن بن علي ، الّتي كانت تُنظم الزجل [2] وهو نوعٌ من الشعر المنظوم بالعامية المغربية ، ولم تقف عند حدّ النظم والإنشاد ، بل تَعدّته إلى تنظيم أُمسيات يحضرها فُحول قصيدة الملحون ،والحُفاظ وعشاق هذا الفن ، وقد خلّد اسمها في موشحات الشاعر ابن غزلة [3] الذي اشتهر بِحُبه لها ، حيث نظم لها شعرا يقول فيه:

مَنْ يَصِيد صَيْدًا
فَلْيَكُن كَمَا صَيْدِي
صَيْدِي غَزَالَة
مِنْ مَرَاتِع الأُسْدِ[4]

ونلاحظ جُرأة الشاعر الشديدة في تمثل هذا العشق والتغني به في مطلع مُوشحه فهو يزُهو بأنه قد اصطاد غزالة من مراتع الأسود قاصدا أميرة من بيت الخلافة، والّتي عُرفت بالتزمت والتخلّق.

مثلما سعت المرأة لتغذية عقلها بالعلم والثقافة ، اعتنت بأناقتها ولباسها ، واهتمت بالزينة ،حيث شغفت بأنواع الحُلي كالخلخال والقرط والقلادة والسوار، وتفننت في الوشم

[1]– ينظر: جمال البختي، عثمان السلالجي و مذهبيته الأشعرية ، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغرب، ط1 ، 2005م، ص96 .

[2]– ينظر: عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ص 144.

[3]– شاعر مغربي عاش في عصر الموحدين ، قتله الخليفة عبد المؤمن بسبب نظمه لموشحه الذي تغزل فيه بالأميرة رُمَيلة . ينظر: محمد عباسة ، الموشحات و الأزجال في شعر التروبادور، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع ، مستغانم الجزائر، ط1، 1433هـ/ 2012م ، ص 178.

[4]– عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي،ج3، ص 916.

والخِضاب ، ولم تتوقف زينتها عند هذا الحد ، وإنما صنعت وصفات خاصة بالجمال كوصفة تحمير الخدود ، ووصفة تغيير لون العينين من أسود إلى أخضر [1] ، وفي كل هذا إشارة واضحة إلى بلوغ النساء مبلغًا رفيعًا من الحضارة وتمتُّعهن بذوق مُميز، فضلا عن كَوْنِهن شديدات الولع بالزينة الّتي دفعتهن إلى التأنق في سائر الأحوال ، هذا ما جعل المرأة في عصر الدِّراسة تتسم بالتميُّز لذلك كانت مَحل اهتمام الرجال عامـــة والشعراء خاصة، الّذين وصفوها وتغزلوا بجمالها، وعبّروا عن مشاعرهم وأهوائهم حِيالها.

1- الصورة الجمالية للمرأة الموحدية :

من الطبيعي أن نجد في عصر المُوحّدين شعرًا يتغزل بالمرأة ، ويتغنى بمحاسنها ويُعبّر عن التّعلُّق بها ، ويُصوّر مشاعر الحُب نح وها، وقد وُجِد هذا الشعر في دواوين الشعراء ، سواء أكان يُترجم عن تجربة حب حقيقية عاشها الشاعر ، أم كان نوعًا من التعبير عن الافتتان بالجمال في وقت من الأوقات، وكان لامتزاج الأجناس واختلاط الأعراق في العدوتين ، سببًا في ار تقاء الذوق الجمالي الّذي ظهر في م حاسن المرأة الموحدية ، فتردّد صداها في الأدب .

ولعل أظهر سمة جمالية تغني بها الشعراء بياض الوجه ونُعومته، ويتضح هذا من نَعتهم لوُجوه محبوباتهم ، فقد وصفوها بالبياض، وشبّهوها بالشمس تارة ، وبالكوكب تارة أخرى وبالبدر حينًا، يقول أبو الربيع سليمان المُوحّدي:

[1]- ينظر: أبو عبد الله محمد السقطي ، آداب الحسبة ، تحقيق ليفي بروفنسال و كولان ، مطبعة إرنســـت لورو باريس ، دط ، 1931م، ص 50.

وَعَلَّقْتُـــهُ كَالبَـــدْرِ عِنْدَ تَمَامِـــــهِ وَكَالغُصْـــنِ فِـي أَعْطَافِـــهِ وَقَوَامِـــــهِ
وَقَدْ غَرَسَـــتْ كَـفَّ الجَمَـــالِ بِخَـدِّهِ رِيَاضًـــا سَقَاهُ الحُسْـنُ صَـوْبَ غَمَامِـهِ
غَزَالٌ رَخِيـــمٌ طَعْـمَ ذَا الهَـــوَى فَيَا شَـــدَّ مَا أَلْقَـــاهُ عِنْـــدَ كَلَامِـــــهِ [1]

في هذه الأبيات يُشبّه الشاعر وَجْه مَحبوبته ببدر التمام ، فهو يُضيء الدُّجـــى ويفُوق حُسن قدّها الغُصن في لِينه وانثنائه ، وهذه استعارة تصريحية حُذف فيها المُشبه ورُمز له بإحدى لوازمه و هي"الغرس" ، أما خدها فهو آية أخرى من مشاهد الجمال فهو رياض تُسقى من غمام ناظريها ، وهي استعارة تصريحية أخرى حذف فيها المشـبه ورُمز إليه بأحد لوازمه وهي "الغرس" كذلك.

ومن الشعراء من شبّه الورد بالخدود مبالغة في جمالها، كما فعل أبو بكر المعافري (ت590هـ) إذ يقول:

بِمَاذَا عَسَى أَنْ يمْـــدَح الـوَرْد مَـــادِح أَلَيْسَ الَّذِي أَضْحَى مبـــرًا عَلَى الزَّهْـــرِ
حَكَـــى لِى فِي أَوْرَاقِـــهِ وَغُصُونِـــــهِ خُدُودُ الغَوَانِـــي تَحْـــتَ أَمْتِعَـة خُضْـرِ [2]

استخدم الشاعر التشبيه المقلوب أي المعكوس ليُثْبت الحُسن للخدود، فالورد المُحاط بالأوراق الخضراء يفوق جميع أنواع الزهر في جماله وبهائه، وهو بذلك يُشبه خدود النساء الّتي تظهر من الخمار الأخضر الّذي كانت تحتشم به المرأة في تلك الفترة من زمن المُوحّدين.

وإذا ما تجاوزنا هذه السِّمات الجمالية إلى غيرها ، فإن الشعراء ظلوا يستمدون أوصافهم للمرأة من معجم اللغة الغزلية الّتي لطالما تداولها الشعراء الجاهليون على

[1]– ديوانه، ص 103.

[2]– ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ، ج2، ص182.

شاكلة أبي الربيع المُوحّدي الذي يصف جمال محبُوبته ، فيتحدث عن نظرتــها وأثرها في من يُحبها ، وثغرها ، وقدّها ، ودقة خصرها ، فيقول:

يُرْسِلُ اللَّحْظَــةَ سَهْمًــا نَافِــذًا وَإِذَا اسْتَــاءَ فَسَيْــفًــا مُرْهَفَــا
حَبَبِــيَّ الثَّغْــرِ مَعْسُــولَ اللَّمَــى مَائِــسَ القَــدِّ رَطِيــبًا أَهْيَفَــا
حَمْلَ الأَرْدَافِ خَصْــرًا ضَامِــرًا وَاهِــيَ الكَشْــحِ هَضِيمًــا مُخْطَــفَا
إِنْ حَفَّــتْ رِيحُ النُّعَــاسِ سُحْرَةً وَهَفَــا مِنْ فَوْقِــهِ المِــرْطُ هَفَــا [1]

فالشاعر لم يخرج في وصفه عن دائرة الشعراء الحِسيين في التراث العربي، فهو يبدأ أبياته بالتّغزل بعُيون حبيبته مُشبّها تأثير نظرتها بالسهام والسيوف في قُوتها ، ثم ينعت ثغرها العذب الجميل الّذي انتظمت أسنانه وابيضت ، كما لا يفُــوته أن يتغــزل بقدّها اللطيف وبخصرها الضّعيف الّذي يحمِل الأرداف ، فهو يرسم لها صورة مُفصلة من دون فَحش في القول ، أو كشف ملامح العِفة فيها ، وهو في أوصافه و تشبيهاته يدور في فلك الشعراء القدماء ، وينهل من مَنبعهم .

ومِن الصور الموروثة في استلهام المرأة لدى الشـعراء، أن يـقفوا على الأطــلال ويبكوا الديار، جَريًا على عادة الشعراء التي صارت تقليدا مُتبعا من العصر الجاهلي عصورا متأخرة.

وقد تفاوتت الآراء في هذا التقليد وتباينت ، فهناك من يرى أن الطلل رمز لليأس وذِكر المرأة فيه إنما هو بارقة أمل يتشبّث بها الشاعر ، فالمرأة رمزٌ للأمل [2]، في حين يرى بعضهم أن الطّلل رمزٌ للفناء الّذي كان هاجس الإنسان الأول ولا يزال ، وإن كان الطّلل تجسيم لقُدرة الموت الّتي لا تظ هر ، فالمرأة الّتي يُردد ذكرها في المقدمات الطّللية

[1]– ديوانه ، ص 105.

[2]– ينظر: نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، مكتبة الأقصى ، عمان ط2 ، 1982م، ص 127.

مصدر لخصوبة الحياة واستمرارها [1]، غير أننا لا ننكر أن الوقوف على الطلل هو نوع من التفكير في مشكلات أساسية يُحاور فيها الشاعر نفسه في معنى الحياة ،وأنّ ذِكْر المرأة فيه نوعٌ من الهرب لا ضربٌ من اللّهو [2] .

ومن الشعراء في هذا العصر الّذين وقفوا على الديار ، وساءلوا الأطلال الشاعر ابن الأبار القضاعي الّذي يقول :

طَلَّتْ نَجِيعِي أَطْلَاءٌ وَأَطْلَالٌ بِحَيْثُ يُعْقَدُ إِحْرَامٌ وَ إِحْلَالُ
مَنَازِلٌ كَانَتِ الأَقْمَارُ تَنْزِلُهَا بِالخِيفِ خَفَّتْ بِهِمْ نُوقٌ وَ أَجْمَالُ
أَيَّامَ لَا كَدَرٌ فِي الصَّفْوِ مُعْتَرِضٌ وَلَا لِإِلْفٍ عَلَى الإِعْرَاضِ إِقْبَالُ
وَ لِلعَوَاذِلِ عَنَّانِي تَصَنُّعُهَا كَمَا تُعَنِّي الخُصُورَ الهِيفَ أَكْفَالُ
هَيْهَاتَ أَعْدَلُ فِي بَيْتِ الهَوَى مَعْذِرَةً فَفِيمَ يَكْثُرُ لُوَّامٌ وَعُذَّالُ
كَأَنَّ قَلْبِي الّتِي أَهْوَى تَدَانِيهَا فَدُونَهَا مِنْ سَرَاةِ الحَيِّ أَقْتَالُ
أَدِيرُ طَرْفِي إِلَى دَاراتِهَا كَلِفًا وَمِلْءُ قَلْبِي آمَالٌ وَآجَالُ [3]

يبدأ الشاعر قصيدته بوَقفة طَلَلية على عادة الجاهليين، فيصف بقايا ديار أحِبّته وقد تحولت إلى مَرتع ومَرعى للنوق والجِمال ، فقد أتَت عوامل الفناء على هذه الدّيار ولم يبق منها إلا رسومها الشاخصة ، مُتذكرا ماضيه السعيد وأيام أُنسه وسروره بهذه الديار ، ومحاولة لقاء محبوبته وسط دسائس عُذاله الّذين يعملون سرًّا وعلانيةً لتفرقتِه عنها، ثم يستطرد ليعود إلى حديث الحب ، حيث يُصور نفسه في صورة الحبيب الّذي

[1]– نقلا عن: أحمد النعيمي ، تاريخ الشعر العربي حتي أواخر القرن الثالث الهجري ، دار الكتب المصرية ، القاهـرة – مصر– دط ، 1950م ، ص 109.

[2]– ينظر: مصطفى ناصيف ، دراسة الأدب العربي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط3 ، 1983م ، ص 236– 237.

[3]– أبو عبد الله محمد ابن الأبار القضاعي : الديوان ، تحقيق عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر ، تونس ط2، 1986م، ص 243.

أهلكَه الهَوى وأضنَاه ،فهو لا يكُف عن طلب لِقاء حبيبته الّتي حُرست من قِبل فرسان قَوْمها، فيكتفي بتوجيه نظَرِه نحو منزلها وتمَني اللقاء، غير أن ذلك مستحيل الوقوع.

وبعدها يأخذ في وصف محاسنها و مفاتنها، فيقول:

هِيَ الثُّرَيَّـــا وَعَيُّـــوقٌ يَحُـفُّ بِهَـا غَيْـــرَانَ يَكْفُـــلُ مِنْهَا الظَّبْـيَ رِئْبَـالُ
غَزَالَـــةٌ كُلَّمَـــا أَغْـــرَتْ لَوَاحِظَهَـا آبَـــتْ وَأَفْئِـــدَةُ العُشَّـــاقُ أَنْفَـــالُ
مَعْسُولَـــةُ الرِّيقِ لَمْ أَنْكِرْ وَقَدْ وُصِـفَتْ أَنْ قِيـــلَ فِي قَدِّهَـــا المَيَّـــال عَسَّـالُ
كَأَنَّ أَسْنَـــى اللَّآلِـــي فِـــي تَرَائِبِـــهَا مِـــمَّ تَلَأْلَأَ حُسْنًـــا وَهِـــيَ مِعْطَـالُ
يُقِلُّ مِنْهَا قَضِيـــبُ البَـــانِ مُعْتَـــدِلًا دِعْـــصٌ مِنْ الرِّدْفِ مِنْـــهَارٌ وَمِنْـهَالُ
مَكَثْـتُ فِيهَا عَلَى عَهْدِي وَمَا مَكَثَـــتْ لِلحُـــبِّ حَـــالٌ وَلِلمَحْبُـوبِ أَحْـوَالُ
وَالسَّيْـــفُ وَالرُّمْـــحُ لَا أَرْجُو دِفَاعَـهُمَا إِذَا تَمَـــرَّسَ بِـــي قَلْـــبٌ وَخُلْخَـــالُ [1]

يُشبه الشاعر محبُوبته بالثُريا تارةً وبالغزال تارةً أخرى ، ثم يصف مفاتن جسمها من قدّها القويم، وردفها الممشوق، وريقها المعسول ، ويتحدث عن معاناته من صدِّها على الرغم من بقائِه وفِيًّا لها ، مُحافظًا على عهدها ، وهو في كثير من مقدماته لا ينسى أن يذْكر أدوات القتال الحربية بجانب أدوات الإغراء الجسدية ، وما تتزين به المرأة كالخلخال.

ونلمس في هذه المُقدمة الطّللية دلالات عميقة تتجاوز حدود الوصف الحسي لبقايا الديار المُرتحل عنها، والحبيبة الظاعنة ، ففي الجمع بين الأطلال والمرأة إشارة إلى ما يُذكّر بالجدب والفناء من جهة ، وما يُذكّر بالخصب والنماء من جهة أخرى

[1]– ابن الأبار القضاعي :الديوان ، ص 244.

وما اجتماع هذين الضدين إلا دليلًا على إحساس الشاعر بالتناقض بين عالمه الخارجي وعالمه الباطني[1].

ومع أن الطلل هو تحسّر وبكاء على فقدان المكان، فقد عبّر الشاعر عن تمسّكه بالوطن الّذي غادره مُكْرها، من خلال ذِكره لأماكن مُعيّنة والاستفاضة في وصفها.

وإذا ما أردنا بعد ذلك البحث عن شعر غزلي يتصل بالنواحي الاجتماعية فإنــنا نقِف هنا عند أمرين: زينة المرأة، و تصوير مواقف الوداع.

أ- زينة المرأة:

اهتمت الأنثى المُوحّدية بمظهرها الخارجي ، فاقْتَنت كل ما أُتيح لها من وسائل الزينة ، فتفننت في لَبس المُصبغات و المُذهبات والدِّيباجات [2]، وكانت الحُلي والجواهر من أول اهتمامات المرأة لإبراز جمالها ،ولا سيما السوار المُستخدم لتزيين المعصم ، وقد وصفه أبو الربيع المُوحّدي في شعره بقوله :

لَـمْ تَجِـدْ عَيْنَـــايَ عَنْـــهُ مَصْرِفَـــا أَرْقَـــمُ أَبْصَرْتُـــــهُ مُنْعَـطِفَـــــا

وَغَـدَا يُلِيـــــعُ بَعْـــــضَ بَعْـضِـهِ وَيَعُـــضُّ الجِسْـــمَ مِنْـــــهُ أَسَفَـا

فَـإِذَا جَـــالَ فَـلَا بَـــــأْسَ بِـــــهِ وَحَـــذَارِ مِنْـــــهُ مَهْمَـــا وَقَفَـــا [3]

لقد أبهر هذا السوار الشاعر، فراح يُشَبّهَه بالثعبان الّذي يلتَف بالغصن، ثم شبه شدّة إحكامِه على ذِراع صاحِبَته بِعَضَّة الثعبان عندما ينقَضّ على فريسـته، وموضع التشابه بينهما يكمُن في لسْعِه للجسم، وشدّة إحْكامه على اليَد.

---

[1]- ينظر: إسماعيل عز الدين ، روح العصر ، دار الرائد العربي ، بيروت- لبنان - ط1، 1978م ، ص 20.

[2]- مصطفى الشكعة :الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط3، 1975م ص58.

[3]- ديوانه، ص 124.

ويُطرفنا الشاعر ابن الأبار بلقْطة تصويرية تبدو المرأة فيها أمام مرآتها تتزيّ ـــن وتتجمّل بأصناف الحُلي، فيقول:

تَنَاوَلَـتِ المِـــــرْآةَ وَهِـيَ صَقِيـــلَةٌ تَ ـأَمَّـــلُ وَجْهَـــا دُونَـهُ ذَلِكَ الصَّـــقْلُ
فَلَمَّا تَنَاهَ ـــتْ أَوْدَعَتْـهَا غِشَـاءَهَا وَقَدْ حَدَّثَ القُرْطَـــانِ وَاسْتَمَعَ الحِجْـــلُ
فَشَبَّهْـــتُهَا بِدْرًا عَـــلَاهُ خُسُوفُـــهُ فَأَظْـــلَمَ مِـــنْهُ مَا أَنَـــارَ لَهُ قَبْـــلُ[1]

لقد أعجب ابن الأبار بهذه المرأة الّتي وقفت أمام المرآة تتأمل نفسها، وتستعرض جمالها، وما زادها حُسنا تلك الأ قراط والخلاخل الّتي تزيَّنت بها، ولَما استكملت ذلك أرخت خمارها على وجهها وخرجت من منزلها، وقد شبّهها بالبدر الّذي عَلاه الخسوف فحَجب نُوره.

كما أولت المرأة في هذا العصر اهتماما متزايدا لمادة الكُحل الّذي يُعد من أشهر أشكال الزينة على الإطلاق ، أفضاله جمّة ، وسحره بدأ منذ قديم الزمان، حيث مثّل على مرّ التاريخ العنصر الأساسي لكل امرأة عربية تزيّن عينيها بالكحل حتى تمنحهما سِحرًا وجاذبية ، يقول ابن حميدس:" إنها تضع الكُحل على جفنيها السوداوين فتزيدهما كُحلا على كُحل ، كما يوضع السّم في السّهم وهو قاتل بذاته، فكما تزيد المرأة الجمال لجمالها حتى لا يكاد ينجُو من فِتْنتها رجل ، يزيد المقاتل السّم لسَهْمه حتى لا ينجو من رشقِه أحد"[2].

وقد تغنى به الشعراء كأحد رموز الجمال، كما أبدعوا في وصف شكل العين الكحيلة، يقول أبو الربيع الموحّدي:

[1]– ديوانه، ص 265.

[2]– حنا الفاخوري: تاريخ الأدب في المغرب العربي، دار الجيل، بيروت– لبنان– ط1، 1411هـ/1997م، ص140.

وَيَلْتَقِي الحـزن وَالدَّاجِي فَيُـذَكِّرُنِـــي حسنيـــن مِنْ مُقْلَتِيهِ الكُحْـل وَالكُحـل [1]

هذا البيت يعطينا صورة عن المرأة الّتي تهتم بجمالها، فتضع الكحل في عينيها باعتباره أداة شائعة للزينة ، ووضعها الكحل قد زاد في إظهار جمال عينيها السوداوتين.

كما نَعت الشاعر الخضاب الّذي تُزيّن به المرأة أصابعها فقال:

فَأَوْمَتْ بِرَخْصٍ مِنْ بَنَـانٍ مُخَضَّـــبٍ وَحَطَّـــتْ عَنِ البَـدْرِ المُنِيـرِ نِقَابَهَـا [2]

يُصور الشاعر أصابع محبوبته ويصفها بالطول واللّين ، وما زادها بهاءً الخِضاب الّذي زيّنت به أصابعها ، وقد وضعت نِقابها على وجهها المُنير الّذي شبّهه بالبدر في تمامِه.

ما سبق من أبيات يُؤكد شَغف المرأة المُوحدية بجميع أشكال الزينة من حُلـــي وكُحل وخِضاب، لتزيد من جمالها وتُحسّن من مظهرها ، وبذلك كان الشعراء أكثر وفاءً وتجاوبًا مع حضارة عصرهم ، حيث نجدهم يعكسون هذه المظاهر الحضارية في أشعارهم.

ب- مواقف الوداع:

يُعدّ موقف الوداع من أشد المواقف صعوبة حيث "يفتضح فيها عزيمة كل ما في العزائم ، وتذهب قوّة كل ذي بصيرة ، وتسكب عَين كل ذي جمود" [3]، وقد رسم الشعراء عبر العصور هذه المشاهد بشكل مؤلم ومُؤثر، يبعث في النفس الكآبة والمرارة والحزن وفي عهد المُوحّدين أبدع الشعراء في تصويرهم لهذه المواقـف، فتعرّضوا للأيام

[1]- ديوان أبو الربيع سليمان المُوحّدي، ص67.

[2]- نفسه : ص 49.

[3]- أبي محمد علي أحمد بن سعيد بن حزم (ت456هـ): طوق الحمامة في الألفة و الآلاف ، ضبطه ووضع حواشيه و قدّم له أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط5 ، 2008م، ص87.

الماضية بما حمَلت من ذكريات جميلة ، كما عبّروا عما يختلج النفس من معاناة قاسية يعيشها المُحِب وحيدًا بعيدًا عمّن يُحِب، وعندها يُثبت البكاء وُجوده كظاهرة إنسانية مُحمّلة بالكثير من القلق والتوتر والإحباط ، وفي هذا يقول عبد الحق بن عطية المحاربي (ت546هـ):

أَسْتَوْدِعُ الله مَنْ ودَعْتُهُ، وَ يَدِي عَلَى فُؤَادِي خَوْفًا مِنْ تَصَدُّعِهِ
بَدْرٌ مِنَ الهُودِّ حَازَتْهُ مَغَارِبَه فَالنَّفْسُ قَدْ أَشْخَصَتْ طَرَفًا لِمَطْلَعِهِ
أَتْبَعْتُهُ بَعْدَ تَوْدِيعِي لَهُ نَظَرًا إِنْسَانُهُ غَرِقٌ فِي بَحْرِ أَدْمُعِهِ
مَا أَوْجَعَ البَيْنَ فِي قَلْبِ الكَرِيمِ غَدًا يُفَارِقُ القَلْبَ فِي ثَوْبَيْ مُوَدِّعِهِ
يُذِيبُهُ البَيْنُ تَعْذِيبًا ، وَيَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَطِيرَ شُعَاعًا أَسْرَعَ أَضْلُعِهِ
يَسْطُو بِهِ البَيْنُ مَغْلُوبًا فَلَيْسَ سِوَى تَمَلْمُلٍ فِي فِرَاشٍ مِنْ تَوَجُّعِهِ[1]

يُصور الشاعر ساعة الرّحيل، الّتي تَضعُه وَجهًا لوَجه أمام الحقيقة المُرّة حيث يقف عاجزا عن تغييرها أو حتى عن استيعابها، ليجد الشاعر ظُلم الفراق ومرارته طريقه إلى قلبه الّذي ينفطر من الألم والحسرة، وكان حُضور بكاء الحبيبة ما زاده تعذِيبًا وتوجُّعًا .

وبِكَثير من اللّوعة والمُكابدة في الهوى ودَّع الشاعر أبو بكر يحيى بن بقي(ت545هـ) حبيبته، فقال:

لَمْ أَنْسَ إِذْ وَدَّعْتُهُ وَقَدْ الْتَقَتْ مِنِّي هُنَالِكَ بِالبُكَا عَيْنَانِ [2]

يُظهر البيت الدّور الّذي أداه الدّمع في رسم صورة الحزن الّتي مثلت إحساس الشاعر بالضعف لرحيل الحبيبة ، فالأيام لم تُنسه هذا الموقف لأنه في ألمٍ دائمٍ

[1]– العماد الأصفهاني : خريدة القصر و جريدة العصر، ج2، ص 495.

[2]– المقري : نفح الطيب ، ج3، ص 356.

وإحساس بنار الحب والشوق تتأجج في قلبه لتحرق فؤاده ، وتتعاظم معاناته حينما تعود به الذكريات ليتجدّد الحزن في كل حين ، ويكشف عن مكنونات نفسه الباكية من أثر الفراق.

ومِما قِيل في لحظة رحيل الحبيبة ،أبيات ابن عبدون (ت 526هـ) الّذي عاش في زمن المرابطين:

أَذْهَبْنَ مِنْ فَـــرْقِ الفِرَاقِ نُفُـــوسًا وَنَثَـــرْنَ مِـنْ دُرِّ الدُّمُـــوعِ نَفِيـــسًا
فَتَبِعْتُهَا نَظـرَ الشَّجِـــيِّ فَحَدَّقَـــتْ رُقَبَاؤُهَـــــا نَحْـوِي عُيُـونًا شُـــوسَا
وَحَلَلْـــنَ عَقْدَ الصَّبْـــرِ إِذْ وَدّعَتْنِـي فَحَلَلْـــنَ أَفْلَاكَ الخُـــدُورِ شُمُـــوسَا
حَلَّتْـــهُ إِذْ حَلَتْـــهُ حَتَّـى خِلْتَـــهُ عَرْشًـــا لَـهَا وَحَسِبْتُـــــهَا بَلْقِيـــسَا
فَأَزُورُ جَانِبَـــهَا وَكَـانَ جَوَابـــــهَا لَوْ كُنْتَ تَهْـــوَانَا صَحِبْـتَ العِيسَـــا [1]

إن لحظة الفراق الّتي حانت قد أثقلت نَفس الشاعر وأجْرت دُموعــه، فراح يتبــع الحبيبة في تلك اللحظة ، فنظر إليه أقاربها نظر الفارس الّذي يريد الهجوم على خصمه لكنها رغم ذلك جاءت لِتوديعه ، وكشفـت له عن وجهِـها المُنــير الّذي يُشْـبه الشمــس المُشرقة ، فخَال المكـان عَرشًا ، وحَسِبـها بلقيسًا ، وبعد أن انْتـهيا من اللقـاء ، قالـت إن كُنت عاشقًا فصَاحِب رَكْبنا في الرّحيل.

أما الرصافي البلنسي فكان وداعُه للحبيبة يحمِل معاني الحُرقة والتوجّع ، فيقول :

فِي لَيْلَةٍ سَدَكَـــتْ بِالأَرضِ فَحْمَتَـــهَا وَالجَـــوُّ أَزْرَقُ وَقَّـــادُ المَصَابِيـــحِ
وَدَّعْتُـــهُ وَكِلَانَا وَاضِـــــعٌ يَـــدَاهُ عَلَى حَشًـــا بِسُمُومِ الشَّـــوْقِ مَنْفُـوحِ
مَا طِبْتُ بِالعَيْشِ نَفْسًـــا بَعْدَ فُرْقَتِهَـــا وَالعَيْـــشُ مَا بَيْنَ مَذْمُـــومٍ وَمَمْـدُوحِ [2]

[1]– المقري : نفح الطيب، ج4 ، ص 305.
[2]– ديوانه ، ص 51.

يتحدث الشاعر عن وداع حبيبته في ليلة حالكة السّواد تتلألأ نُجومها الوضّاءة في سمائها الزرقاء، وقد احترق قلبه شوقًا في تلك اللحظة، ووضَع يده على قلبه لكي لا يخرج ويتبع ذلك الحبيب ، فضاقت الحياة عليه بما رَحُبت ، وتقلّب عيْشه بين رغد وتنغص.

هذه بعض مواقف الوداع الّتي تُصور كيف ودّع الشعراء أحبتهم، وأثر هذه اللحظات القاسية في نفسهم، بِغض النظر إن كانوا راحلين أو مُودّعين، وقد جاءت معانيهم بديعة السياق متكاملة الجوانب ، خُصوصا أنّ شعراء هذا العصر عُرفُوا بِرِقّة إحساسهم ، وعدم التَحرُّج في التعبير عن مشاعرهم عند فراق الحبيبة.

2- رثاء الزوجات في الشعر الموحدى

عرّف بعض النقاد الأقدمين الرثاء ، فذهبوا إلى أنه لا يخت ـــلف عن الـمدح إلا بعبارات تدل على أن المقول فيه ميت [1]، حيث "يصور الشاعر حُزنه لموت إنسان ويحاول استثارة نفس الحُزن في السّامع أو القارئ ، فالشاعر يقول لنا أنه حزين ويسعى لِجَعلنا نُشاركه حُزنه "[2] .

والرثاء معزوفة الألم على أوتار القلب ، وأنشودة الأسى على قيثارة النفـس، وهو التفجُّع المخلوط بالحسرة على الّذي مضى من حيث لا رجعة فيه إلى الحياة الدنيا ، لذلك

[1]- ينظر: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت463هـ): العمدة في صناعة الشعر ونقده ، حققه وعلّق عليه ووضع حواشيه ، النبوي عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجي ، القاهـرة – مصر- ط1، 1420هـ/ 2000م ، ج2 ص 147.

[2]- ينظر: ماهر أحمد المبيضين ، الأسرة في الشعر الجاهلي ، دراسة موضوعية فنية ، عمـــان، الأردن، ط1 2003م ، ص 207.

يُعتبر"من أسمى الفنون الشعرية لأنه مرتبط بتجربة حقيقية، " فالعاطفة تكون فيه صادقة والنية حسنة"[1].

وقد احتل رثاء الزوجة مساحة شاسعة عند الشعراء في زمن المُوحّدين ، فقد بَكى الشعراء زوجاتهم ، وذرفوا عليهن الدموع ، وارتفعت أصواتهم وراءَهن ، م ليئة بالآهات الحزينة ، والزفرات الحارة ، مُظْهرين قسوة الفراق ، وحُرقة الفؤاد ، على زوال المأوى والأنيس ، والحياة السعيدة.

ولعل ظاهرة بكاء الزوجة تتجلى بصورتها الكبرى في ديوان كامل نظمه ابن جبير في رثاء زوجته (أم المجد) سماه " نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح"[2] ولسوء الحظ فقد ضاع هذا الديوان، ولم يصل إلينا شيء منه ، وقد أشار ابن جبير إلى زوجته من خلال بَيتين كتبهُما من الديار المصرية إلى أحد أصدقائه بسبتة، قال فيهما :

بِسَبْـــتَةَ لِي سَكَنٌ فِي الثَّـــرَى وَخِـــلٌّ كَرِيـــمٌ إِلَيْـــهَا أَتَـــى

فَلَوْ أَسْتَطِـــيعُ رَكِبْـــتُ الـهَوَى فَـــزُرْتُ بِهَا الحَـــيَّ وَ المَـــيِّتَا[3]

يتحسّر الشاعر في هذه الأبيات على زوجته الّتي وافتها المنية بسبته في المغرب فدُفِنت هناك، فقد كانت نِعْم الرّفيق له في حياته، وهو يتمنّى لو يكون له جناحان لِيَزور قبرها لكثرة حنِينه لها، وقد اكتفى الشاعر بكلمة سَكن إشارة لزوجته، مقتبسا ذلك من قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[4].

[1]– ينظر: طاهر علي جواد، المنهل في الأدب العربي ، العصر العباسي والأندلسي، مطبعة المعـــارف، بغداد – العراق– 1962م، ص172.

[2]– لسان الدين ابن الخطيب :الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج2، ص 148.

[3]– ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، ص56.

[4]– سورة الأعراف: الآية 189.

ومن نماذج هذا اللّون الّتي خلفتها هذه الفترة ، نصٌّ من أربعة أبيات لأبي عامر بن الحمارة الغرناطي(ت 570) في رثاء زوجته زينب ، حيث يصف فيه فَجيعته بفَقْدها ويُعبّر عن وفائِه لها ، ويتساءل عن سبب سُرعة زوالها ، فيقول :

أَزَيْنَبُ إِنْ طِـــفْتِ فَإِنْ ظَـــهـرًا أَقَلّـــكِ سَوْفَ تركبَـــهُ المُقِـيمُ

بِأَيةِ حُـــجَّـــةٍ أَسْـــعَى لِأُنْثَى سِـــوَاكِ وَ أَنْـــتِ هَامِـدَةً هَـشِيمُ

وَ لَمَّـا أَنْ حَلَلْـــتِ الـتُّـرْبَ قُلْنَا لَقَدْ ظَـــلَّتْ مَوَاقِعَـــهَا النُّجُـــومُ

أَلَا يَا زَهْـــرَةً ذَبُـــلَتْ سَرِيعًـــا أَضَـــنَّ المُـــزْنُ أَمْ رَكَـــدَ النَّسِـيمُ[1]

ولعل هذا النص من أصدق الأمثلة على ما ذهب إليه إحسان عباس من إطلاقه على هذا اللون من الرثاء " البكاء على زوال الرِّقة والجمال " [2] ، فزوجة بن الحمارة – عنده – نجمٌ ظلّ موقعه ، وزهر ة ذبُلت سريعًا لانحباس المطر أو لِسُكون النّسيم .

ومن الشعراء الّذين لهم قصائد في رثاء زوجاتهم ، ابن الأبار القضاعي ، الّذي رثى زوجته بقصيدتين ، جاءت الأولى في ستة أبيات ، يَظهر فيها اشتياق الشاعر إلى الثرى الّذي دُفنت فيه زوجته ليُقبّله شوقًا ووفاءً، يقول:

أَحِنُّ إِلَى تُـــرْبٍ ثَـــوَى سَكَنًـــا بِـــهِ فَأَلْثَمُـــهُ شَوْقًـا لِمَنْ وُسِّـــدَ التُّرْبَـــا

وَأَطْبِقُ أَجْفَانِـــي أُحَـــاوِلُ غَفْـــوَةً فَيَأْبَى هُنَاكَ الهدْبُ أَنْ يَصِـــلَ الهدْبَـــا

لَعُمْرِي لَقَدْ نَالَ الـرَّدَى مِنِّـــي الَّـــذِي أَرَادَ وَخِلِّي الصَّبْـــرَ مُقْتَسِمًـــا نَهبًـــا [3]

---

[1]– ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج2، ص120.

[2]– محمد محي الدين : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، مقاربة لفنونه و خصائصه في الفترة الأولى رسالة للحصول على شهادة دكتوراه الدولة في الأدب العرب، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 1997م–1998م، ص120.

[3]– ديوانه ، ص 58.

أما القصيدة الثانية فتقع في تسعة عشر بيتًا ، وقد بيّن فيها الشاعر أن اللّيالي غدّارة ، تُفْجع الخِّل بالخِّل ، فتُفرق شمْل المُحبِّين سرًّا وجَهرًا ، فيقول:

رُوَيْدُ اللَّيَالِـــي كَمْ تُصِرُّ عَلَى الغَــدْرِ أَتَجْهَــلُ إِتْــلَافَ النّفَائِــسِ أَمْ تَـــدْرِي
تَدبُّ بِفَجْـــعِ الخِـلِّ بِالخِــلِّ دَائِبًـــا وَتَسْرِي لِشَتِّ الشَّمْلِ فِي السِرِّ وَالجَهْـرِ
فَيَا لَيْتَـهَا وَالهَجْــرُ مُــودٍ بِوَصْلِهَــا كَفَتْنَا سُرُورَ الوَصْــلِ أَو حَــزَنَ الهَجْـرِ [1]

وهو لا يستطيع نسيان زوجته، لأنه دائم التذكر لها، فكُلّما رمى بِنـــظرِه إلى الشّمس والبدر، يتذَكر تلك الغالية الّتي غابت شمسها ولن تُشرق أبدا، يقول في ذلك:

يُذَكِّرُ فِيهَا الشَّمْــسُ وَالبَــدْرُ كُلَّمَـــا رَمَيْتُ بِلَحْظِي طَلْعَـةَ الشَّمْـسِ وَالبَـدْرِ [2]

وتحسّر أبو الرّبيع المُوحدي على فَقْد زوجته فرثاها بأبيات أظهر فيها عواطف جياشة ، فيقول:

أَسَاكِنَةُ الفَـــــلَاةِ بِبَطْـــنِ رَمْـــسٍ فَرِيد مَالَـــــهُ فِـــي التُّـــرْبِ جَـــارْ
فَكَيْـفَ رَضِيتِـــــهِ وَتَرَكْـــتِ قَلْبًـــا يُكِنُّـــــكِ أَمْ تَـعَـــــدَّاكِ الخِيَـــــارْ [3]

يتساءل الشاعر عن السبب الّذي دعا زوجته تسْكن قبْرا غريبا و تَترك قلبـــــه يَسكنه الحرمان، وهو الّذي يُكِنّ لها كُلّ الحُب والشّوق والوفاء.

يظهر مما سبق أن للزوجة عند المُوحّدين مكانةً كبيرةً، ليس من السّهل نسيانها والبحث عن غيرها ، لذلك جاش الشعراء في ذلك الوقت بِبكاء زوجاتـهم وكتـبوا فِيـهِن أجمل رثائياتهم ،مُبيّنين في تلك الرثائيات الإخلاص لزوجاتـهم اللّواتي أخذهُـن المـوت فكانوا صادقين في التعبير عن مشاعرهم وعواطفهم مُخلِصين لما فَقدوا .

---

[1]– ديوانه: ص209.
[2]– ديوانه: ص 210.
[3]– ديوانه ، ص 39.

3- المرأة الشاعرة :

احتلت المرأة مكانة مرموقة، وبلغت شأنًا عظيمًا في عهد المُوحّدين، فكان لها دورٌ بارزٌ في الحياة الأدبية، كما أخذت بأسباب النهوض الفكري فساهمت في مختلف ضُروبه .

وقد أسهم التطور الحاصل في المجتمع المُوحّدى إلى ظهور عددٍ من الشاعرات كان لبعضهن منتديات يتردّد عليها الرجال والنساء معا [1]، ومن هؤلاء: مريم بنت يعقوب الأنصاري سكنت اشبيلية وأصلها من شِلْب [2] ، وهي أديبة وشاعرة مشهورة ، وكانت تُعلم البنات الأدب، وتحتشم لدِينِها ، وقد عَمّرت طويلا [3] .

ويُذكر أنها بَعثت بشِعرٍ إلى المهدي بن تومرت تمدحُه ، فبعث إليها مبلغ مالي أرفقه بهذه الأبيات :

مَالِي بِشُكْـرِ الّذِي أَوْلِيــت مِنْ قَـبْل لَوْ أَنَّنِي حزْتُ نُطْــقَ اللُّسْنِ فِي الحُــلَلِ

يَا فَذَّةَ الظَّرْفِ فِي هَـذَا الزَّمَـان وَيَـا وَحِيـدَةَ العَصْرِ فِي الإِخْـلَاصِ وَالعَمَــلِ

اشْبَـهت مَرْيَمًــا العَــذْرَاءَ فِي وَرَعٍ وَفُقْتِ خَنْسَاءَ فِي الأَشْـعَـارِ وَالمُـثُلِ[4]

والأبيات دليل كافٍ على مدى تقدير المهد ي لمريم ، حتى وصفها لعِفتها بِمريم العذراء ، و لِشاعريتها بالخنساء . وقد ردّت عليه مريم بقصيدة تمدحه لمّا بعث إليها من مَاله ، وخَلع عليها من فضْلِه وأدبِه مُستعملة البحر والرّوي نفسه قائلة :

---

[1]- ينظر: مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته و فنونه ، ص46.

[2]- شِلب: مدينة أندلسية تقع على ربوة متدرجة تشرف على نهر أراد(Arade)الذي يصب في المحيط الأطلسي جنوبا بها جبل عظيم ، كثير المياه ، تحيط بها تلال عالية يصل ارتفاعها إلى مئة متر. ينظر: زكرياء بن محمد بن محمود القزويني(ت672هـ) ، آثار البلاد و أخبار العباد ، دار صادر، بيروت – لبنان- دط ، دت ، ص 541. عبد الله عنان :الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا و البرتغال ، ص 404.

[3]- ينظر: المقري ، نفح الطيب ، ج4، ص 291.

[4]- الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ، ج2، ص 730.

مَنْ ذَا يُجَازِيكَ فِي قَوْلٍ وَفِي عَمَلٍ وَقَدْ بَدَرْتَ إِلَى فَضْلٍ وَلَمْ تَسَلِ
مَالِي بِشُكْرِ الَّذِي نَظَّمْتَ فِي عُنُقِي مِنَ اللآلِئِ وَمَا أَوْلَيْتَ مِنْ قَبْلِ
حَلَّيْتَنِي بِحُلَى أَصْبَحْتُ زَاهِيَةً بِهَا عَلَى كُل أُنْثَى مِنْ حُلَى عُطَلِ
لله أَخْلَاقُكَ الغُرُّ الَّتِي سُقِيَتْ مَاءَ الفُرَاتِ فَرَقَّتْ رِقَّةَ الغَزَلِ
أَشْبَهْتَ مَرْوَانَ مَنْ غَارَتْ بَدَائِعُهُ وَأَنْجَدَتْ وَغَدَتْ مِنْ أَحْسَنِ المُثُلِ
مَنْ كَانَ وَالِدَهُ العَضْبَ المُهَنَّدُ لَمْ يَلِدْ مِنَ النَّسْلِ غَيْرَ البِيضِ وَالأَسَلِ[1]

فالمقطوعة تمثل لوحَة شُكر واعتراف عَرضتها الشاعرة بما يتّس م مع طابعها النسائي، وقد عكست من خلالها أخلاق الممدوح وشهامته، وكرمه، وطيب أصله وهي صورة جميلة تدل على ثقافة عالية باللّغة والبلاغة.

ومن شعرها وقد أحسّت بالكِبر والشيخوخة، فشكت زمانها، وغدر اللّيالي وعُمرها الضائع ، وانهداد القوة ، وتراكُم الهُموم، فقالت:

وَمَا يُرْتَجَي مِنْ بِنْتِ سَبْعِينَ حَجَّةً وَسَبْعٍ كَنَسْجِ العَنْكَبُوتِ المُهَلْهَلِ
تَدُبُّ دَبِيبَ الطِّفْلِ تَسْعَى إِلَى العَصَا وَتَمْشِي بِهَا مَشْيَ الأَسِيرِ المُكَبَّلِ[2]

ومن شاعرات هذا العصر أيضا حفصة بنت الحاج الركونية ، وهي من أهل غرناطة، كاتبة نبيلة، جيّدة البديهة، وخيمة الشعر ، رقيقة النثر[3]، تميزت بقوّة شخصيتها واتساع آفاق تفكيرها، ومِما يدل على حُسن اطلاعها ، وبُروز ثقافتها أنها كانت على وعْي بما يدور في السّلطنة من أمور وتحولات ، فقد امتدحت عبد المؤمن بن علي ارتجالا بين يَديه ، فقالت:

---

[1]– جلال الدين السيوطي : نزهة الجلساء في أشعار النساء ، ص 78.

[2]– أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي :جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، حققه و علّق عليه بشار عواد معروف و محمد بشار عواد ، دار الغرب الإسلامي – تونس – ط1، 1429هـ/2008م، ص 600.

[3]– ينظر: ابن دحية الكلبي : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص10.

يَا سَـــيِّدَ الـــنَّاسِ يَـــا مَـــنْ يُؤَمَّـــلُ النَّـــاسُ رِفْـــدَهْ
أُمْنُـــنْ عَلَـــيَّ بِطَـــرْسٍ يَكُـــونُ لِلدَّهْـــرِ عُـــدَّهْ
تَخُـــطُّ يُمْـــنَاكَ فِـــيهِ الحَـــمْـــدُ للهِ وَحْـــدَهْ [1]

وقد أشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند المُوحّدين " الحمد لله وحده "،الّتي كان السلطان يكتبُها في رأس المنشور بخطٍّ غليظٍ ، فأعجِب الخليفة بمَدحها، ومَنَّ عليها وكتب لها بِيده ما طلبت ، وهو خبر يُؤكد مكانة هذه المـرأة الّتي استمدتها من ثقافتها وعلمها الواسع . وهي في غزلها أكثر جرأة في الهجوم على معاني العشـق والإثـارة والغيرة [2]، وقد ارتبطت بالوزير الشاعر أبو جعـفر أحمد ابن سعيد الذي كان يهـواها ويتغزل بها ، وشارَكه في حُبّها عثمان بن عبد المؤمن ملك غرناطة ، وبسببها قتله[3].

ومن أجمل شِعرها تَدْعو الوزير أبا جعفر إلى موعِد لِقاء:

أَزُورُكَ أَمْ تَـــزُور فَـــإِنَّ قَلْـبِـــي إِلَى مَـــا تَشْتَـــهِـــي أَبَـــدًا يَمِيـــلُ
فَثَغْـــرِي مُـــورِدٌ عَـــذْبٌ زُلَالٌ وَفَـــرْعُ ذُؤَابَتِـــي ظِـــلٌّ ظَلِيـــلُ
وَقَدْ أَمَّـــلْتُ أَنْ تَـــظْمَـــأَ وَتَضْحَى إِذَا وَافَـــى إِلَيْـــكَ بِـــي المَقِيـــلُ
فَعَجِّـــلْ بِالجَـــوَابِ فَمَـــا جَمِيـــلٌ إِبَـــاؤُكَ عَـــنْ بُثَيْـنَـــةَ يَـا جَمِيـلُ [4]

تُخيِّر الشاعرة حبِيبها بين أن تُبادر هي بزيارته أم تترك له القرار، ثم إنها لا تتحرّج من البَوْح عن حُبّها وإعلان شوقها الكبير له، لتأخذ بعد ذلك في تِعداد مفاتنها حيث تصف فمها الّذي يُشبه مُورد الماء العذب الزلال، وشَعْرها الكثيف الّذي يُناظر الأشجار الوارفة ، لعلّها تُغري مَحبُوبها باللقاء، لتثبت في البيت الأخير أنها على اطلاع

[1]– أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي : رايات المبرزين و غايات المميزين ، حققه وعلّق عليه محمد رضوان الداية ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق– سوريا– ط1 ، 1987م، ص 161.
[2]– ينظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص219.
[3]– ينظر: ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 138.
[4]– المقري : نفح الطيب ،ج4، ص 176.

واسع بالشعر العربي ، حين تناشد أبا جعفر للإسراع في الزيارة ، لأنه ليس من الجميل أن يبطئ الحبيب (جميل) عن زيارة محبوبته (بثينة) ، وقد استدعت أكثر رموز التراث الشعري ذيوعًا ، وهي قِصّة الحُب بين جميل وبثينة، للتعبير عن الحب الصادق الّذي لا يعرف التريث في لقاء الحبيب ، كما استخدمت الجناس التام بين جميل الصفة الأولى وجميل اسم العلم للشاعر العذري المعروف.

ومن شِعرها وقد عزفت على وَتر الوفاء للحبيب قولها:

سَلَامٌ يُفَتّحُ عَنْ زَهْرَةِ الـ كمَام وَ يُنْطِقُ وُرْقَ الغُصُونْ
عَلَى نَازِحٍ قَدْ ثَوَى فِي الحَشَا وَإِنْ كَانَ تُحْرَمُ مِنْهُ الجُفُونْ
فَلَا تَحْسِبُوا البُعْدَ يُنْسِيكُمُ فَذَلِكَ وَ الله مَا لَا يَكُونْ[1]

تحِنُّ حفصة إلى عهدَ حبيبها الّذي غاب عن الوُجود، لكنّه ما زال يسكُن الفؤاد وتتعهد أن تَظل وفِيّةً له حتى بعد مَوته ، وتُقسم أن لا تنساه أبدا ، وهو وفاءٌ مشفوعٌ بالقسم الّذي يُثبت صِدق الشاعرة في وعدِها.

وقالت أيضا في نَغْمة حزينة و كأنها ترجو من الناس أن يسألوا البارق الخفّاف في هدوء الليل ، عن حال أبي جعفر الّذي خلَّف بقلبها الخفقان ، و بِعينيها الدموع .

سَلُوا البَرْقَ الخَفَّاقَ وَاللَّيْلُ سَاكِنٌ أَظَلَّ بِأَحْبَابِي يُذَكِّرُنِي وَهْنَا
لَعُمْرِي لَقَدْ أَهْدَى لِقَلْبِي خَفْقَةٌ وَأَمْطَرَنِي مِنْ مُزْنِهِ الجَفْنَا[2]

وقد استطاعت حفصة أن تُحوّل دور المرأة من ذات مُنفعلة إلى ذات فاعلة شاركت الرجل في الميدان العاطفي ، مع احتفاظ كل منهُما بمكانته.

[1]– المقري: نفح الطيب، ج4، ص 175.
[2]– نفسه : ص 176.

ومِنهن أيضا الشاعرة الشلبية ، الّتي لم يقف ابن الأبار على اسمها ، واكتفى بذِكر نسبها إلى مدينة شِلب ، وكانت قد كتبت إلى ال خليفة يعقوب المنصور تتظلّـم من وُلاة بلدها وصاحب خَراجِها [1] ،إذ تقول :

قَدْ آنَ أَنْ تَبْـكِي العُـــيُونُ الآبِـــيَهْ وَلَقَـــدْ أَرَى أَنَّ الحِـــجَارَةَ بَاكِـــيَهْ

يَا قَاصِـــدَ المِصْرَ الّذِي يُرْجَـــى بِهِ إِنْ قَـدَّرَ الرَّحْـــمَنُ رَفْـــعَ كَرَاهِيَـهْ

نَادِ الأَمِـــيرَ إِذَا وَقَفْـــتَ بِبَابِـــهِ يَا رَاعِـــيًا إِنَّ الرَّعِـــيَةَ فَانِـيَـــهْ

أَرْسَـــلْتَهَا هَمَـــلًا وَلَا مَرْعَـــى لَهَا وَتَرَكْـــتَهَا نَهَـــبَ السِّـبَاعِ العَادِيَـهْ

شِلْـــبٌ كُلّا شِـــلْب كَانَتْ جَـــنَّةً فَأَعَـــادَهَا الطَّـــاعُونُ نَـــارًا حَامِـــيَهْ

خَافُـــوا وَمَا خَافُـــوا عُقُوبَةَ رَبِّهُمْ وَاللهِ لَا تَـــخْـــفَى عَلَـيْهِ خَافِيَـــهْ[2]

بهذا القدر من الشجاعة والجرأة والثقة بالنّفس تُخاطب الشاعرة الخليفة ، فتُعلِن حُزنها لما آلت إليه مدينتها ، وتُقرّ برفضها للتعسّف الّذي طال أهلها، فتُناشد الخليفة أن يضع حدًّا لهذا الظّلم الّذي أفْنى الرّعية ، نتيجة تركها نَهبًا للوالي الظّالم الطاغية الّذي حوّل المدينة من جنّة وارفة الظّلال إلى يبَاب وخراب ، مما دفع بالخليفة إلى "عَزل الوالي والقاضي ، وأمَر لها بِصِلة"[3].

ومِن الشاعرات المغربيات السيّدة أم النساء بنت عبد المؤمن التاجر الفاسي [4] الّتي أنشدت للسيّد أبي علي عند ولايته على فاس:

---

[1]– ينظر: ابن الأبار القضاعي، التكملة لكتاب الصلة ،ج4، ص 260.

[2]– ابن عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة ، ج5، السفر8، ص 409.

[3]– المقري : نفح الطيب ، ج4، ص 294.

[4]– عاشت في عصر بن عربي حيث قال عنها أنها تجيد الشعر. ينظر: محي الدين بن عربي، محاضرة الأبـــرار و مسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، دمشق– سوريا– 1388هـ/1968م، ص228.

جَاءَ البَشِيـــرُ بِوَعْـــدٍ كَانَ يُنْتَظَـرُ فَأَصْبَـحَ الحَـــقُّ مَا فِي صَفْـوِهِ كَـدَرُ
مِنْ خَيْـرِ هَادٍ بِالهَـــدْيِ يَأْمُـــرُنَا وَفِي أَوَامِـــرِهِ التَّسْدِيـــدُ وَالنَّظَـــرُ [1]

وفِيها تصف شجاعته وإقدامه في ساحة المعركة، فتقول :

لَيْثٌ إِذَا اقْتَحَـمَ الأَبْطَـالُ حَوْمَتَـــهَا يُفْنِـــي الكَتَائِبَ لَا يُبْقِـــي وَلَا يَـــذَرُ [2]

ونظمت الشاعرة عائشة بنت عمارة [3] شعرا يصلح للغناء، تقول فيه:

أَخَـــــذُوا قَلْبِـــي وَسَـــارُوا وَاشْتِـــيَاقِـــي أَوْدَعُـــونِـــي
لَا عَـــادَ إِنْ لَـــمْ يَعُـــودُوا فَاعْـــذِرُونِـــي أَوْ دَعُونِـــي [4]

ويُقال إنها بعثت بهذين البيتين إلى أبي الحسن بن الفكون [5] شاعر وقتِه وقالت: عارضهما أو زِد عليهما ، فكتب لها مُعتذرا عن الجواب ، إن الاقتصار عليهما هو الصواب. ونلاحظ تحرّر المرأة اجتماعيًّا وثقافيًّا حتى أصبحت تتصل بالشعراء وتَعرض عليهم شِعرها ليزيدوا عليه أو ينقصوا منه ،أو يُقوّموه حتى يُصبح قابِلا للغناء.

[1]– عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ج1، ص 145.
[2]– نفسه : الصفحة نفسها.
[3]– هي عائشة بنت عمارة بن يحيى بن الشريف الحسني ، شاعرة من شواعر المغرب في القرن السادس للهجرة ذات فصاحة و بلاغة ، كانت تجود الخط ، فقد كتبت يتيمة الدهر للثعالبي في ثمانية عشر جزء ، خاتمة سفر منه قطعة شعر من نظم والدها موجودة بالخزانة السلطانية ببجاية. ينظر: عمر رضا كحالة ،أعلام النساء في عالمي العرب و الإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت– لبنان– دط، 1994م، ج3، ص 182.
[4]– الغبريني : عنوان الدراية ، ص48.
[5]– هو أبو علي حسن بن عمر الفكون القسنطيني ، الشيخ الفقيه ، و الكاتب الأديب البارع ، من الأدباء الذين نستظرف أخبارهم ، و تروق أشعارهم ،عزيز النظم و النثر ، و كأنهما أنوار الزهر ، رحل إلى مراكش و مدح الخليفة الناصر الموحدي و كانت جائزته عنده من أحسن الجوائز ، توفي بعد سنة 602هـ. ينظر: محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط2، 2006م، ص 77– 79.

وقالت في هجر أحدهم:

صَدَّنِـــي عَنْ حَـــلَاوَةِ التَّشْـــبِيـــعِ اجْتِنَابِـــــي مَـــــرَارَةَ التَّوْدِيـــــعِ
لَمْ يَقُـــمْ أُنْسُ ذَا بِوَحْشَـــةِ هَـــذَا فَرَأَيْـــتُ الصَّـــوَابَ تَـــرْكَ الجَمِيـــعِ [1]

ويظهر أن البيتين قِيلا في تَرْك أحد المُحبّين لها، وغَلْقه الأبواب في وجْهِها فراحت تُبيِّن أنها غير مُتأسفة على هذه القطيعة، ولا مُتحسّرة على فِراق الرّجل، وضياع حُبِّه لأنها اعتادت على مرارة الهجران ، غير أن كلماتها في البيت الثاني تفضح رغبتها الدائمة لأجواء الألفة والحُب ، ويتضح هذا من خلال قولها (لم يَقُم أُنْس ذا) فرُبما تطلّعت لرجل آخر تُضَمّد جراحها معه ويُنسيها حُبها المفقود، لكنّها رأت في تقلّب أحوال الرجال ، وتغيّر أهوائهم ما يستدعيها ترك الجميع .

يتضح مما سبق أن المرأة المُوحّدية قد حظيت بقدر كبير من الانفتاح الّذي خفّف بطريقة أو بأخرى الهيمنة الذُكورية على المشهد الشعري ، لذلك أصبحت شريكًا حقيقيًّا في صناعة الثقافة الأدبية، والتوغل أكثر في حقول معرفية وإنسانية متنوعة، لذا امتاز العصر بكثرة الشواعر اللّواتي انتظمت لهُن آلة الكلم ، وخضعت لهُن شُرود القافية فعلا نَجمهُن إلى حدٍّ كبيرٍ.

خامسا: الإخوانيات :

هي خطابات أدبية ، شعرا أو نثرا أو كليهما معا، حيث يعبِّر فيها الشاعر عن قضايا خاصة ، وأمور شخصية تتعلق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل والأصحاب ممن قَرُب مكانه أو بَعُد [2]، وغالبا ما تكون بين الشعراء أنفسهم ، أو بينهم

[1]– الغبريني: عنوان الدراية ، ص 48.

[2]– رضوان الداية : في الأدب الأندلسي، دار الفكر، دمشق – سوريا– ط1، 1421هـ/2000م، ص227.

وبين الخلفاء والعلماء والقضاة وغيرهم [1] ، ويُشكل هذا النوع من الفن صورة للمجتمع المُوحّدى ، فتُعالج الموضوعات ذات الصلة المباشرة بالمجتمع في شتى مناحي الحياة وقد استغرقت القصيدة الإخوانية جُل أغراض الرسالة الن ثرية ، من تهنئة وعِتـــاب وشكوى وتعزية ، وشُكر وثَناء ، والسؤال عن المريض وعيادته ، كما صوّرت إخوانيات هذا العصر أساليب التخاطب آنذاك كعواطف المحبة و الإخاء، ومشاعر الود والوفـــاء والإخلاص .

وسنُحاول الوُقوف على أهمّ الموضوعات الّتي ظهرت في نظمِهم ونثرهم الإخواني مستشهدين بعدّة نماذج .

1- التهنئة :

أُستخدم الشعر والنثر ذلك العصر للتهنئة ، فقال ال شعراء نصوصا وقصائد هنأوا فيها أصدقاءهم ومعارفهم على ما رُزقوا من أولاد ، أو ما حظُوا به من شِفاء بعد مرض أو غير ذلك ، فقد كتب ابن الأبار مهنئا أبا المطرف بن عميرة بازدياد وَلد له، يقول:

مَرْحَبًـا مَرْحَبًـا بِأَسْنَـــى وَلِيـــــدْ زَيْـــد مِنْ آل خَالِـد بنُ الوَلِيـــــدْ[2]

فهي تهنئة ومدح وإجلال للأصل والفرع ، فالمولود كريم من قادة المسلمين وهو ابن الأماجد ورث الأصالة عن أبيه سليل الرفعة والفضل ، فحق له أن يفخـــر ويَزهـــو ويُرحّب بهذا النّسل.

وقد يصف الشاعر المولود بأجمل الصفات ، ويُقدمه بصورة الكواكب والنجوم يقول الرصافى البلنسي:

---

[1]- أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1965م، ص324.

[2]- ديوانه : ص 440.

سَرَّاءُ شَـــبَّ بِهَـا الزَّمَـانُ الأَشْيَـــبُ وَسَمَـاءُ مَجْـــدٍ زِيـــدَ فِيـــهَا كَوْكَـــبُ
وَعُلُوُّ مَنْزِلَـــةٍ تُشَـــاءُ بِأَزْهَـــرٍ كَالنَّـــجْـــم إِلَّا أَنَّـــهُ لَا يَغْـــرُبُ
وُلِدَتْ بِمَـوْلِدِهِ المَكَـارِمُ وَالنَّـــدَى وَتَأَهَّـــبَ النَّـادِي لَـــهُ وَالمَوْكِـــبُ
بُشْـرَاكَ بِالطِّفْـلِ الَّذِي هُوَ عِنْـدَنَا شِبْـلٌ وَفِـي المَعْنَى هِزَبْـرٌ أَغْلَـبُ
فَاهْنَـأْ بِـهِ مِنْ طَـالِعٍ ذِي أَسْعَـــدٍ يُزْهَـــى بِغُرَّتِـهِ الزَّمَـانُ وَ يُعْجَـــبُ
يَحْلُـو عَلَى طَرَفِ اللِّسَـانِ كَأَنَّمَـا عَسَـلٌ وَمَـــاءٌ لَفْظُـــهَا المُسْتَـــعْذَبُ
بَلَغَـــتْ بِكَ الأَيَّامُ قَاصِيَـــةَ المُنَى مِمَّـــا تُحَـاوِلُـــهُ الكِـــرَامُ وَ تَطْـلُبُ[1]

لقد أحدث هذا النبأ السار بهجة كبيرة في نفسِية الشاعر، حيث راح يشبّه المولود الجديد بالنجم مع وجود فرق بين الطفل والنجم ، فالنجم يَغرب في حين أن الطفل يبقى منيرًا دائمًا ، ووصفه أيضا بحُسن الخلق والكرم والشجاعة ، فذِكره يَحلو ويستعذبه اللسان ، كما غيَّر هذا المولود حال والده من الشّيب إلى الشباب بسبب فَرحِه وسعادته بقُدومِه.

ويهنئ ابن سهل الأندلسي في مَولود رُزِق به أحد أقربائه فيقول:

هِيَ طَلْعَةُ السَّعْـدِ الأَغَـرُّ فَمَرْحَـبَا وَسَنَا الرِّئَاسَـــةِ قَدْ أَضَـــاءَ فَلَا خَـــبَا
هَشَّتْ لِمَطْلَعِـــهِ الأَسِـــرَّةُ والأَسِنَّـــ ـــةُ والمَحَافِـلُ والجَـحَافِـلُ والظُّـبَـى
لَا تَحْمِلُوهُ عَلَـى المُهُـــودِ فَإِنَّـــهُ لَيَرَى ظُهُورَ الخَيْـلِ أَوْطَـــأَ مَرْكَـــبَا
ولْتَفْطِمُـــوهُ عَـنِ اللِّبَـــانِ فَإِنَّـهُ لَيَرَى دَمَ الأَبْطَـــالِ أَحْـــلَى مَشْـــرَبَا [2]

يُرحّب الشاعر بقُدوم هذا المولود، ويرحّب معه ببريق الرئاسة الّتي اتّقد شُعاعها ويوظف التشخيص في أبياته ، حيث ابتسمت لهذه المناسبة الأسرّة وأسِنّة الرّمـــاح

[1]– ديوانه، ص 40.

[2]– ابن سعيد : اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص134.

وكتائب الجيش ، وحواف السيوف ، لأن العرب تفخر بالفارس ، وتحاول أن تُروِّض الوليد منذ نعومة أظفاره على الصيد والفروسية، إحياءً للعادات والقـيـم الأصيلة وينصح الشاعر أهل المولود بامتطائه الخيل على النّوم في المَهد ، وشرب الدّم على اللّبن ، وفي ذلك إشارة إلى ضراوة المعارك الّتي سيخوضها ، وقُوته الّتي سيتمتّع بها.

كما أوصانا ديننا الحنيف على زيارة المرضى والدّعاء لهم بالشفاء العاجل من الأمراض والأسقام الّتي أُصيبوا بها، عَملًا بالمُثل الأخلاقية الفاضلة، وقد سار أهل العُدْوتين على مُمارسة هذا السلوك الاجتماعي والإنساني في عيادة المريض، ومواساتـه والتخفيف عنه ،ومشاركته آلامه، والدعاء له بالشفاء، وهذا يؤدي إلى تقوية الروابط بين المجتمع المُسلم، ومما يدل على ذلك قول أبـي محمد ابن الفرس (ت568هـ) يهنئ القاضي أبا العباس ابن الحلال (ت 567هـ) بالبرء من المرض :

تَجَلَّتْ هُمُـــومٌ وَجَلَـتْ هِمَـــمْ وَعَـــمَّ نَعِـيمٌ وَ خَلَـــتْ نِعَـــمْ
وَإِنْ صَحَّ قَاضِي القُضَاةِ اغْتَدَى صَحَائِـحَ مِنَّـــا مِـــرَاضُ النَّسَـمْ
فَمَـا خَـصَّ هَـذَا الأَذَى جِـسْمَـهُ وَلَكِنَّـــهُ عَـــمَّ هَـــذِي الأُمَـــمْ
وَأَضْـرَمَ حَتَّى ضُلُـــوعَ العُلَـى وَفَـــطَرَ حَتَّـى فُـــؤَادَ الكَـــرَمْ
كَـــأَنَّ النُّفُـــوسَ لَـهُ جُـــنَّةٌ وَمَا حَـــلَّ إِلَّا بِـهِـــنَّ الأَلَـــمْ
وَأَرَى بِأَدْمُـــعِنَـــا أَرْضَنَـــا فَأَغْنَـــى الغَمَائِـمَ أَنْ تَنْسَـــجِـمْ
وَإِمَّـــا أَدَقَّ لَنَـــا شَخْـصَـهُ فَمَا انْفَـكَّ مِنْهُ النـدَى ذَا عِظَـمْ
وَمَـا إِنْ تُسَـاءُ بَلَـى إِنَّـهُ يُنَافِـسُ فِـيـكَ الوُجُـودُ العَـدَمْ[1]

تُفصح الأبيات عن استبشار الشاعر ومن حوله من مُحِبي القاضي بتماثله للشفاء ، فانجلت الهُموم وسَاد النّعيم ، أما الألم الّذي أصابه فقد آذى الناس جميعا

[1]–التجيبي: زاد المسافر، ص 119– 120.

لمكانته الرفيعة بينهم ، حتى بَكَتْه أعينهم ، وبلّ دَمْعهم الأرض يوم مَرضِه ، لأن كرَمه وحُسن أخلاقه غَمر من حوله ، ولكثرة حُبّ الشاعر للقاضي فإنه أفرط في المبالغة حتى جمع فيه النقيضين : الوُجود والعدم.

وكتب الشاعر ابن سهل الأندلسي إلى الوزير أبي خلاص بأبيات مُعبّرا عن إشفاقه عليه ، و مُهنئا له بالشِّفاء من المرض ، فيقول :

بَهِجَ الجَمِيعُ بِكَ ابْتِهَـــاجَ الأَرْضِ فِـي مَحْلٍ بِإِطْـــلَاقِ الحَـــيَا المُتَوَقِّـــفِ
يَا غُمَّـــــةً أَجْلَـــتْ لَنَـا عَنْ فَرْحَـــةٍ كَالسِّجْنِ أَفْرَجَ عَنْ إِمَـــارَةِ يُوسُـــفِ
مَرِضَ الوَزِيرُ المُرْتَـضَى فَبَـــدَتْ عَلَى مَرَضِ الوُجُـــودِ دَلَائِـــلٌ لَا تَخْتَـفِي
و لِذَلِكَ اعْتَـــلَّ النَّسِـــيمُ وَأُلْبِسَـــتْ شَمْسُ الأَصِيلِ شُحُوبَ شَاكٍ مُدْنِـــفِ
عَجَبًـــا مِنَ الأَيَّـــامِ تُسْقِـمُهُ وَ مَـا زَالَـتْ بِهِ مِنْ كُـــلِّ سُقْـمٍ تَشْـــتَفِي[1]

صوّر الشاعر في أبياته ابتهاج الناس بشفاء الوزير، وشبّه ذلك بابتهاج الأرض المجدبة عند عودة هطول المطر الّذي انْحبس ، وأصبحت الأرض بسببه قاحلـــــة وشبّه أيضا انجِلاء الكَرب عن الوزير والسرور الّذي شرح الصدور بالسّجن الّذي بانتهائه أفرج عن إمارة النّبي يوسف عليه السّلام، وإن مرَض الوزير بادٍ في علامات يصعب إخفاؤها، كاعتلال الهواء، وشحوب الشمس الّتي تُشبه شحوب مرضه وعِلّته، ويستهجن الشاعر من الأيام الّتي تُمرضه ، وتنأى بنفسها عن المرض الّذي حلّ به.

ومِما لاشك فيه أن هذه اللّفتة الجميلة من الدعاء للمرضى والفرح لتماثلـهم للشفاء تُخفف عنهم الأوجاع ،وتُسهم في تآلف النفوس ومدّ جسور المحبة ، ونشر كـــثير من معاني التعاطف والمواساة، وتقوية الروابط بين الأهل و الأصدقاء.

[1]– ديوانه: ص 63.

ومِثل ما كانت التهنئة تُقدم للأصدقاء والأهل في عهد المُوحّدين ، أخذت أيضا جانبًا آخر، وهو تقديم التهاني إلى الخليفة أو الأمير وإلى القاضي أيضا ، وكانت تدور مُعظم التهاني في جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية ، مثل تقديم التهاني في الأع ياد وتولية المناصب و ما شابه ذلك .

كان من عادة الأندلسيين والمغاربة الاحتفال بعيد الفطر والأضحى ، ومن تمام مراسيم هذه الاحتفالات أن يتلقى الخليفة والأمير التهاني بهذه المناسبة الكريم ة، ويسعى الأدباء إليه بالتبريكات وأطيب الأمنيات ، وفي هذا يقول أبو العباس الجراوي [1] مُهنئا يوسف بن عبد المؤمن بيوم عيد:

العِيـــدُ أَحَـــقٌّ بِتَـــهْنِئَـــةٍ فَلَهُ بِكُـــمُ فَخْـــرٌ عَمَـــمْ
دُمْتُـــم والكُـــلُّ يَلُـــوذُ بِكُـــمْ مِنْ صَـــرْفِ الدَّهْـــرِ ويَعْتَصِـــمْ [2]

كما هنأت الشاعرة حفصة الركونية ملك غرناطة أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن بِيوم عيد فتقول:

يَا ذَا الـعُـــلَا وَ ابْـــن الخَلِيـــ ـفَـــةَ وَالإِمَـــامَ المُـرْتَـضَـى
يُهَـــنِّيـــكَ عِيـــدٌ قَـــدْ جَـرَى فِيـــهِ لِمَـــا تَهْـــوَى القَـــضَا[3]

ويُعدّ تولي المنصب من المناسبات الّتي تقدم فيها التهنئة، ومن ذلك ما كتبه صفوان بن إدريس إلى أبي القاسم بن بقى ، يهنئه فيها بتوليه قضاة الجماعة فيقول : " لأن قَدْرُهُ ، دَامَ عُمْرُهُ، وامْتُثِل نَهْيَهُ الشَّرْعِي وأَمْرَه، أعْلَى رُتْبَة، وأكْرمَ محلًّا ، من أن

[1]– هو الأديب المُجيد أبو العباس أحمد عبد السّلام الجراوي، نسبة إلى جرّاوة قبيلة من زناتة ، كان شاعـرا حسـن البديهة، بليغ القول ، مدّاحًا هجّاءً ، عالمًا بالآداب، حافظًا، بليغ اللسان، توفي سنة 609هـ. ينظر: ابن الأبار، تحفة القادم، ص97، ابن سعيد : رايات المبرزين، ص48، التجيبي: زاد المسافر، ص 7.

[2]–عبد الله كنون: النبوغ المغربي، ج3، ص812.

[3]– المقري : نفح الطيب ،ج4، ص 177.

يتَحَلى بِخُطّة هي بِه تتحَلّى، كيفَ يَهْنَأ بالقُعُود، ولِمعَاناةِ الإنصَافِ المَمْطول من المَاطل، والتَّعَب في المُعَادَلة ، بينَ ذَوِي المُجَادَلة ، أمَّا لو عَلِمَ المُتَشوِّقُون إلى خُطّة الأحْكَام ، المُسْتَشْرِفون إلى مَآلهَا من التَّبَسط والاحْتِكام ، ما يَجِب لها من اللَّـــوَازِم والشُّرُوط الجَوَازم ، كالمُسَاوَاة بينَ العَدُو وذِي الذّنْب والصَّاحِب بالجَنْب ، والتَّوَسع في الأخْلَاق، حتى لِمَن ليْسَ لهُ مِن الخَلَاق إلى غَيْر ذلك مِمّا عَلِم بِه قَاضِي الجَمَاعة وأحْصَاه، واسْتَعْمَل خُلُقُه الفَاضِل أدنَاه وأقْصَاه لَجَعَلُوا خُمُولَهُم مأمُولَهُم ، وأضْرَبُوا عن ظُهُورِهم، اللَّهُم إلا مَنْ أُوتِي بَسْطَةً في العِلْم ورَسَا طُودًا فِي سَاحَةِ الحِلْم، وتسَاوَى مِيزَانهُ فِي الحَرْبِ والسِّلْم، وكَانَ كقَاضِي الجَمَاعَة فِي المُمَاثَلَةِ بيْنَ أَجْنَاس النَّاس، فتَقَلّد الأحْكَامَ للأَجْر ، لا للتَّعْنِيف والزَّجْر يتَوَلّاها للثَّوَاب لا للغُلظَة في رَدِّ الجَوَاب ، ويأْخُذُها لِحُسْنِ الجَزَاء ، لا لِقَبِيح الاسْتِهْزَاء ويُلْزِمُهَا لِجَزِيل الذُّخْر ، لا للإِزْرَاء والسُّخْر، فإذا كَانَ كذَلِكَ وسَلَكَ المُتَوَلِّي هَذَا السَّالِك، كَانَ كقَاضِي الجَمَاعَة و لا مِثْل لَهُ، ونَفَعَ الحَق به عِلَله فيوْمَئِذٍ تهْنَأُ بِهِ خُطَّةُ القَضَاء، ويَعْرِف مَا لله عَلَيْهِ مِنَ اليَدِ البَيْضَاء"[1].

تحمل هذه الرسالة عبارات جلية المعنى في الدلالة على حُسن اختيار الألفاظ الّتي تخدم موضوع التهنئة ، فقد استهلها بألفاظ التكريم و الرفعة لأنه يخاطب رجلاً ذا مكانةٍ مرموقةٍ ، كقوله(لأن قدره ،أعلى رتبة ، أكرم محلا)، ثم ينتقل صفوان إلى التذكير أن هذا المنصب لن يحصل عليه إلا الشخص الّذي يتمتع بِحس المسؤولية والشخصية القوية ،والعقل الراجح ، والعلم الواسع بأمور الّدين، الّذي يكون همّه الوحيد هو تحقيق العدالة وفرض القانون على الكل دون استثناء وبدون مُجاملة لأي شخص حتى لو كان وزيرا أو من العائلة الحاكمة، ليهنأ الجميع فوق الأرض، وقد جاءت ألفاظ الرسالة واضحة سهلة لا غموض فيها، فصيحة في معظمها، كما تميزت بتضمينها محسّنات بديعيّة، كالسّجع في قوله:(فتقلد الأحكام للأجر ،لا للتعنيف والزجر)، واشتملت

[1]– زاد المسافر، ص 128– 129.

أيضا على الطباق في قوله:(الحرب/السلم)،(أقصاه/ أدناه)، مما زاد المعنى قوّةً ووضوحًا ، أما جُمل النص فكانت قصيرة وفصيحة ، واضحة المعنى ، فلا لُبس فيها ولا غموض، متينة في سياقها ، ومترابطة فيما بينها ، مما يشير إلى جزالة التراكيب وقوتها وتظهر إبداع الكاتب وبراعته الأدبية.

2- **التشوق :**

يصف كثير من الشعراء في إخوانياتهم تشوقهم إلى أصدقائهم ، ويُصورون حنينهم إلى الماضي الّذي جمعهم شاكين فِراقهم وبِعادهم ، مُتمنين قُربهم ولِقائهم ، من ذلك ما قاله ابن غالب الرصافي مُعبّرا عن شوقه لصديقه ابن ل بلى الشريسي (ت582هـ) [1] مُتمنيا لقائه :

أَعِنْدَكُـــمُ أَنَا نَبِـيـتُ لِبُعْدِكُـــــمْ وَكُـــلُّ يَدٍ مِنَّـا عَلَى كَبِدٍ حَـــرَّى
وَمِنْ عَجَـبٍ أَنَا نَهِيـــمُ بِقُرْبِكُـــمْ وَلَا زَوْرَ إِلَّا أَنْ نُلِـمَّ بِكُـــمْ ذِكْـرَا
نُؤَمِّـلُ لُقْيَاكُـــمْ وَكَيْـــفَ مَطَـــارُنَا بِأَجْنِـــحَةٍ لَا نَسْتَـطِيعُ لَهَـا نَشْـــرَا
فَلَوْ آبَ رَيْحَـــانُ الصِّـــبَا لِقَاؤُكُـمْ إِذَا قَضَتِ الأَيَّام حَاجَتَـــنَا الكُبْـــرَى
فَإِنْ لَمْ يَكُـــنْ إِلَّا الرَّجَـــوَى وَمَشِـــيبَنَا فَفِـي أَيِّ شَـيءٍ بـعدُ نَسْتَعْطِفُ الدَّهْـرَ؟[2]

تُبرز الأبيات الصراع النّفسي الّذي يُعانيه الشاعر من أثر بُعده وفِراقه عن صديقه ، وما يُغالبه من شوق يصل حدّ الهيام ، وتظل أُمْنِيته الوحيدة في هذه الحياة هو أن يطير إليه ويلتقي به ، لكن ما يمنعه هو عدم قدرته الجسدية على الطّيران ، ثم يُظهر توسُلاته واستعطافه للدّهر بأن يقضي له أمَل اللقاء، لكن هيهات لأن وقت الصِّبا قد ذهب ووَلّى وحَلّ مَحلّه البُعد والشّيب.

---

[1]- هو الفقيه الحسيب أبو الحسن علي بن أحمد بن لبّال الأميني القاضي ، من أهل شريس ، و هو فارس الفقه والنظم و النثر. ينظر: ابن الأبار، تحفة القادم ، ص 127، ابن دحية: المطرب ، ص97.

[2]- ديوانه، ص 76.

ويُصور أبو بكر الكُتَندي [1](ت584هـ) حنينه إلى صديقه ابن غالب الرصافي ذاكرا اللحظات السعيدة الّتي جمعتهما ، مُتمنيا عودتها ، فيقول :

أَعِنْدَكُـــمُ يَا سَاكِنِـي الـــوُدِّ أَنَّكُـــمْ بِمَرْأَى عَلَى بُعْدِ المَسَافَاتِ مِنْ حِمْصِ
أَتَقْضِي اللَّيَـــالِي أَنْ تُلِـــمَّ بِمَنْـــــزِلٍ أَلِفْنَـــاهُ مَا بَيْـــنَ الأَرَاكَـةِ*وَالدِّعْـــصِ**
وَإِنِّي حَرِيـصٌ أَنْ يَعُـودَ بِمَـا مَضَـــى زَمَانٌ، وَمَا حِرْصُ المَقَادِيرِ مِنْ حِرْصِي [2]

يستعيد الكُتندي الذكريات الجميلة والأيّام الرائعة الّتي كانت تَجمعُه مع رفيقه الرصافي بإشبيلية (حمص)، لكن يبدو أن الزمان قد فرّق بينهما ولم يسمح بِلِقائهـــما ومع ذلك فإنه حريص على لقاء صديقه في وقتٍ قريبٍ.

3- العتاب :

قد يحدث في علاقات الشعراء ما يدعو إلى العِتاب واللّوم، وفي مِثل هذا الموقف يتودّد الشاعر بأبيات إلى صديقه ويُظهر تمسكه به رغم الجفاء الّذي حصل بينهما متسائلا عن سبب تغييره أو تجافيه، يقول ابن مرج الكحل(ت 634هـ)[3] لائما صديقه صفوان بن إدريس على التّهمة التي وجّهها إليه:

أَعَادَتْكَ مِنْ ذِكْرَى الأَحِبَّـــةِ أَشْجَـــانُ؟ فَقَلْبُـكَ خَفَّـــاقُ وَ دَمْعُـــكَ هَتَّـــانُ
تَحِنُّ عَلَى شَحْـطِ المِـــــزَارِ إِلَيْهِـــمُ ومِنْ دُونِ لُقْيَاهُـــم قِفَـــارٌ و بُلْـــدَانُ

---

[1]- هو محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن خليفة بن أبي العافية الأزدي ، غرناطي ، كُتَندي الأصـــل ، كان راويةً فقيهًا، متقدمًا في علم اللسان، بارعًا مُجيدًا ، شاعرًا كاتبًا بليغًا. ينظر: ابن الأبار، التكملة ، ج2، ص 59، ابن سعيد المغرب في حلى المغرب،ج2، ص264، صفوان بن إدريس: زاد المسافر، ص65.

* الأراك: شجر المسواك، و هو نبات شُجيري من الفصيلة الأراكية ، و الأراك أيضا شجر مجتمع يُستظل به.

**الدِّعْصِ: قطعة من الرمل مستديرة الشكل.

[2]- أبي عبد الله بن عسكر و أبي بكر بن خميس :أعلام مالقة ، تقديم و تخريج و تعليق عبد الله المرابط الترغي دار صادر ، بيروت- لبنان - ط1، 1420هـ/1999م، ص99.

[3]- هو محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم، يكنى أبا عبد الله، و يُعرف بابن مرج الكحل، من أهل جزيرة شقر، كان شاعرا بارعا، رقيق الغزل، حسن الكتابة. ينظر: المقري، نفح الطيب، ج5، ص62

خَلِيلَيَّ مَا فِي الأَرْضِ صَفْـــوُ مَــودَّةٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُصْفِــي المَــوَدَّةَ مِيــزَانُ
رَمَانِي بِـزُورٍ و هُوَ بِالحَـــقِّ عَالِـــمٌ و كُلُّ كَلَامِ الشـــرِّ زُورٌ وبُـهْتَـــانُ [1]

جاءت هذه الأبيات في الردِّ على التُهمة الّتي وجَّهها إليه أبو بحر صفوان بن إدريس بأنَّه يسرق أشعاره وينسبها إلى نفسه ، ويظهر فيها التأثر الواضح في نفس مَرج الكُحْل وكأنها تحمل معنى العتاب لهذا الصديق الحميم ، ويلحظُ أنّ الشاعر في البيتين الأولين يخاطب نفسه حول ما أصاب علاقته مع رفيقه أبي بحر ، فكأنه عبّر عن نفسه من خلال شخص آخر يكون مثله في تذكُّر الأحبة والتّشوق إليهم والحنين إلى لُقياهم وخاطبه بهذا التساؤل المُراد به التّعجب والإنكار والتّأنيب: كيف تتذكّر هؤلاء الأحبة فتعود إليك همومك وأحزانك ويخفق قلبك وتسيل دموعك؟ وكيف تحِنّ إليهم رغم التباعد والتجافي الواقع بيننا وبينهم؟ والغرض من هذا اللّون هو توبيخ وعتاب النّفس الّتي تُلحُّ عليه بتذكّر صديقة الذي صدَّ عنه، واتهمه بسرقة أشعاره، لذا عبّر بالقفـار والبلدان الّتي تحُول دون لُقياه، وفي البيت الثاني إشارة إلى هاجس القطيعة بين الشاعرين، وقد آثر التعبير بالجملة الاسمية في قوله:(فقَلبُك خَفاقٌ ودَمْعُكَ هَتَّانُ) وقوله:(ومِن دُونِ لُقْيَاهُم قِفَارٌ وبُلْدَانُ)لإفادة معنى التوكيد والتقرير لمضمونيهما، وقد قال:(رمَانِي بزُورٍ) أي اتهمني بسرقة أشعاره كذبًا وافتراءً ، ومن ثم طابـق بين الزُّور والحقّ لبيان بُطلان وبُهتان اتهامه ، وقد جاءت هذه الأبيات حارّة وصادقة ومؤثرة تحمل تعبيرًا وُجدانيًّا عميقًا وأثرًا قويًّا في ذات الشاعر المُرهفة.

وكتب أبو بكر الكُتُندي أبياتا يُعاتب فيها صديقه أبا علي بن كسـرى (ت 604هـ) بعد أن اتفق أن يجتمع معه في بستان ، فذهب بن كسرى مع جُملة أصحاب ، وترك أبا بكر، فلمّا عَلم هذا الأخير بالأمر، قال:

[1]– صلاح جرار: مرج الكحل الأندلسي سيرته و شعره، دار البشير ، عمان ، الأردن ، دط ، 1993م، ص135.

يَـا مُـولِـمَـــا قَـــدْ أَلَامَ(عَنَّـــا) لَـــمْ يُثْـــنِ قَوْمًـــا إِلَـــى مَـــزَارِهِ
جُـــدْتُ لَهُ مِنْ دَمِـــي بِمُـــزْنٍ وَضَـــنَّ بِالرَّشْـــفِ مِـــنْ قَـــرَارِهِ
جَنَّـتُـــهُ أُزْلِفَـــتْ لِغَيْـــرِي وَبُـــرِّزَتْ لِـــي جَحِيـــمُ نَـــارِهِ [1]

فالكُتندي يلُوم تلميذه الأديب أبا علي بن كسرى الّذي أغـــفل وعْـــدَه إياه واصطحب غيره في نزهة ، وخصّ سواه بِخَيره ووليمته ، فكأنما بصنيعه هذا أبْدَله نَاره بِجَنته.

4- الاعتذار:

قد نجد عند بعض ال شعراء والأدباء نصوص اعتذار على ما اقترفوه من تصرفات سيئة ، وأفعال مُؤذية تستلزم التبرير وتقديم الحُجة والعُذر للخلاص من العَتب هذا وإن دلّ على شيء فهو يدل على رِقة المشاعر الّتي تميّزوا بها.

ومن الأمثلة على هذا الغرض ما خاطب به الرصافي البلنسي مُعتذرا لصديقه أبي الحسن بعدم قُدرته على زيارته:

خَلَا أَن حَـالًا لَوْ قَضَـتْ بِتَفَرُّغِـــي إِلَى لَازِمٍ مِنْ حَـــجِّ مَنْـــزِلِكَ الرَّحْـــبِ
لَقُمْـــتُ لَهُ مَا بَيْـنَ أَعْـــلَامِ رَيَّـــةٍ * وَبَيْنَ حِمَـــى وَادِي الأَشَـــاءِ مِنَ الـتُّرْبِ [2]

يعتذر الشاعر من صديقه بأسلوب لطيف، فهو يرى أن زيارته واجبة ويُقرِنها بفريضة الحج ، فلو حصلت هذه الزيارة لهذا المنزل الواسع لكانت له بمثابة حجّة فكأنه يريد أن يَبْرأ من الذّنب الّذي ارتكبه بحقّ صديقه، كما يَبْرأ الحاج من ذُنوبه عند

[1]- ابن عسكر و ابن خميس : أعلام مالقة ، ص 109.

*مدينة بالقرب من قرطبة. ينظر:الحميري ، صفة جزيرة الأندلس، ص 81.

[2]- ديوانه: ص41.

إكماله لفريضة الحج ، وفِكرته جاءت لِما تَحمله هذه الفريضة من مكانة كبيرة في نفوس الأندلسيين.

وكتب ابن سعيد (ت 685هـ)إلى صاحبه أبي العباس الإشبيلي يعتذر إليه عن سوء تفاهم وقع بينهما ، فيقول:

عُذْرًا لِفَضْـــلِكَ يَا أُسْتَـــاذُ مِنْ صَخَبِي إِذْ لَيْسَ يَخْلُـــو ذَوُوا الآدَابِ مِنْ شَغَـــبِ
فَالكُلُّ مِنْهُـــمْ يَرُومُ السَّبْـــقَ مُجْتَـــهِدًا لِكَيْ يُرَى سَابِـــقًا نَـــوْعًا مِنَ الغَـــلَبِ
مَا نَطَقْـــتُ بِشَـــيءٍ قَدْ نَطَقْـــتُ بِـــهِ إِلَّا وَقَـــدْ مَلَـــكَتْـــنِي نَشْـــوَةُ الأَدَبِ [1]

يُظهر ابن سعيد في أبياته مدى اعتذاره لأستاذه أبي العباس ويقول بأنه التلميذ الّذي مَهما بلغ من الأدب فلن يخلو من الزّلل والشّغب ، وكُل من هُم في مجال الأدب يتطلعون إلى السّبق والغلب ، وكُل كلام نَطق به الشاعر إنما كان عن غير وعْي منـــه ورُبما قَاله في لحظة من النّشوة الأدبية.

ويتوجّه أبو جعفر بن عطية(ت553هـ)[2] برسالة اعتذار عن الحُضور لمجـــلس أُنس يقول فيها: "سَيِّدِي سَاعَدَك سِوَاك لِمَا وَصَلَ مِن أَخِيـك المُعْتـد رَسُولك، قَابَلَـه بِـمَا يُحِبّ من القُبُول ، وأبْدَى لَهُ مِنَ الشُّغْلِ مَا مَنَعَ مِنَ الوُصُول:

وَمَنْ ذَا الّذِي يَدْعِـــي لِعَدنٍ فَلَا يَـــرَى عَلَى الرَّأْسِ إِجْلَالًا إِلَيْـــــهَا يُبَـــــادِرُ

ولكن الاضْطِراب، لا يكُونُ معَه اختِيَار، وإنِّي لأشوق النَّاس إلَى مُشَاهدَة تِلْك المَـــكَارِم وأحبهم في مُحَاضَرة تلْك الآدَاب المُتَرَادفَة تَرَادُف الغَنَائِم ، ولكِن شَغَلَنِـي عَارِضٌ قَاطِـعٌ وبِرَغْمي أنِّي لِدَعْوَتِك عَاصٍ ولَهُ طَائِع ، وأنّي بَعْد ذَلِك لَحَامِل عَنْ تِلْك السَّجِينَـة الكَرِيمَة

[1]– القدح المعلى في التاريخ المحلى، ص96.

[2]–هو الكاتب الوزير أبو جعفر بن جعفر بن محمد بن عطية القضاعي كاتب الدولتين المرابطية والموحـدية، ولد بمراكش سنة 517هـ، نشأ مُحبا للعلم ساعيا لاكتسابه، فأجاد الأدب وأساليب الإنشاء، كما عُرف بطلاقة اللســـان وسلاسة القلم ، قتله عبد المؤمن بسبب كيد الوشاة، ينظر:المقري، نفح الطيب، ج5، ص183–184.

في الغُفْرَان مُسْتَجِير بالخَلَاصِ الّذِي أَعْهَد مِنْ خَرْقِ فُلَان ، ومَكْرِ فُلَان ، فَإِنّـي مَتَـى غِبْت لا أَعْدِم مُتَرَصّدًا فرحة يقَع عَلَيْها ذُبَابَة ، ومُسْتَجْمِعًا إذَا أَبْصَر فُرْصَة سَلّ عليْـهَا ذُبَابَة

وَلَـكِنَّنِـي أَدْرِي بِأَنِّـي نَـازِحٌ وَدَانَ سَـوَاءُ عِنْدَ مَنْ يَحْفَـظُ العَهْـدَا

وإنِّي لأَقُولُ وقَدْ غِبْتُ عَن تِلْكَ الحَضْرَة العَلِيّة، وجَانَبْتُ ذَلِكَ الجَنَـابِ السّامِـي والمَثَابَة السُنِيّة.

لَئِنْ غِبْـتُ عَنْ نُورِه نُورُ نَاظِـرِي فَحَسْبِـي لَدَيْـهِ أَنْ أَغِيـبَ عِقَابَـا

وَسَوْفَ أُوَافِيـهِ مُـقْـرًا بِزَلّتِـي وَفِـي حِلْمِـهِ أَنْ لَا يَطِيـلَ حِسَابَـا [1]

والملاحظ على هذه الرسالة أنها وُجهت إلى شخصية مرموقة ذات مكانة عالية تفُوق مكانة الكاتب، لما فيها من ذكر الصيغ الّتي تُعبّر عن الرفعة والسمو(الحضرة العلية، الجناب السّامي ، المثابة السنية) ، حيث يعالج فيها اعتذاره الشّديد عن عدم تلبيته للدعوة الّتي شرّفته بسبب انشغاله بأمْرٍ آخر، وقد تفنن في اختيار ألفاظ الاعتذار الّتي خاطبه بها(إني لأشوق الناس إلى مشاهدة تلك المكارم، إني لدعوتك عاص) وهو يُصور فيها نفْسَه المقهورة الّتي استدعتها الظروف لعدم الحضور بأسلوب اعتذاري يوحي بالوفاء لصاحب الفضل ، كما أن الرسالة عبارة عن مزيج بين نصيين أدبيين الشعر والنثر ، وقد زينها بالسجع في قوله:(سيّدي ساعدك سواك)،(وصل إلى أخيك المعتد بك رسولك)،(يحب من القبول)،(ما منع من الوصول) ،(مشاهدة تلك المكارم) (المترادفة ترادف الغنائم) ،(شغلني عارض قاطع)،(وإني لدعوتك عاص وله طائع) وجمل النص قصيرة ، ولكنها معبرة، وجاء أسلوب النص خبري قصد منه الإخبار بِحاله ومَشاغله الّتي حالت دون تلبيته للدعوة.

[1]– حكمت علي الأوسي :الأدب الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الخانجي ،القاهرة، مصر، دط،1976م ص182–183.

5- الدعوة :

يجد المتتبع لإخوانيات هذا العصر جُملة من المقاطع والقصائد يدعو من خلالها الأدباء والشعراء أصدقاءهم لحضور مجلس أدب أو أنس ، وقد كانت هـ ــذه الأشعار والمراسلات بمثابة بطاقات الدعوة المستخدمة في عصرنا ، والفارق أنها كتبت بأقلام أدباء، وبلغة شعرية تعكس ترفهم الأدبي .

فهذا أبو عبد الله التجاني يدعو صديقه ابن الأبار القضاعي إلى مجلس أدب بأبيات ، يقول فيها :

إن رَأَى سَيِّدِي الّذِي حَــازَ فِي العِلْـ ـمِ معَ الحِــلْمِ و العُــلَا كُلَّ غَايَـهْ
وَ حَـوَى المَجْــدَ عَنْ جُــدُودٍ كِـرَامٍ كُلُّـهُمْ فِي السَّمَاحِ وَ الفَضْلِ آيَــهْ
أَنْ أرَى عَنْــــه بِـالإِجَــــازَةِ أَرْوِى كُـلّ مَا فِـيهِ لِي تَصِـحُّ الرِّوَايَــهْ
مِــنْ حَدِيــثٍ وَكُلّ نَظْــمٍ وَ نَثْرٍ وَفُـنُـونٍ لَــهُ بِـهِنَّ دِرَايَــهْ[1]

لقد صوّرت الأبيات العلاقة الوثيقة الّتي كانت تجمع الشاعرين ، لذلك خاطب التجاني صديقه بكل عبارات الترحيب، والاحترام ، والتقدير من أجل دفْعِه للقدوم لهذا المجلس ، مُظهرا سعادته وسُروره بِحُضوره.

وكان الشعراء يدعُون أصحابهم للمشاركة في مجالس الأنس على طريقتهم الخاصة ، فهاهو ابن سعيد المغربي يكتب إلى صاحبه أبي العباس أحمد بن بلال يدعُوه ليوم أنس، ويُغريه بالملذّات من جوّ رائق ، وندامى، وخمر، وطيور ، ومياه حيث يقول:

أَبَا العَبَّــاس، لَــوْ أَبْصَــرْتَ حَوْلِــي نَدَامَــى بَـادَرُوا العَيْــشَ الهَنِيَّــا
يُبِيــحُــونَ المُــدَامَ وَلَا انْتِقَــادٌ وَقَارُهُــمُ وَيَــزْدَادُونَ غَــيَّـا

[1]- المقري: نفح الطيب ، ج4، ص120.

وَقَدْ صَـدَحَ الحَمَـــامُ وَمَالَ غُصْــنٌ وَأَمْسَـــى النَّـــهْرُ صَــبًّـا أَرْيَحِـــيًّا
فَبَـــادِرْ نَحْوَ نَـــادٍ مَا خَـــلَا مَــنْ نَـــدَاكَ فَقَـــدْ عَهِدْتُـــكَ لَوْذَعِــيًّا [1]

فالشاعر يقوم بِدعوة صاحبه بهذه الإغراءات الّتي لا تُقاوم، لِما عَهِد فيه من تلبية ومُبادرة للحضور، وذوقٍ رفيعٍ .

وللرصافي البلنسي أبيات يدعو فيها خليلا له إلى مشاركته نزهة وسط الطبيعة يقول فيها :

دَعَـاكَ خَلِيـــلٌ وَالأَصِـــيلُ كَأَنَّـــهُ عَلِـــيلٌ يَقْضِـــي مُدّة الرَّمَـقِ البَاقِـي
إِلَى شَـــطّ مُنْسَـابٍ كَأَنَّـهُ مَـــــاؤُهُ صَـــفَاء ضَمِـــيرٍ أَوْ عُذُوبَـة أَخْلَاقِ [2]

لقد ترافقت هذه الدعوة مع وقت الغروب، هذا الوقت الّذي يُشبه المريض في أيامه الأخيرة ، وتبدو هذه الصورة حزينة ، ولكن الشاعر واقع فيها تحت تأثير الطبيعة الساحرة الّتي ذكّرته بصديقه الّذي يُكنّ له المودّة والوفاء ، فعلاقته به صافية عذبة كصفاء الضمير الخالي من الحقد والكراهية.

6- الشكوى :

لقد كان في غدر الأصحاب وانقلاب حُبهم بُغضا ووفائهم عداوة ، واستهوائهم لمصالحهم المادية ، الأثر السلبي على نفسية الفرد ، مما دفع الشعراء إلى شكوى زمانهم وبني عصرهم وحالهم الّتي آلوا إليها، ولا غرابة أن تنسجم هذه الأشـعار مع الحكمـة وتقديم النصيحة ، والتحذير من خيانة الأصدقاء ،خاصة وأنها صدرت عن سنّ متقدمة بصاحبها ، بعد أن أكسبته فلسفة في الحياة كانت خلاصة تجاربه معها.

[1]- ابن سعيد : القدح المعلى، ص144.
[2]- ديوانه: ص 112-113.

يُقدم عبد العزيز بن أبي الصّلت (ت529هـ)[1] صورة شاكية لخيانة الرّفاق وكشف حقيقتهم اللاهثة وراء مصالحهم الشخصية ، خاصة بعد وقوع الشخص في ضيق حيث يحتاج إلى من يقف إلى جانبه و يمُد يَد العون له فلا يجد أحدا:

كَـمْ صَاحِـــبٍ غَرَّنِـــي بِظَاهِـــرِهِ وَخَانَ عِنْـــدَ السفَـــارِ وَالخبْـــرَه
يَزُورُنِـــي مَثْرِيًـــا وَيُـطْرِقُنِـــي وَلَا أَرَاهُ فِـــي الضِّيـــقِ وَالعُسْـــرَه
نَفَضْـــتُ مِنْهُ يَـــدِي وَقُلْـــتُ لَـهُ لَا أَشْتَهِـــي الخِـلَّ سَيِّـئِ العِشْـــرَه [2]

يبدو أن الشاعر أقدم على تغيير معاملته مع الناس، فالتزم الحذر وعدم الثقة بالأصحاب الّذي عدّهم في يوم من الأيام إخوان، لقناعته بأمان هذا القرار، ولضمان راحته واستقرار نفسه.

ولعل ألم الشكوى من ابتعاد الرفيق والقريب في الأزمات وحسدهم وغدرهم ، لم يَقل ألمًا من شكوى المجتمع بأسره ، في وقت بات فيه النـــاس ساعِين وراء التكسّـب والمصلحة ، وقلّ فيه الأصحاب ذوي الثقة والإخلاص، يقول أبو الصّلت:

مَارَسْتُ دَهْـرِي وَجَرَّبْـتُ الأَنَامَ فَلَـمْ أَحْمَـدْهُم قَطُّ فِي جَـدٍّ وَ فِي لَعِـبِ
وَكَمْ تَمَـنَّيْتُ أَنْ أَلْقِـى بِهِ أَحَـدًا يُسْـلِي مِنَ الهَـمِّ أَوْ يعْـدِي عَلَى النَّوَبِ[3]

وتحمل أبيات أبـي الفضل عبد المنعم الغساني (ت602هـ) في شكواه من بني عصره، بؤرة النظرة التشاؤمية لكل من حَوله من البشر، وما يرافقها من انعدام الثقة بجميع الناس حتى صار لا يثِق بنفسه أيضا، فيقول:

---

[1]– هو أُميّة بن عبد العزيز بن أبي الصّلت الاشبيلي ، وُلد بدانية سنة 460هـ، و تلقى علومه على يد نفر من رجال عصره المتقدّمين فنبغ في الطب و النجوم و الأدب، كان يُكنّى بالأديب الحكيم. ينظر: ابن سـعيد، رايات المبرزين ، ص63، ابن دحية :المطرب، ص 115.

[2]– الديوان : تحقيق محمد المرزوقي ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، دط ، 1974م، ص 93.

[3]– ديوانه: ص 59.

خَبِرْتُ بَنِي عَصْرِي عَلَى البَسْطِ وَالقَبْضِ وَكَاشَفتُهم كَشْفَ الطَّبَائِعِ بِالنَّبْضِ
فَأَنْتَجَ لِي فِيهِم قِيَاسِي تَخَلِّيًا عَنْ الكُلِّ إِذْ هُمْ آفَةُ الوَقْتِ وَالعَرْضِ
أُلَازِمُ كِسْرَ البَيْتِ خِلْوًا، وَإِنْ يَكُنْ خُرُوجٌ فَفَرْدًا مُلْصِقَ الطَّرْفِ بِالأَرْضِ
أَرَى الشَّخْصَ مِنْ بُعْدٍ فَأُغْضِي تَغَافُلاً كَمَشْيِهِ بَلَالٍ فِي مُهِمَّاتِهِ يَمْضِي
تَخَلَّيْتُ عَنْ قَوْمِي وَ لَوْ كَانَ مُمْكِنِي تَخَلَّيْتُ عَنْ بَعْضِي لِيَسْلَمَ لِي بَعْضِي[1]

ففي شكوى الدّهر ونكباته المُفاجئة صور مُشابهة لشكوى النّاس، كأن الاثنين شيء واحد، فالناس يتلوّنون ويتغيرون كالأيام و لا فرق بينهما، فحينما يصف الشعراء الأصحاب بالغدر والخيانة والخداع، فهم يُطلقون هذه الصفات أيضا على الدّهر ومصائبه. ومع ذلك فإن الشّكوى لدى هؤلاء الشعراء تبقى خُلاصة تجاربهم الشخصية مع الحياة بعيدا عن التكلّف والتصنّع، حيث غلب عليها الصّراحة والجُرأة الّتي تعكس حقيقة أزمة الفرد مع ذاته وهُمومه ومُحيطه.

7- التعازي :

من المناسبات الاجتماعية زمن المُوحّدين التعازي بالوفاة ، فحين يفقد الأندلسي أو المغربي عزيزا عليه ، فإن رُوح المواساة تتجلى عند الأهل والأصدقاء ، فيُعبّرون عن الحزن والألم الّذي ألمّ بهم ، ويتوجهون للتعزية بكلمات تُخفّف هَوْل المُصيبة ، فيكون التذكير بالصَّبر والتسليم بقضاء الله و قدره ، وقد كان الأديب يبكي بُكاءً مريرًا إثر فَقْد قريبٍ أو صديقٍ أو مَلكٍ مُدركًا ذهابه دون رجعة ، حيث يذكر فضائل هـ ، ويُظهر فداحة ما خلفّه فُقدانه من تداعيات ، بطابع يلفُّه الأسى والتأثر لِفراق ذلك العزيز .

[1]- المقري : نفح الطيب ، ج2، ص636.

ومِما يطالعنا من هذا الأدب رسالة أبي عبد الله بن الجنان الأندلسي[1] الّتي بعث بها مُعزّيا أبناء أستاذه سهل بن مالك الأزدي [2]عند وفاته ، و مُشاركًا ذويه في فَقْدهم هذا العالم الجليل ، حيث يقول:

دَعُونِي وَبِتِلْكَابَ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ فَدَعْوَى جَمِيلِ الصَّبْرِ دَعْوَةُ آفِكِ
أَصَبْرٌ جَمِيلٌ فِي قَبِيحِ الحَوَادِثِ خَلَعْنَ عَلَى الأَنْوَارِ ثَوْبَ الحَوَالِكِ
تَنَكَّرَتِ الدُّنْيَا عَلَى الدِّينِ ضَلَّةً وَمِنْ شِيمَةِ الدُّنْيَا تَنَكُّرُ فَارِكِ
فَضَمَّنَهَا حُكْمُ الرَّدَى بِرِدَائِهِ فَتِلْكَ وَهَذَا هَالِكٌ فِي الهَوَالِكِ
وَسَلَ عِنْدِي أَنْ أَرَى الحُزْنَ مَالِكِى مُصَابِي بِالفَيَّاضِ سَهْلِ ابْنِ مَالِكِ
إِمَامٌ هُدًى كُنَّا نُقَلِّدُ رَأْيَهُ كَتَقْلِيدِ رَأْيِ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكِ
غَمَامٌ نَدَى كُنَّا عَهِدْنَا سَمَاحَهُ يُسَاجِلُ دَرَّاتِ العِمَادِ الحَوَاشِكِ
أَحَقًّا قَضَى ذَاكَ الجَلَالُ وَقُوِّضَتْ مَبَانِي مَعَالٍ فِي السَّمَاءِ سَوَامِكِ
وَأَقْفَرَ مِنْ نَجْدٍ مِنَ المَجْدِ رَبْعُهُ وَعُمِّرَ قَبْرٌ مُفْرَدٌ بِالدَّكَادِكِ [3]

"حديثُ الأشجان شُجُون وَوُجُوهُ القَراطيسِ به كوُجوه الأيّام جُوْن، فأصِخْ إِلَيَّ أبُثّك بَثّي و اكتِئابِي، أو أعِرني نظرةً في كِتَابي، لِتَعلَمَ ما بِي ، فعندي ضَرَب الأسَى خِيامَه وعَلى ورْدِي أطَالَ بَاغِي الأَسَى حيامَه...فَلَو أَنَّ احْتِدَامِي*والتَّدَامِي**،وجَفْنِي الدَّامِي اطَّلَعَتْ عَلَى بَعْضِهِ الخَنْسَاء ، لَقَالَتْ هَذِهِ عَزْمَةُ حُزْنٍ لَا يَسْتَطِيعُهَا النِّسَاء، ذَلِك بِأَنَّ

[1]– هو الكاتب البارع ،الحافل الأديب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن الجنان، من أهل الرواية و الدراية و الحفظ و الاتقان، كان مُحدثًا ، كاتبًا بليغًا، شاعرًا بارعًا ، رائق الخط ، توفي ببجاية عام650هـ. ينظر: الغبريني ،عنوان الدراية ، ص 349.

[2]– هو أبو الحسن سهل بن بن محمد بن سهل بن أحمد بن مالك الأزدي الغرناطي ، كان من أعيان مِصرِه، وأفاضل عصره، تفنن في العلوم و البراعة في المنظوم و المنثور، توفي بغرناطة سنة 650هـ. ينظر: ابن سعيد ، اختصار القدح المعلى ، ص60 ، ابن الخطيب: الإحاطة ،ج4 ، ص 277.

[3]– ابن عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة ، ج2، سفر4، ص104–105.

* الحَدْمُ: شدّة إحماء الشيء بِحرّ الشّمس أو النار، ينظر:ابن منظور، لسان العرب،المجلد12، مادة حَدَمَ، ص117.

**اللّدْمُ: الضّرب، و التدام: النّساء ضربن صُدورهنّ ووجوههنّ في النّياحة . ينظر:المرجع نفسه ، مادة لَدَمَ،ص539.

قِسْمَةَ المَرَاثِي كَقِسْمَة المِيرَاث، وللذُّكْرَان المَزِية –كَانَ السُّرُور أَو الرَّزية– عَلَى الإِنَاث هَذَا لَو وَازَنَ مَبْكِيٌّ مَبْكِيّا، ووازَى تُرَابِيٌّ فَلَكيّا، أنَا أَبْكِي نُورَ العِلْم، وهِيَ تَبْكِي ظُلْمَةَ الجَهْل نَدَبْتُها لصَخْر ، وَندبتنِي لجَبَل يُدْعَى سَهل، كانَت تتَفَجَّر مِنْه الأَنْهَار، وينهَالُ جَانِبهُ من خِشْيةِ الله أو يَنْهَار....فيا ليتَ شِعْري يَوْمَ وَدَّع للتّرحَال ، ودَعَا حَادِيهِ لشدِّ الرِّحَال كَيْفَ كَانَ حَاضِرُوه فِي تِلْكَ الحَال ؟ هل استَطَاعُوا مَعهُ صَبرًا ؟ ، أو أطَاعوا لتثْبِيتِهِ أمْرًا ؟ أَوْ ضَعُفَ احْتِمَالُهم، وَقَوِيَ فِي مُفَارَقَةِ النّفُوس اعتِمَالهم؟...يَا قَدّس الله مَثْوى ذلك المُتوفي ، مَا أظُنّ أَنَّ الجَزَعَ عَمّ حَقَّهُ وَوفّى، وَلَو دَرى الزَّمانُ و بَنُوهُ ، قَدْرَ مَن فَقَدُوه ، لَوجَدُوه لِلفَاجي الفَاجِع أَضْعَافَ ما وَجَدُوه ، فَقد فَقَدوا وَاحِدًا جَامِعًا لِلعَوالِـمِ ومَاجِدًا رَافِعًا لأَعْلَامِ المَعَالِي والمَعَالِم، ومُفَدّى تَقِلّ لَه فِي الفِدَاءِ نُفُوس الأَوِدّاءِ والأَعْداءِ، و مُبَكّى مَا قَامَتْ عَلى مِثْلِهِ النَّوَائِحِ، و لَا حَسُنَتْ إِلَّا فِيهِ المَرَاثِي كَمَا حَسُنَتْ مِن قَبْلُ المَدَائِح"[1] .

يرسم الشاعر في أبياته مشهدا يُعبّر فيه عن شِدّة حُزنه وجَزعِه على فِراق شَيخِـه وبينما هو يبكي وينُوح عليه يطلب من النّاس الّذين يُذَكِّرونه بالصّبر أن لا يمنعوه من أن يصُب دُموعه المنهمرة تعبيرا على ألمه، مُتعجبا من الدّعوة إلى الصّبر في حَال المصائب والنكبات المفجعة ، هذه النّكبات الّتي تجعل النّور ظلاما ، وفي تعبير الشاعر ب(تسكاب – تفعال) ما يُفيد التكثير والمبالغة في سَكْب الدّموع، ثم أكّد بعد ذلك بأنها (سوابك– فواعل) صيغة منتهى الجموع ، وهو يرى أنّ ما يَخْرج من عَيْنَيه ليست دموعًا، وإنما ذهب وفضة يفقدها لِفَقد شَيخه العزيز على قلبه، ويُبين أن الدنيا تتنكّر لعلماء الدّين فهي كالمُبغضة لهم ، وتمضى الأبيات مُشيِّعة الفقيد ، ومُعدّدة مناقبه في جو مَهيب ، فالمُتوفى إمام نُقلد رأيه كتقليد الإمام مالك والشافعي رضي الله عنهما وهذا التشبيه يشير إلى عُلو مكانة المرثي الدينية، وتبحُره في الفتوى والفقه ، فهو من

[1]– ابن عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة ، ج2، سفر4، ص104–109.

أصحاب المكانات الّتي تدل على رِفعته ومَجْده ، ويزن وزنًا كبيرًا في إحسَانه وأفضاله لذلك فالشاعر يُشكِّك في خبر الوفاة ،ولا يريد تصديقه مُعبّرا عن ذلك بهمزة الاستفهام التي أدخلها على كلمة (حقا) ، وكأنّه يخاطب نفسه اليائسة بأن يكون خبر الوفاة مجرد شائعات، وكلام يتَناقله النّاس فيما بينهم دون تمحيص ، مُحاولًا التخفيف من وطأة الخبر عليه. والقصيدة طويلة وفيها إشارات إلى عِلم المرثي وحكمتـه ، ومكانته، فهو لِواء الشّرع ، ودارس لكتاب الله تعالى وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وزاهدا في الدنيا.

أما القطعة النثرية فقد استهلها المُخاطب بكل ما من شأنه التأثير في المتلقي من جناس ناقص في لفظتي(اكْتِئابِي، كِتَابِي) ولفظتي(شُجُون، جَوْن)، والسّجع في قوله: (أعِرْني نظرةً في كتابِي لأبثّك ما بِي)، كما عمد إلى توظيف المشتقات مثل (الأشجَان شُجون)و(أبثّك، بَثّي) لتأكيد المعنى وترسيخه أكثر في ذهن المُتلقي، وبعد أن أعْرب ابن الجَنان عن شدّة أسَفه لهذا المصاب الجلل، يستحضر مأساة الخنساء [1] في فقدها لأخيها "صخر" الّذي بَكته ورثته بقصائد عديدة ،لأن مصابهما واحد يتمثل في فَقْد رجل عزيزٍ على قومه، لكن لا يوجد مجال للمقارنة بين الرجلين، فصخر هو رمز للجهل والظلام أما ابن مالك فهو رمزا للنّور والهداية والعلم، كما أن لغة النص فصيحة راقية تعكس ثقافة المُخاطِب الدينية ، وقد عبّرت هذه الرسالة الّتي زاوجت بين الشعر والنثر عن الحالة الّتي حاول ابن الجنان تصويرها، وهي نقل صورة الأسى الّتي يعانيها جرّاء وفاة أُستاذه ، والإحساس بِلَوْعة فَقْده ، مُؤكدا أن الموت قضاء لابدّ منه، فضلا عن أنّها تُترجم عواطف المحبّة والتواضع، وهي تصدر من عالم تتلمذ على يَدِ فقيدٍ ذا شأن بالعلم ونفاذ رأي وسُمو هِمّة ، وهذه مشاعر إنسانية صادقة.

[1]– هي تماضر بنت عمرو السّلمية، صحابية و شاعرة مُخضرمة من أهل نجد، أدركت الجاهليـــة و الإسلام اشتهرت برثائها لأخويها صخر و معاوية. ينظر:القاضي إسماعيل، الخنساء في مرآة عصرها، مطبعة المعارف بغداد، دط ،1962م، ج1، ص47.

ومن العلماء الّذين افتقدتهم الأندلس :أبو الوليد بن رشد الّذي كان صديقا لكثير من الأدباء ، وعندما تُوفِي ، كتب أبو الحسن سهل بن مالك (ت639هـ) رسالة إلى أبناءهيُعزيهم في أبيهم، ويحضّهم على استشعار الصّبر من بَعْدِه ، يقول فيها :

أَلَا لَيْتَ شِعْــرِي هَلْ لِطَالِبِ غَايَــةٍ وُصُـولٌ وَأَحْــدَاثُ الزَّمَــانِ تَعُـوقُـهُ
مَضَـى عَلَمُ العِلْـمِ الَّذِي بِـبَـيَانِـهِ تَبَيَّــنَ خَافِـيــهِ وَبَـانَ طَــرِيقُــهُ
أخِــلايَ إِنِّـي مِنْ دُمُوعِــي بِزَاخِـرٍ بَعِــيدٍ عَنِ الشَّـطَــيْنِ مِنْهُ غَرِيقُــهُ
وَمَا كَـانَ ظَنِّــي بَعْدَ فَـقْدِ أَبِيكُــمُ بِـأَنّ مُصَابًـا مِــثْلَ هَذَا أُطِيقُــهُ
وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَشْقَـى الثَّلَاثَـةِ بَعْـدَهُ: أَأَبْـنَـاؤُهُ أَمْ دَهْــرُهُ أَمْ صَـدِيقُــهُ
وَمَنْ شَاهَــدَ الأَحْــوَال بَعْدَ مَـمَاتِهِ تَيَقَّــنَ أَنَّ المَــوْتَ نَحْــنُ نَـذُوقُــهُ
رُجُوعًـا إِلَى الصَّبْرِ الجَمِـيلِ فَحَــقَّهُ عَلَـيْنَا قَضَـى أَلَّا تُوَفّى حُقُوقُــهُ
أُعَزِّيكُــمْ فِي البُعْــدِ مِنْـهُ فَإِنَّنِـي أُهَنِّــيـهِ قُـرْبًا مِنْ جــوَارٍ يَرُوقُــهُ
فَمَا كَــانَ فِيــنَا مِــنْهُ إِلّا مَكَانَـهُ وَفِـي العَالَــمِ العُلْـوِي كَـانَ رَفِيقُــهُ[1]

"إيه عَنِ المدَامِعِ ،هَلْ تَلا انحِدَارَ الدَّمْعةِ انْحِدَارُهَا، والمَطَالِعِ ، أَثْبَتَ عَلى قُطبِ مَدارُها ، والفجَائع ، أغَيْرُ بَنِي رُشدٍ دَارَها ؟ فإنَّه حَديثٌ أتعاطاهُ مُسْكرًا ، وأسْتَرِيح إليهِ مُفَكِّرًا ، وأبُثهُ بَاعِثًا على الأشجَانِ مُذكرًا، ولا أقولُ : كفَى ، وقد ذهَبَ الواحِدُ أرى به ألفًا ولا صَبْرًا ، وقد أُسْكِنَ قبْرًا ، بل أُعرِي الأجْفانَ من مَائِها ، وأستوهِبُ الأشجَانَ غَمرَةَ غَمائِها ، وأسْتَدْعِيَ الأحزانَ بالشَّهيرِ من أسْمَائها ، ثم أتَهَالكُ تهَالُكَ المَجْ ـنُون، وأسْتَجِيرُ من الحَيَاةِ بريبِ المَنُون، وأُنافرُ السلْوَ مُنافرةَ اليقينِ لِوَسَاوِسِ الظُّنُونِ...أسْتَغْفِرُ الله ، فَقَد أتَذَكّرُ مِنْ مَفْقُودِنَا رضِيَ الله عَنْه حِكَمَهُ ، وأُشاهدُ بِعَيْنِ البَصِيرةِ شِيَمَهُ... اللهُمّ صَبِّرنَا عَلى فَقْدِ الأُنْسِ بالعِلْم، وَأَدِلْنَا مِن خُفُوفِ الوَلَهِ بِوَقَارِ الحِلْم، وَأخْلِفهُ مِن بَنِيــه وعَامّةِ أَهْلِيه، مَا أَولَيْتَهُ فِي جِوارِك المُقَدّسِ تُولِيه...وَأَمّا حُسْنُ العَزَاء، عَلى تَعَاقُبِ هَذِه الأَرْزَاء

[1]– ابن عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة ، مج2، سفر4، ص114.

فَأَمْرٌ لَا أهَبُهُ بَل أَسْتَجْدِيه، ولَا أُذَكِّرُكُم بِه وَنَفْسُ صَبْرِكُم مُتَوغِّلَةٌ فِيه، فَسِوَاكُم يُلْهَمُ إلَى الإِرشَاد، ويُذكَّرُ بِطُرُقِ الرَّشَاد ، جَعَل الله مِنكُم لِآبَائِكُم خَلَفًا ، وأَبْقَى مِنكُم لِأَبْنائِكم سَلَفًا ولا أَراكُم بَعْدَها سَلَفًا، بِمنّ الله وكَرمِهِ، والسَّلام[1].

الرسالة رقعة نثرية ابتدأها الكاتب بدُرر شعرية ، وحين نستنطق هذه الدُرر نلمس نغمةً حزينةً على فقدان رمزٍ من رُمُوز العلم ، وطودٍ من طود الحلم، فالمُخَاطِب يُبيّن مرارة فراق ابن رشد بكثرة دُموعه المُنهمرة ، ثم يُحسن التقسيم في أي الثلاثة شقاءً بابن رشد : أبناؤه أم دهره أم أصدقائه ، مُوضحا أن الموت سيصيب الجميع ولن يترك أحدا كما يطلب من ذويه الّذين ترك أثر الفَقد في قلوبهم الحسرات واللّوعات أن يقتدوا بالصّبر والعزاء بمن سبقوه ، وهو يُحيل فراقه إلى صورة من صور وداع الكُرماء، فبعد أن وارى التراب جسده ، أنِست القبور بهذا الإنسان الجليل ، غير أن الوحشة سادت المكان من بعده ، وقد ألبَسه الكاتب ثوب المجد ممزوجا بلواعِج البُعد.

كما تُظهر القطعة النثرية تعزية صادقة بعد أن أسْبغ المُخاطِب المعاني السامية الرفعة على المُتوفي، وأشار إلى أن الدنيا تأخذ الناس أصحاب المقامات الرفيعة، والعِلم الغزير ، فكان فُقدانه من أعظم المصائب الّتي نزلت به، وهو لا يجد إلا دُموعه وهي أضعف ناصِر ليُبيّن فيها وفاءه لابن رشد ، كما يُذَكر أهل المُتوفي بضرورة لزوم الصّبر والسلوان من بعده ، وذلك لأنهم يتصفون بالصفات الحسنة ،ويُدركون أن الموت نتيجة حتمية لكل البشر، ونلمس براعة اختيار الألفاظ في الدلالة على حقيقة مشاعر الكاتب ، وهي بعيدة عن الصَّنعة اللفظية الّتي لا تُعبّر عن عاطفة الوفاء الحقيقي ونجد طباق في النص يتمثل في قوله:(اليقين /الظنون) كما عمد إلى توظيف السجع في قوله:(اللهم صبّرنا على فَقد الأنس بالعلم)،(أدلنا من خُفوف الولَه بوقار الحلم) (سواكُم يُلهم إلى الإرشاد)،(ويذكّر بطرق الرّشاد) ،(جعل الله منكم لآبائكم خلفا)

[1]– ابن عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة ، مج2، سفر4، ص 115–116.

(وأبقى منكم لأبنائكم سلفا)، وجُمل النص فصيحة ومُعبرة عن الغرض المقصود، وقد صاغ ذلك كُلّه بلغة راقية نلمس فيها صدق التعبير ومرارة الحزن.

وتبدو السّمة المُميزة لأدب التعازي لدى عصر المُوحّدين ، اتصالها الوثيق بالشكوى من وقع المصيبة ، وتكبّد الفجيعة، واشتمالها على الحِكم والمواعظ والنصائح المُجدية بالإيمان بقضاء الله وقدره، كما عكست هذه الرسائل جانبا من أعراف المجتمع ومعتقداته عند الموت وفَقد الأحِبة ، وهي بذلك تُمثّل مَظهرا دالّا على التعاطف الإنساني وتبادل المشاعر النّبيلة.

سادسا: النقد الاجتماعي

رافق الأدب العلاقات الاجتماعية وصوّر واقع المُوحّدين، فرصد مواضع الفساد ووجّه سِهامه إلى أمور تتصل بعادات الناس ، وطبائعهم وأخلاقهم وصفاتهم، ووضع يده على مواطن العيب والخلل، فالتقطها بعينٍ ناقدةٍ، وبيّنها للمجتمع في صورة تثير السخط والاشمئزاز.

وقد بلغ النّقد الشخصي مبلغًا كبيرًا في هذا العصر ، حيث راح الشعراء ينتقدون الرذائل الخلقية ، ويُصورون الآفات الاجتماعية كالزندقة ، وميل الناس إلى الكذب والغيبة والنميمة ، وغير ذلك من الصفات القبيحة ، فهذا الشاعر أبو حريز الشريف (ت583هـ) يَسُب ابن مرج الكحل ويتّهمُه بالشؤم والكفر، فيقول :

تَبَّتْ يَدَا مَرَجِ الكُحُولِ فإِنَّهُ أَفْنَى الأَنَامَ بِشِعْرِهِ المَشْؤُومِ
قَدْ أَهْلَكَ الإِسْلَامَ شُؤْمَ مَدِيحِهِ هَلَا أَشَارَ بِمَدْحِهِ لِلرُّومِ[1]

[1]– ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة ،ج5، السفر8 ، ص82.

وشارك النثر الشعر في نقد الأمراض الخُلقية ، يتمثل ذلك بقول أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي (ت 623هـ) من خلال رسالة لأحد أصحابه ، يقول فيها : " وأنّى يَصِحّ لَهُ ذَلِك مَع مَا اشْتَهَر عَنْهُ مِنْ كَوْنِه نَمّامًا للأَسْرَار ، نَقّالًا لِمَا يَسُوء مِنَ الأَخْبَـار مَولِعًا بالفُضُول ، كَثِير الخُ رُوج والدّخُول ، وَلَّاجًا عِنْد فُلَان وفُلَان، كَثِير التَّضْرِي ب والإفْسَاد بَيْن الإخْوَان ، مَعَ لُزُوم الثقَالَة والمُظَاهَرة بِالتّقَلب والاسْتِحَالة ، لا يَشْكُر كَثِير الإحْسَان ، ولَا يَغْفِر قَلِيلَ الإسَ اءَة ، بِسَاط المُنَادَمة مَعَه لا يُطْوى أبدًا ، أسْقط عَلَى المَسَاوِئ مِن كَلْبٍ عَلَى جِيفَة ، وأَلحّ فِيهَا مِنْ ذُبَابٍ عَلَى قُرْحَة ...."[1] .

فالرسالة تومِئ إلى عناصر النّقص والاختلال في الصّفات الأخلاقية المحمودة للإنسان ، بحيث تمكّن الكاتب من التّشهير بصاحبها والاحتقار له ، والإنقاص من منزلته في نظر مجتمعه، ونلاحظ أن التركيز على الصّفات السّلبية من أبلغ أنواع النقد فالنّميمة شر وفتنة ، فمِن أين يكون له الخير والصلاح ؟ والغيْبة دنس وعار فمِن أين له النقاوة و الصفاء؟ والتنكّر للخير والجُحود لُؤْم ، فمِن أين يكون له الكرم والوفاء؟.

وتعرَّض صفوان بن إدريس التجيبي إلى وصف أحد أصحابه الأكُولين فقال:

وَصَاحِـــــبٍ لِي كَانَــتْ طَبَائِعُـــهُ كَأَنَّهَا سُحُـــبٌ بِالسَّـــوْطِ مُنْهَمِـــرَهْ
إِذَا أَحَـــــسَّ بِمَأْكُـــولٍ تُقَـــدِّمُـــــهُ يَكَـــادُ يَسْبِـــقُ فِيهِ حَلْقَـهُ بَصَـــرَهْ
كَأَنَّ فَاهُ عَصَـــا مُوسَـــى إِذَا انْقَلَبَـــتْ وَمَا تُقَـدِّمُـــهُ إِفْـــكٌ مِنَ السَّـحَـــرَهْ [2]

يصف الشاعر شراهة صديقه الّتي تتميّز بقابليتها الفائقة لِبلع والتِهام الطّـعام والّتي تُشبه السّحب المُحَمّلة بالمطر الغزير الّذي لا يتوقف ، فما إن يُحِس بمأكول يُقدّم إليه حتى يسبق فمه بصره ، فتشعر أنك أمام عصى موسى عليه السلام حينما انقلبت

[1]– ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ،ج1، ص75.

[2]– ابن الأبار: المقتضب من تحفة القادم ، ص139.

أفعى لتلقف حِبال وعِصي السَّحرة ، تضمينًا إشاريًّا لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنَ اَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَافِكُونَۖ ﴾[1].

وسخِر أبو بكر بن مغاور (587هـ) من المُلتحين المُتسترين بالدّين ، فهُم يشهدون الزّور ويَقْبلون الرشوة من أجل مصالحهم الشخصية، ويصفهم الشاعر بأنهم إخوان الشياطين ، فيقول:

أنَـا إلَـى الله مَـاذَا حَـلَّ بِالدّيـنِ مِنَ الطِّـوَالِ اللِّحَـى البِيـضِ العَلثَـينِ
بَاعُـوا رِضَى الله وَابْتاعُوا مَسَاخِطَـهُ و غَـيَّرُوا الشَّـرْعَ لِلهِ لِلـدِّيـنِ
أَضْحَـتْ شَهَادَتُـهُم بِالزُّورِ نَاطِـقَةً إِنَّ الشُّـهُـودَ لأَعْـوَانُ الشَّـيَاطِـينِ[2]

وكانت صفة البُخل من الصفات الَتي أكْثر الشعـراء من تناولـها في شـعرهم ونثرهم ،ومن ذلك وصف ابن سعيد لأخلاق أهل الأندلس وعاداتهم، فقال: "وهُم أَهلُ احْتِيَاط و تَدبِير فِي المَعَاش وَحِفْظ لِما فِي أَيديهِم خَوفًا ذُلّ السؤَال، فلِذَلك قَد يَنسِبُون لِلبُخل...و لقَد اجْتَزتُ مع وَالدي على قَريَةٍ مِن قُراهَا، وقد نالَ مِنَّا البَرد والمَطر أشد النّيل، فآوَينا إِليهَا ، وكُنّا على حَال تزّقب مِن السّلطان وخُلو مِن الرّفاهِية ، فَنزَلْنا فِي بَيت شَيْخٍ من أَهْلِها ، من غَير معْرفة متقَدّمة، فقال لنا : إن كَان عنْدَكُم ما أَشْتَري لَكُم فَحمًا تسْخنون بِه فإِنّي أَمضِي فِي حَوائِجكُم ، وأَجْعَل عِيَالِي يقُومُون بِشَأنِكم، فَأعْطَيناه ما اشْتَرى بِهِ فحْمًا ، فأَضْرَم نارًا، فجَاء ابنٌ له صَغِير لِيصْطَلي ، فَضَربَهُ، فقَال لَهُ والِدي: لِمَ ضَرَبْتَهُ؟ فقال : يَتعلّم استِغنَام مَال النّاس ، والضّحر للبَردِ مِن الصِّغر،ثم لمّا جاء النّوْم قَالَ لابنِهِ : أَعْطِ هذَا الشّاب كسَاءَك الغَلِيضة يزيدُهُما علَى ثِيابِهِ ، فدفَعَ كسَاءهُ إِليَّ، ولمّا قُمْنَا عند الصَّبَاح وجَدْتُ الصّبِي مُنْتَبهًا ويَدهُ في الكِسَاء، فقُلت ذلِك لوالِدي ، فقَال هذه مُرُوءَات أهْل الأَندلُس وهَذا احتيَاطهم، أَعْطَاك الكِسَاء وفَضّلك على

[1]– سورة الأعراف : الآية117.

[2]– التجيبي: زاد المسافر، ص50.

نَفْسِهِ ، ثم فَكّر فِي أنّك غَرِيب لَا يَعْرِفُ هَل أَنْت ثِقة أو لِص، فَلم يَطِبْ لَهُ منَام حَتى أَخذَ كِسَاءَه خَوفًا مِن انفِصَالِك بهَا ، وعَلَى هَذا الشيء الحَقِير فَقَس الشَّيء الجَلِيل"[1].

وكان هذا الحرص الّذي أشار إليه ابن سعيد مدعاة لاستثارة قريحته، حيث ألحق صفة البُخل على أصحاب المنزل الّذي دخله، مما دفعه إلى انتقادهم واحتقار صنيعهم ووصفهم بعدم السّخاء في الجود و العطاء.

وبلغت ذروة النقد عند بعض الشعراء إلى التعرض لهجاء نفسه ، كما فعل الشاعر ابن حزمون [2] الّذي يقول:

تَأَمَّلْــتُ فِي المِـرْآةِ وَجْهِــي فَخِلْتُـهُ كَوَجْــهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَـارَتْ إِلَى اللَّــهْوِ
إِذَا شِئْتَ أَنْ تَهْجُــو تَأَمَّــلْ خَلِيقَتِي فَإِنّ بِهَـا مَا قَدْ أَرَدْتَ مِــنَ الهَجْــوِ[3]

يُقدم لنا ابن حزمون صورته الحقيقية بعد أن رسمها رسْمًا كاريكاتوريًّا مُضحكًا استوحاه من رؤيته التأملية الساخرة لشكله العام ، حيث شبّه نفسه بامرأة عجوز قبيحة المنظر وذات وجه ذميم ، ونرى أن هذه الصورة المُضحكة على الرغم من بشاعتها فإنها تتميز بقدرة فائقة في التحكم بالأسلوب الشعري من جهة ، وبالبراعة الفنية في دقة المُحاكاة من جهة أخرى.

ومن الشعراء من تعرض لنقد مدينة بأكملها بسبب جفاء أهلها، كما فعل أبو العباس الجراوي يهجو فاس، فيقول:

---

[1]– المقري: نفح الطيب، ج1، ص224.

[2]– هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن حزمون، من المرية، كان شاعرا ذاكرا للآداب و التواريخ ، بذيء اللسان مقذع الأهاجي ، و قد نال عند قضاة المغرب جاهًا و ثروةً خوفًا من لسانه. ينظر :المراكشي، المعجب، ص216.

[3]– المراكشي: المعجب، ص216. فوزي عيسى : الهجاء في الأدب الأندلسي، دار الوفاء لِدنيا الطباعة والنشر الاسكندرية– مصر– ط1، 2007م، ص162.

يَا ابْنَ السَّبِيـــلَ إِذَا مَـــرَرْتَ بِتَـــادْلَا لَا تَنْزِلَـــنَّ عَلَى بَنِـــي غَفْـــجُـــومِ
قَوْم طَوَوْا طُنُـــبَ السَّمَاحَـــةِ بَيْنَهُـــم لَكِنَّـــهُـــم نَشَـــرُوا لِـــوَاءَ اللَّـــوْمِ
يَا لَيْتَـــنِي مِنْ غَيْرِهِـــمْ وَلَوْ أَنَّنِـــي مِنْ أَهْلِ فَاسٍ مِنْ بَنِـــي المَلْجُـــومِ [1]

فالشاعر في هذه الأبيات يُندّد ببني غفجوم أشراف مدينة فاس ، ويرى أنهم أشرار النّاس لِئام لا ينبغي الائتمان لهم ، ويذكر جُبنهم وذُلهم وبُخلهم ، وعَيّرهم ضُعفهم فهم لا يستطيعون حماية أعراضهم ، وهو يتمنى أن لا يكون من هذه القبـيلة وذلك لما مسّه من شرّهم.

ونلاحظ أن النقد الاجتماعي قد قلّ على نحوٍ ملحوظٍ ، ولعل السبب يعود إلى تجنب عدد من الأدباء مثل هذا اللون الغاضب الساخط ، وقد استبعد إحسان عباس أن تكون الندرة عائدة إلى قصور في الطبيعة أو عجز في الملكة الفنية ، وإنما ذلك راجع إلى رقابة أخلاقية[2] كانت ترى في هذا اللّون من الأدب شيئا مُنافيا للقيم الخُلقية.

ومن خلال ما تناولناه في هذا الفصل يمكن استنتاج ما يلي:

– تميّز الفرد الموحدي بوَعْيه لما يحيط به وسعيه لنقل واقعه، فترجمه أدبًا ظل شاهدًا على حياة مجتمعه و حضارته.

– تُعد الأسرة الأساس الّذي تقوم عليه المجتمعات، لذلك كان الزواج أهم رباط يجمع بين المرأة والرجل ، وكان له قوانين وقواعد حددتها الشريعة الإسلامية، وسار وِفقها الناس ، ومع أن الإسلام يدعو إلى عدم المغالاة في المهور، إلا أن الناس كانوا يَرَوْن في غلاء المهور مدعاة للتباهي والتفاخر.

[1]– ابن سعيد: الغصون اليانعة، ص 99.

[2]– ينظر: إحسان عباس، هل كان الشعر في الأندلس سببًا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها، مجلة الأصالة ، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية ، العدد 27، الجزائر ، 1395هـ /1975م، ص 191.

– إن أشد الفراق الّذي قهر الإنسان في عصر المُوحّدين هو الفراق الأبدي ، فلا شيء يؤثر في الفرد كفراق أهله وأحبابه بعد رحيلهم للدار الأخرى ، لذلك كان لهذا الحدث طقوسه الخاصة في هذا العصر، كلبس البياض رمزًا للحزن والحسرة.

– من مظاهر تشَبثهم بمبادئ الدين الإسلامي احتفالهم بالأعياد الدينية، كعيد الفطر وعيد الأضحى، وإحيائهم لليلة المولد النبوي الشريف، وكانت هذه الاحتفالات سَببًا لبث روح الأخوة والمحبة بين الناس ،إذ غالبا ما كانوا يتبادلون الزيارات والهدايا فيها.

– كثُرت المجالس الأدبية في تلك الفترة فمِنها ما كان يعقِده الخـلفاء في قصورهـــم وكانت تضم أجَلّ الأدباء والشعراء، كما عقدت المجالس في البيوت وأماكن العمل، وقد كانت هذه المجالس من أبرز العوامل الّتي ساعدت على تطوّر الحياة الأدبيـــة وازدهارها ، كما كانت دافعًا قويًّا على الارتجال والابتكار والإبداع.

– وانتشرت كذلك مجالس الأنس والطرب والرقص بالرغم من الأساس الديني الّذي قامت عليه دولة المُوحّدين ، وحِرص الخلفاء على محاربة ما نَهى عنه الشّرع كالخمر والغناء ، و كل ما يُفسد الأخلاق.

– وجدت المرأة الرِّعاية الكافية من الثقافة في كنف الدولة المُوحّدية ، فضلا عن تأثرها بالحركة الأدبية ، فصار لها نصيب وافر في مضمار الشعر الّذي برعت فيه مما جعلها تُنافس قريناتها من نساء المشرق، و تتفوق في بعض الأحيان على الرِّجال.

– للزوجة عند الأندلسيين والمغاربة مكانة كبيرة ، ليس من السّهل نسيانها عند مماتها لذلك رثى الشعراء زوجاتهم ، و ذرفوا عليهن الدّموع بقلبٍ يتفطَّر ألمًا و تفجّعًا ، وينمُّ عن أسى بليغ ، وحُزن عميق.

– إن إقبال الأدباء والشعراء على فن الإخوانيات بصورة متنوعة بين موضوعاته بات أمرًا طبيعيًّا ، نظرًا ل لروابط الاجتماعية الّتي ربطتهم بالعامّـة والخاصة من المجتمع

وبذلك أثمرت هذه الصّلات أدبًا زاه رًا ، يتمثل فيه جانب العلاقات الأ خوية وأوضاع اجتماعية ، وقيم أخلاقية تعبّر عن روح العصر ، كما كانت – إلى جانب ذلك – فرصة لاستعراض مقدرتهم وبراعتهم الأدبية.

– لقد تركت إخوانيات هذا العصر أثرًا مُمتعًا وطيّبًا في النفس لأنها ذات إطار إنساني واجتماعي ، فهي تُخاطب النفوس الواعية من جوانب مختلفة، وتُقرّب بينها مما يُؤدي إلى سعادة أبناء المجتمع الواحد.

– إن رسائل وأشعار التعازي وبتنوع أضْربها كانت تحتل مكانة رفيعة في الإخوانيات لِما لها من صدقٍ في المشاعر، وإبراز تماسك أفراد المجتمع، ومُساندة الصديق للصديق والأخ للرفيق ، فهي تحمل معنى اجتماعي، فلا عُذر لمن غابت تعزيته وبعُدت مُواساته.

– ترفّع العديد من الأدباء والشعراء عن نقد الآخرين واستباحة أعراضهم، وذلك لأخلاقهم الفاضلة الّتي منعتهم من الخوض في هذا الغرض.

سنتطرّق في هذا الفصل لبعض المظاهر الحضارية في أدب الدولـــة المُوحّــدية وسنحاول الوُقوف على أهم تجليات الحضارة في المغرب والأندلس، من خلال استجابة الشعر والنثر لمختلف الأحداث الّتي عرفتها العُدوتان في هذه الحقبة التاريخية ، بُغية إتمام المشهد الّذي تشكّلت لدينا بعض من ملامحه في الفصلين السابقين.

أولا: المظهر الديني

قامت دولة المُوحّدين على أساس ديني يدعو إلى التمسّك بجوهر العقيدة الإسلامية والعودة إلى أصول الشريعة وإقامة الأحكام، هذه الفكرة الّتي نادى بها زعيمهم الروحي محمد بن تومرت وأمرهم بالممارسة الدّينية الّتي كانت الطابع المُميز لتلك الدولة، ومن أبرز مظاهر إقبال الموحدين على خدمة الدين الإسلامي:

1- الالتزام بتعاليم الإسلام:

وقد جعلوا التوحيد هو العمود الفقري الّذي تبنى عليه دولتهم، فهو من" أولى مباني الإسلام ...ورُوحه ومعناه، والقاعدة الّتي لا يثبت العمل دون تأصيلها والرابطة الّتي لا يقبل الدّين دون تحصيلها" [1]، لذلك سمّى المهدي أتباعه بالمُوحّدين، كما أسّس مذهبه على العدل وتقوى الله تعالى وهو ما يتضمنه قوله في إحدى رسائله:" والّذِي نُوصِيكُم به تقْوَى الله العَظِيم ، والعَمَل عَلى طَاعَتِه ، والاسْتِعانة بِه والتَّوَكّل عَلَيْه واتبَاع الكِتَـاب والسنَّة وتَعْليم التَّوْحيد فإنَّه أصْل دينُكُم وبِه تصْلُح أعْمَالكُم، والمُحَافظة على الصلَوات فِي أوقاتِها ...وائْتَمِروا بالمَعْرُوف وتَنَاهَوا عنِ المُنْكَرِ، واقْطَعُوا سُوءَ السِّيرَة وجَمِيع عَوَائِد الجَاهِلية " [2] لذلك نَمَت صفة التديّن بين أفراد المجتمع حيث يقول ابن

[1]- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: إحياء علوم الدين، دراسة وتحليل بدوي طبانة، مطبعة كرياطة فوترا، سماراغ دت ، ج4، ص240.

[2]- عبد المجيد النجار: تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1415هـ-1995م، ص93.

جبير:" وليتحقَّق المُتحقِّقُ ويعتقد الصّحيح الاعتقاد أنّه لا إسلام إلّا ببلاد المغرب، لأنّهم على جادّة واضحة ، وما سوى ذلك ممّا بهذه الجهات المشرقية فأهْواءٌ وبِدع، وفِرقٌ ضالّة وشِيع ، إلّا من عَصم الله عز وجل من أهلها، كما أنّه لا عدل ولا حق ولا دين على وجه إلّا عند المُوحّدين، فهُم آخر أئِمة العَدْل فِي الزّمَان ، وكُل مَن سِواهُم مِن المُلُوكِ فِي هذا الأوَان، فعَلَى غيْر الطريقة" [1]، لقد قارن ابن جبير بين بلاد المسلمين في المغرب والمشرق ، وقد اعتبر المُوحّدين النّموذج المثالي للمسلمين نظرا لتطبيقهم شرائع الدّين ، كما نعت أهل المشرق بالضلال والاستسلام للأهواء ، وتحدّث بأسى بالغ عن الفوضى المذهبية الّتي عمّت الدّيار المشرقيّة، فقد غدا النّاس فِرقًا وشِيعًا لا دين لهم وتفرّقوا مذاهب شتى، وانعكس ذلك على شعائر العبادات المفروضة ، وعلى العلاقات بين هذه الفئات.

2- المصحف الإمام:

وهُو مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه الّذي كان بالجامع الأعظم بقرطبة وقد وصفه عبد الواحد المراكشي بقوله:"وهذا المصحف الّذي ذَكرنَاه وقَع إِلَيهِم من نُسَخ عثمان رضي الله عنه، من خَزائنَ بنِي أميّة ، يحْمِلونه بين أيدِيهم أنَّى توجَّهوا على نَاقة حَمْراء عليْهَا من الحُلي النّفِيس، و ثِيَاب الدِّيبَاج الفَاخِر ما يَعْدل أمْوَالا طَائِلة، وقد جَعَلُوا تَحْتَه بردَعَة من الدّيبَاج الأخْضَر يَجْعَلونَه علَيْها، وعن يَمِينِه ويَسَارِه عِصْيان عليهِمَا لِواءَان أخْضَران، ومَوْضِع الأسِنّة مِنْها ذَهب شِبه ثُفَاحتين" [2] لقد خصص المُوحّدون لِحمل المصحف الإمام ناقة حمراء ، حلّوها بأنفس الأحجار ، ووضعوا فوقها بَردَعة مزيّنة بالديباج ، وجعلوا على جانِبيه رايَتين خَضراوَيْن.

[1]- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ص56.

[2]- عبد الواحد المراكشي : المعجب، ص 186.

وقد تفنّن المُوحّدون في توشِية هذا الإرث الدّيني بالجواهر النّفيسة والأحجار الكريمة ،حيث يقول ابن صاحب الصلاة :" فالمصحَف المُكرّم مُنظَّم حَوْل حُفاظِه بالجَوْهَر النّفِيس واليَاقُوت الأحْمَر، والأصْفَر، والأخْضَر الغَرِيب، والزّمُرد العَجِيب ، وقد جُلبت أحْجَار اليَاقُوت والزّمُرد والجَوْهر إلى الخَلِيفة الأول الرّضي خليفَة المهدي ثم لابنه أمِير المُؤمِنين بن أمِير المُؤمنين، ونظّم بِها حُفاظ هذا المُصْحف المُكرّم ، وكُلّل بها جَوانِبه إكْلِيلا"[1] ويظهر من هذا القول العناية الفائقة الّتي أولاها الخلفاء لتزيين المصحف وتحْليَته بكل غالٍ ونفيس عِرفانا منهم بقيمته الدينية، فتباروا في هذا الشأن وبلغوا الغاية وهذا يعكس شدّة إيمانهم ، كما ينِم عن الثراء الّذي بلغته هذه الدّولة من خلال كثرة الأحجار الكريمة ، من ياقوت وزُمرّد.

وقد سجّل الأدب جهود الخلفاء في الاهتمام بالمصحف العثماني منذ الخليفة عبد المؤمن إلى أن اقتدى به بقية أبنائه من بعده ، وقد خصه ابن حبوس الفاسي[2] بقصيدة بعدما أمر عبد المؤمن بتزيين المصحف، وإظهاره في أبهج حُلة ، وأقشب ثوب، فقال:

أَلْبَسْتَـــهُ مِنْ رَائِـقِ الحَلْـــيِ مَا يَعْجـــزُ جِيذُ الدَّهْـــرِ عنْ حَمْلِـــــهِ
فَمِنْ حَصَـى اليَاقُـوتِ حَصْبَـاؤُهُ* وَتِبْـرُهُ يُغْـــنِيـــــهِ عَـــنْ رَمْلِـــــهِ
كَأَنَّمَـــا الأَصْبَـــاغُ فِيـــــهِ وَقَـــدْ تَآلَـــــفَ الشَّكْـــــلُ إِلَـى شَكْلِـــــهِ

[1]– ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة ، ص351.

[2]– هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسين عبد الله بن حبوس ، وُلد في مدينة فاس سنة 500هـ، ونشأ فيها على طلب العلم و نظم الشعر ، وحبوس جدّه ، كان من موالى بنى أبي العافية الذين ملكوا المغرب الأقصى أيام دولة بنى أمية في الأندلس ، وقد ظهر نبوغه مبكرا حتى فاق أهل زمانه في قرض الشعر ولُقب بشاعر الخلافة المهدية (الموحدية) ، وتقرّب من ملوكها وحظي عندهم بعناية خاصة ، وقد توفي سنة (570هـ) ، ينظر : عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ص 67.

*الحصباء: الحصا وصغار الحجارة.

زَخَـــارِفُ النُـــوَّارِ فِي رَوْضَـــةٍ هَـــرَاقَ فِيـــهَا اللَّيْـــلُ مِنْ طَلِّـــهِ
فَـــاضَ أَتِـــيُّ الحُسْـــنِ فِي كُلِّـــهِ فَكُلُّـــهُ يَـــعْجِـــزُ عَـــنْ كُلِّـــهِ[1]

لقد رسم الشاعر لوحةً لهذا المصحف وقد رُصع بضروب الحُليّ المختلفة الألوان ، وزُخرف بأجْود الأحجار الكريمة، والمعادن الثمينة من ياقوت وذهب ومرجان فتآلفت ألوان كسوته واتّسقت، فجاءت قِمّة في تناسب الأشكال، مثل روضة غنّاء تفتّحت في أرجائها أنواع الوُرود والنّوار، مما زاد المنظر بهاءً وروعةً ونضارةً.

وقال عبد الله بن عياش (ت 618هـ) في المصحف الإمام لمّا أمر المنصور بتنميقه بالدُرر النفيسة:

ونَقَلْـــتَ مِنْ كُـلِّ مُلْـــكٍ ذَخِيـــرَةً كَأَنَّهم كَانُـوا بِرَسْـــمِ مَكَاسِبِـــــهْ
فَإِنْ وَرِثَ الأَمْـــلَاكَ شَـرْقًا وَمَغْـــرِبًا قَـد أَخَلُّـــوا جَاهِلِيـــنَ بِوَاجِبِـــــهْ
وَأَلْبَسْتَـــهُ الدُّرَّ وَالِيَاقُـــوتَ حِلْيَـــةً وَغَيْـــرُكَ قَـدْ رَوَاهُ مِنْ دَمِ صَاحِبِـــهْ [2]

يتحدث الشاعر في أبياته عن الحُليّ التي جلبها المنصور من مختلف الأمصار من أجل تزيين المصحف العثماني، فعلى الرغم من قيمتها إلا أنها لم توفّه حقّه كما يجب، ويقارن في البيت الأخير بين صنيع الخليفة بالمصحف وتحلِيتِه بالدرّ والياقـــوت وما فعله به قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما لطّخوه بدمه.

كما نظّم أبو الحسن بن القطّان أبياتًا بمناسبة وضع الخليفة المصحف الشريف في حِجره ، حيث قال:

إِمَامُ المَصَاحِـــفِ فِي حِجْـــرِ مَـــنْ بِـــهِ حَفِـــظَ اللهَ هَـــذَا الأَنَـــامْ

[1]– عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، ج2، ص817.
[2]– ابن الخطيب : الإحاطة ،ج3، ص 236.

وَنَاهِيكَ مِـــنْ مُصْحَـــفٍ كُرِّمَـــتْ بِحِجْـرِ الكَرِيـــمِ سَلِيـــل الكِـــرَامْ [1]

لقد أُعجب ابن القطان بمنظر المصحف وهو موضوع في حِجر المنصور، وهذا الأمر زاده شرفًا، وقد ربط الشاعر بين المصحف العثماني ومدح الخليفة الموحدي رغبة منه أن يُظهر اهتمام الممدوح بالدّين فهو راعيه وحاميه.

ومَهْما يكن فإن الأدب المُوحّدي قد صوّر لنا اهتمام الخلفاء بالمصحف الشريف واحتفالهم به، كما وصف حليته الرائعة ، وكسوته الغالية الثمن، البهية الّتي تخطف الأبصار وتأخذ الألباب.

ثانيا:المظهر السياسي

اتبعت الدولة المُوحّدية نظامًا سياسيًّا مُحكمًا من أجل السيطرة على كامل أقاليمها فاهتمت بتنظيم الإدارة وتنويع أجهزتها لضمان السير الأمثل لشؤون البلاد ، ومن مظاهر ذلك:

1- نظام الحكم :

دخل نظام الحكم عند المُوحّدين مرحلة جديدة بعد وفاة ابن تومرت ، فتحوّل من نظام اختياري إلى نظام وراثي، خصوصا بعدما تقلّد عبد المؤمن كُرسي الخلافة حيث جعل الحكم وراثيًّا في بنِيه، وبقيت هذه القاعدة مستمرة طيلة حكم المُوحدين للمغرب والأندلس.

واتخذت الدولة من البَيْعة صبغة رسمية لها، و هذا حسب ما تُبيّنه لنا رسالة أبي جعفر بن عطية الخاصة ببيعة عبد المؤمن، حيث يقول:"و قد وصلنا أخوكم الشيخ أبو محمد ، وابنكم أبو الحسن، وصاحبكم الشيخ الكاتب أبو عبد الله بن زرقون أكرمكم الله

[1]- نظم الجمان : ص21.

بتقواه، فأدّوا من حقّ هجرتكم البرّ ما قلّدوه، ونالوا من خير الزيارة و البيعة ما عقدوه ثم انصرفوا مَبْرُورين مَسْرُورين بما لقُوه من بركة هذا الأمر الكريم ، ووجدوه وقام عذركم وفقكم الله على ساقه فقَبِل، ومثَّل ولاؤكم نائِبا عن الوُصول فوصَل"[1] وتُظهر هذه الرسالة وصول الوفد إلى حضرة مراكش لأداء بيعة عبد المؤمن.

2- مراقبة ولايات الدولة:

وقد اهتم الخلفاء بمراقبة ولايات الدولة ومدى عناية الوُلاة بأمور الرّعية وقيامهم بواجباتهم ، وكان المنصور المُوحّدي ينتهج هذا الأسلوب مع وُلاته في تفقّد أحوالهم وشؤونهم في ولاياتهم ، ومدى التزامهم بمهامهم عن طريق سؤال القادمين إليه من مختلف الرّبوع "وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأوّل ما يسألهم عن عُمّالهم وقُضاتهم وولّاتهم، فإذا أَثنوا خيرًا قال: اعلموا أنّكم مسؤولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن امرؤٌ منكم إلّا حقّا"[2] وربّما تلا في بعض الأحيان قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾[3] فالخليفة المنصور كان يحرص على تقصي الأخبار والحقائق من مصادر مختلفة لتفقّد أحوال المدن والأقاليم للاطمئنان عليها ، والكشف على تقصير عُمّاله حِرصًا منه على مُحاسبة المُنشغلين عن مهامهم.

3- حث الوُلاة على تقوى الله تعالى:

نظرا للأهمية الكبيرة الّتي أولاها الحاكم لمنصب الوالي، فقد عمد عند تنصيبه أن يُقدم له مجموعة من الأوامر والمهام الّتي كُلّف بها لضمان حسن التصرف مع الرعية وهذا ما تشير إليه هذه الرسالة "...ووصيْنَاه بِتَقوَى الله تَعالَى وهي وصِية الله الجَامِعة

---

[1]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية، ج1، ص 110.

[2]- عبد الواحد المراكشي: المعجب ، ص 208.

[3]- سورة النساء: الآية134.

بالعباد والذخيرَة النّاقِصة للمَعَاد، والّتِي سَمّاها الله خَير الزاد، وأمرْنَاه أن يَلْتَزِم العَدل الّذي أمَر الله تَعَالى بإلزَامِه، وأن يَعمل فِي استِقَاء أشدّ اعْتِزَامِه، وأن يَقْضِي الوَاجِبَات الخزنية غَير مُسَامح منها" [1] ولا شك أن هذه الأوامر والمهام من شأنها أن تجعل الوالي ينتهج الطريق الصحيح في تنفيذ الحق ، وإقامة العدل بين الخَلق، ونُصرة الضعيف.

4- الحرص على مصالح الرّعيّة:

لقد تدخّلت الدولة للحدّ من تجاوزات ساعي البريد والمسمّى بالرّقاص الّذي كان يأخذ من سكان المناطق الّتي ينزل بها تكاليفه، و يُلزمهم بِزاده وعَلف حِصانه، هذا ما نستشفه من خلال الرسالة الّتي بعث بها عبد المؤمن إلى عُمّاله حيث يقول:" وإنّ ممّن يسْعَى في نَوْعٍ مِن أنْوَاعِ الفسَاد، ويصطَحِب الإضْرَار بالمُسْلِمين في الإصْدَار والإيرَاد هَؤُلاء الرّقَاصِين الذِين يَرُدُّون الكُتُب، ويَصْدرُون ويَمشُون فِيما بَيننا وبَينَكُم ويَنْفرُون، فَإنّهُ ذُكِر لَنا أَنّهم يَأْخُذُون النّاس بِالنَّظر في كَلَفِهم ويُلزِمُونَهم فِي زَادِهِم مِن كُلِّ مَوضِع وعَلَفِهِم، هَذَا فِعْل كُلّ فِرقَة مِنهُم فِي سِيَرِها، وسُوءَ رَأْيِهم فِي المخَازِنِ وغَيرِهَا ..." [2] ويظهر أن عبد المؤمن مُستاء من الرّقاصين الّذين حمّلوا النّاس فوق طاقتهم، واشترطوا عليهم زادًا يكفيهم في مجيئهم وانصرافهم، وعلفًا لخيولهم، وهذا يعكس تتبّع الخلفاء لكل أمور الرّعيّة.

5- النّظر في المظالم:

نظرا لكثرة المظالم والاستهتار بحقوق النّاس، لجأ خلفاء تلك الفترة بتخصيص يومٍ مُعيّنٍ للاستماع لتظلمات الرّعايا، بُغية الاقتصاص من الجَائِرين، وحِفْظًا لكرامـــة الناس وحقوقهم، يقول ابن صاحب الصلاة:" ولمَّا كان يوم الاثنين التاسِع عشَر من اليوم

[1]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية ،ج1، ص 236.

[2]- ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص 198.

المَذْكور أَمَر بِفتْح الباب المُغلق المَعْروف بِباب الأسْطُوان الّذي كَان مِن عَادَته الجُلُوس فِيه ، وبُسطت فيه أَحْمال الحَصى والرّمل ، وفُرشَت في وَسط صَحن الدّار التي يَمشِي فِيها النّاس، وطُبِع المَوضِع على أَرتَب هَيئة تقدّمت ، وجلس رضي الله عنه ودخل عَليه أشْيَاخ المُوحدين، وقام الوزير بترتيب الدّخول بالنّاس" [1] ويتّضح من هذا الخبر أن الخليفة تخيّر مكانا حَسن الترتيب للنظر في شكاوى المظلومين، وقمع الظالمين أمام مرآى الحاضرين ، وهو ما يبيّن سعي الخلفاء لتحقيق العدل بين الرعية.

6- حُسن التعامل مع البلدان المجاورة:

حرص الحُكام المُوحّدون على الالتزام بأخلاق الإسلام مع البلدان المجـــاورة وعدم إلحاق الأذى بهم ، تأصيلا لقيم التسامح الّتي يدعو لها ديننا الحنيف، وهذا ما نلمسه في الرسالة التي بعث بها أبو الرّبيع سليمان المُوحّدي إلى ملك غانة لمّا بلغه عن سوء معاملته لتجار مسلمين فقال:"نحنُ نَتجَاوز بالإحسَان وإن اختَلَفْنا في الأَديَان، ونتّفق على السِّيرة المرضية، ونَتَآلَفُ على الرّفقِ بالرّعية، ومَعلُوم أنّ العَدلَ مِن لَوازم المُلوك فِي حُكم السياسة الفَاضِلة ،والجُور لَا تُعانِيه إلا النّفُوس الشريرة الجَاهِلة، وقد بَلغْنَا احْتِباس مسَاكِين التُّجَار من التّصرف فِيما هُم بِصَددِه ، وتردُّد الجَلابَة إلى البَلد مُفِيد لِسُكانِها ومُعِين عَلى التّمَكن من استِيطَانِها، ولو شِئنا لَاحْتَبسْنا من فِي جِهَاتِنا مِن أهل تِلك النّاحِية، لكن لَا نسْتَصْوِب فِعله، ولا يَنْبَغِي لَنا أن نَنْهِي عن خُلق ونأْتِي مِثْلَهُ" [2] وهذه الرسالة مع ما فيها من الإيجاز فهي بليغة المعنى، رشيقة المبنى، حوَت دروسًا وعِبرًا في السياسة وقرنتها بالأخلاق، كما نوّهت أن بُعد النّظر والتصرف بحِكمة يقِي من سوء المنقلب، فلو شاء أبو الرّبيع لعامَله بالمِثل لكن خُلقه القويم والمتشبّع بمبادئ الإسلام

[1]- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 332-333.

[2]- أحمد عزاوي :رسائل موحدية، ج1، ص211.

منَعه من التّعدي على ضِعاف الخَلق، ثم إنه يُدرك أن اقتصاد البلاد لن يقوم مع ظُلم العباد.

ثالثا:المظهر العسكري

اهتمت الدولة المُوحّدية بالجيش وتَهيئته لعِلمهم بدوره في استقرار البلاد، كما سعت لصنع الأسلحة المختلفة الّتي تساير التطورات التقنية الموجودة في ذلك الوقت للتحضير الجيّد للمعارك.

1- تدريب الجيش:

سعى الخلفاء الموحدون لتكوين نخبة عسكرية قادرة على القيام بالمهام المنوطة بها، فكان تدريب الجيش محور اهتمام عبد المؤمن بن علي حيث كان" يُدخلهم داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف، يأخذهم يومًا لتعلّم الرّكوب، ويومًا بالرمي بالقوس ، ويومًا بالعَوم في بُحيرة صنعها خارج بُستانه مربعة الشّكل طول تربيعها نحو ثلاثة أرباع ، ويومًا يأخذهم يجدفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة، وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده" [1]، ونفهم من هذا القول مدى إدراك الخليفة لأهمية التدريب، واكتساب اللياقة البدنية في إعداد المُجندين. كما يُعيّن لهذا الجيش قائد" لِقوْد العساكر وطلب العدو الغادر" [2] ومن صلاحياته "سد الثغور والدفاع عن البلاد برفع السيف في وجه الأعداء"[3].

[1]- ابن القطان: نظم الجمان، ص139.

[2]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية ، ص 447.

[3]- نفسه: ص 449.

2- راية الموحدين:

تلعب الرايات دورًا كبيرًا في قيادة الجيش في الحروب والاستعراضات، لذلك عمل المهدي بن تومرت على اتخاذ راية تليق بدولته،" فأمّا رايَتَه المَنْصُورة المُتقدّمَة بين يَديْه ففي أحَد وَجهَيها الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله، وفي الوجه الثانـــي وما من إله إلّا الله، و ما توفِيقِي إلّا بالله و أُفوِّض أَمري إلى الله" [1] فهي راية تليق بفكرة التوحيد الّتي بنيت عليها دولتهم، كما أنها توحي بالوقار والهيبة، وتُعبّر عن فكرة التسليم المُطلق لله تعالى ، والاستعانة به والتوكّل عليه في كلّ الأمور.

3- الدعوة قبل الحرب:

كان الحُكام المُوحّدون يلجئون لدعوة الخصوم للاستسلام قبل شنّ الهجوم عليهم لتجنّب الخسائر البشرية والمادية، مثلما يظهر في رسالة أبي جعفر بن عطية الّتي بعثها لطلبة قسنطينة سنة547هـ حيث يقول فيها: " وقَد عَلِم مَن علِم ما منَّ الله مِن فتْحِ هَذِه الأقطَار، أنَّ مَنْ كَان بها زُعمَاء الخَسائِر والبوَار، ورُؤَساء الاسْتِعلاء الجَاهلي والاستِكبَار، إنّما حقَّتْ علَيه كَلِمة العذَاب والدّمَار، بَعد تَقدِيم الإنذار إليهم والأعْذار والتّربص علَيهم أمَدًا طَويلًا رَجَاء الاستِبصَار، فلمّا أَبَوا ما دُعُوا إليه من الحق، واغْترُّوا بما عَايَنوه من اللُّطف والرِّفق أَحلّ الله بهم من ضُرُوب الانتقام ما صيّرهم عِبْرةً لِمن يَعْتَبر"[2] في هذه الرسالة ذِكر للعذاب والعقاب الّذي سيصبّه عبد المؤمن بن علي على كلّ من لم يستجب لندائه، فالبوار والدمار والهزيمة والعار مآل الّذين يتخلّفون عن البيعة أو يترددون فيها، وقد جاءت لهجة الرسالة قوية فيها إيمان بالنصر والظفر وثقة بهزيمة المعارضين، وخاصة حاكم قسنطينة آنذاك وهو يحيى بن عبد العزيز الصنهاجي الّذي طالبه أن يتنازل عن المدينة، و يطلب الأمان من الخليفة.

[1]- ابن القطان: نظم الجمان، ص168.

[2]- ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ، ص19.

4- الخطط الحربية:

ولعل من أبرز الخطط الحربية الّتي استعملها الجيش المُوحّدي أسلوب تضييق الخناق على الأعداء، بفضل الحصار على المدينة المراد الاستيلاء عليها وتطويقـــها ومنع وصول الإمدادات إليها، وغالبا ما كان الحصار يدوم مدة طويلة يتم عزل الخصم من خلاله بهدف إرغامه على الاستسلام والخضوع للشروط ، أو الانضواء تحت اللواء وقد استخدم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أسلوب الحصار في فتح قفصة حيث" كانت حول البلد غُروس وبنَايَات وعْرَة المَسَالك وضَيِقة المنافذ، وأُغلقت المدَاخـــل إليهـــم والمخارِج، فَأخذ المُوحدون فِي هدْمِها ونَظَرُوا في إزالتِها، ونقَلُوا مضَارِبَهم بحيثُ يسمَعُون سِرَارَهم، ويتعرّفُون مع اللحَظَات أحْوالهم، وأحْدقُوا بهم أتم إحْداق، وأحَاطُوا بمدِينَتِهم إحاطَة الأطْوَاق للأَعنَاق، وشَدّوا عليهم أُنْشُودة الحصَار والعِناق، ولم يَجِدوا مَنْفسًا لانسِراب ولا مَذْهبًا لارْتِفاق" [1] لقد أرهق طول الحصار سكان المدينة ، الّذين تيقنوا أن الموت جاءهم من جميع الأبواب، ولا ملجأ لهم إلا الاستسلام والخضوع للمُوحّدين الّذين دخلوها آمِنين.

5- وسائل القتال:

تُعدّ الأسلحة من أبرز الأدوات الّتي استخدمها المُوحّدون في مقارعة الأعـــداء وتحقيق النصر والحـفاظ على النفوس ، حيث كان القتال لدى الأندلسيين سمـــة بارزة وواضحة في المحافظة على الدولة الإسلامية من النصارى .

واستجابة لمثل هذه الظروف الّتي سادت البيئة الأندلسية ، فإن صناعة الأسلحة وآلات الحرب كانت على درجة كبيرة من الأهمية ، حيث يتجلى فيها الجانب الحضاري المتمثل في طريقة الصنع والإتقان لأنواع الأسلحة وأشكالها.

[1]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية ، ج1، ص 154.

وقد اعتز المُوحّدون بما حازوه من سلاح ومُعدات حربية، لأنها تُعبر عن أنفسهم وعِزتهم، وتُثبت وُجُودهم، وترفع من مكانتهم ، فتغنّى شعراؤهم بهذه الأدوات حتى أصبحت سمة التباهي والتفاخر بأنواعها ، واقتنائها من ضروريات العصر ، ومن المُقومات الّتي قامت عليها الدولة المُوحّدية، ومن أهم هذه الأسلحة:

أ- السيف:

هو أشرف الأسلحة عند العرب وأكثرها شيوعًا في القتال، وهو سلاح هجومي ووسيلة فعالة في الدفاع عن النّفس، فضلا على أنه أداة تُلازم الفرد أينما حل وارتحل في حالتي الحرب والسلم، ولقد قيل إن العرب كانت تطعن به كالرمح وتضرب به كالعمود، وتقطع به كالسكين ، وتجعله سوطا ، وتتخذه جمالا في الملأ ،وسراجا في الظلمة، وأنيسا في الوحدة ، وجليسا في الخلاء ، وضجيعا للنائم ، ورفيقا للسائر ، وهو قاضي القتال وفيصل الحُكم بين الرجال[1].

وقد أشارت الرسائل المُوحّدية إلى استعمال المُوحّدين للسيف في عدّة مواطن منها :"استلحمت السيوف أحزاب الضلال"[2]، أي أحيطت السيوف بالعدو من كل الجهات وقهرته لأنه مُخالف لمنهج النبي(صلى الله عليه وسلم) وسُنته. كما امتلأت بتمجيده أشعارهم لأهميته في توطيد الدولة الإسلامية، والحفاظ عليها من المعتدين ، يقول أبي الربيع المُوحدي:

لَمْ يُبْـقِ سَيْفُـكَ مِنْهُمُ مَنْ يُنْبِئَـ ـنَ بِقتْلِـهِـمْ وَ لَبِئْسَـتِ الأنبَـاءُ[3]

---

[1]- ينظر:علي عبد الرحمن بن هذيل، حلبة الفرسان و شعار الشجعان ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، دار المعارف للطباعة و النشر، مصر، 1951م، ص187.

[2]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية، ج1، ص247.

[3]- ديوانه ، ص 25.

فسيف الممدوح عند أبي الربيع يُبيد الأعداء عن آخرهم ، فلم يبق من يُنبئ بهزيمتهم ومَقْتلهم.

ويقول الجراوي يُصور أثر السيوف في الأعداء:

وَنَازعَتْهُم سُيُوفُ الهِنْـدِ أَنْفُسهُـــمْ فَلَمْ يُفِدْه ـــمْ عَنِ الهَيْجَـــاءِ تَعْرِيـــدُ*

هُمْ عَلَى التُّرْبِ صَرْعَى مِثْلَهُ عَدَدًا إِنْ كَانَ يُقْـضى بِأَنَّ التُّرْبَ مَعْـدُودُ[1]

يصف الشاعر هيمنة سيوف الهند المعروفة بحدّتها وجودتها في أرض المعركة وقد نالت من الأعداء فأسقطتهم قتلى.

وقد يجمع الشعراء بين ثلاثة أسلحة : الخيل، والرّماح ، والسيوف، وهي عُدّة الفارس المحارب ، من ذلك قول أبي الرّبيع مُصورا رباطة جأش ممدوحه :

للهِ جَأشُـــكَ و الصَّوَارِمُ تُنتَـضَـى وَالخَيْـــلُ تَـرْدِى وَالأَسِنَّةُ تُشْـرَعُ[2]

وقوله :

وَلَمْ أرَ مِثْلَ السَّيْفِ مُثْلِـفَ أَنْفُـسٍ وإِنْ كَانَ فِي بَعْضِ المَوَاطِنِ شَافِيـــا[3]

وهو ينظر فيه إلى قول عنترة بن شداد:

وَسَيْفِـى كَانَ في الهَيْجَـــا طَبِيبًـــا يُـــداوِي رأْسَ مَن يَشْكُـو الصُّـدَاعَا[4]

---

* التعريد: الفرار.

[1]– عبد الله كنون: مشاهير رجال المغرب،ج2، ص887.

[2]– ديوان أبو الربيع الموحدي : ص21.

[3]– نفسه : ص30.

[4]– الخطيب التبريزي : شرح ديوان عنترة بن شداد: قدم له ووضع حواشيه مجيد طراد ، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان– ط1 ، 1992م، ص90.

يُشبّه الشاعر سيفه بالطبيب والخصم بالمريض الّذي يشكو من الصـــــداع و بواسطة سيفه يقتلع رأس خصمه، فيستريح من عِلّته الّتي تُؤرقه.

ب- الرمـــــــح:

من الأسلحة القديمة الّتي استعملها المسلمون في حروبهم، ويأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية القتالية ،و دوره في سحق الأعداء والدفاع عن الإسلام، لذا قالوا "الرّمح رشاء المنية" [1]، وكان للرماح أحجام مختلفة، فمِنه القصير ذو أربعة أذرع وهو أشبه بالعصا، والطويل الّذي يصل إلى عشرة أذرع ويستخدم في الكرّ والإغارة والرمي عن بُعد [2]، وقد استعمل المُوحّدون الرماح في حروبهم، هذا ما نستدلُّه من رسائلهم "وأتَوا عليهِم قِصَعًا من الرِّمَاح" [3] أي رموا عليهم وابلًا من الرماح.

ويصف ابن حربون رُمحًا صنعه الصّناع لأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فيقول:

رُمْحٌ تَمَثَّـــلَ لِلأَعَـــادِي شَكْلُـــــهُ رَأْسَيْ شُجَـــاعٍ أَو زَبَانِـــي عَقْـــرَبِ [4]

لقد جعل الشاعر من الرمح صناعة جديدة، فشكله يُشبه رأس حيّة أو عقرب وهو معنى لا يخلو من الطرافة، " وقد يبدو من العسير أحيانًا التمييز بين ما هو تَالد وما هو طارف في معاني الشعر وَصُوَره"[5].

---

[1]- ابن هذيل: حلبة الفرسان وشعار الشجعان، ص201.

[2]- ينظر:أنور عبد العليم،الملاحة وعلوم البحار عند العرب،مجلة عالم المعرفة، العدد13، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت ، 1979م، ص96.

[3]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية ، ج1،ص171.

[4]- علي الغريب الشناوي: شعر أبي عمر بن حربون، مكتبة الآداب ، القاهرة- مصر- ط1، 2004م، ص74.

[5]- عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشرق، بيروت- لبنان- دط، 1975م، ص 219.

ج- السفن و الأساطيل:

يُعد بناء السفن والأساطيل من المظاهر الحضارية الُتي عُرفت بها الدولة المُوحّدية، ولقد استخدمت هذه المراكب لأغراض شتى، فاتخذت كوسيلة عُبور بين المغرب والأندلس ، كما استعملت للسفر والتجارة ، فضلا على أنها نوع من الأدوات الحربية الّتي كانوا يستخدمونها في الغزو والدفاع عن النّفس ، ولقد حظيت الأساطيل بعناية خاصة، واهتمام وافر من قبل الشعراء، لأنها نوع من الأسلحة الّتي دارت حولها جُل قصائدهم البطولية ، ولم ينظر إليها عند حُدود الشكل أو المظهر الخارجي فق ـــط وإنما تعمقوا فيها ليكشفوا عن الجانب الحربي الّذي تؤديه في المعارك والحروب.

كان أسطول الدولة المُوحّدية قويًّا عظيمًا لقوتها واتساع رقعة مملكتها ، قال ابن خلدون:"ولما استفحلت دولة المُوحّدين في المائة السادسة (الثانية عشر ميلادية) ومَلكوا العدوتين أقاموا خُطة هذا الأسطول على أتم ما عُرف، وأعظم ما عهد..) "[1]، وقد وصف هذا الأسطول الضخم طائفة من الشعراء مُنوهين بعظمته وأعماله الحربية، ومن ذلك قول ابن سيد الاشبيلي:

مِنْ كُلِّ عَائِمَةٍ فِي شَكْـــلِ طَائِـــرَةٍ تَشَاكَلَ الأَمْـــرُ فِيهَا كُـلَّ مُشْتَكِـــلِ

هِـيَ الأَسَـاوِدُ إِلَّا أَنَّهَـــا حُشِيَـــتْ أُسْدًا فَطَالَـــتْ وَلَوْلَا الأُسْدُ لَمْ تَصِلِ[2]

يحتار الشاعر في وصف سفن الأسطول فهي عائمة وهي طائرة، وهي أُسد تحمل الأسود.

ووصف الرصافي البلنسي الأسطول بقوله:

[1]- مقدمة ابن خلدون ، ص213.

[2]- المقري: نفح الطيب، ج4، ص321.

ذُو المُنْشَـآتِ الجَــوَارِي فِي أَجِرَّتِـــهَا شَكْلُ الغَدَائِــرِ فِي سَـدْلٍ وَتَضْفِيــرِ
أَغْرَى المِيَـاهَ وَأَنْفَـــاسَ الرِّيَـاحِ بِـهَا مَا فِي سَجَايَـاهُ مِنْ لِيــنٍ وَتَعْطِيــرِ[1]

يرسم لنا الشاعر صورة السـفن الّتي تجـري في البحر، ويستعين في رسم صورته على الاقتباس من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِے ٱلْبَحْرِ كَالَاعْلَٰمِ ﴾[2].

وتَعرّض أبو الحسن بن حريق لوصف قِطع الأسطول المُوحّدي حينما تشق وحداته عباب البحر فيدخل الماء إلى جوفها، و يخرج من كل ثقب، و شبَّه الماء الخارج من الزورق بلسان الأفاعي، فقال:

وَكَأَنَّمَا سَكَـنَ الأَرَاقِـمُ جَوْفَـهَا مِنْ عَهْـدِ نُـوحٍ صَاحِـبِ الطُّوفَـانِ
فَإِذَا رَأَيْنَ المَاءَ يَطْفَـحُ نَضْنَضَـتْ* مِنْ كُـــلِّ خَـــرْتٍ** حَيَّـةٌ بِلِسَـانِ[3]

أما بن سهل الأندلسي فقد أبدع في وصف سفن الأسطول ، وما تُحدثه من بث الرّعب في قلوب الأعداء، يقول:

لَمِن خَافِـقَـاتٌ قَدْ تَعَـوَّدَتِ النَّصْـــرَا هَــوَافٍ بِهَا الإِسْـلَامُ وَالمُلْـكُ قَدْ قَـرَا
لَئِـــنْ لَقَّبُـــوهَا بِالعُـــقَـــابِ فَإِنَّـــهَا قَدْ اتَّخَـذَتْ قَلْـبَ العَـدُوِّ لَهَا وَكْـرَا
لَقَد فَتَكَ الأُسْطُـولُ فِي الشـرِّ فِتْكَـــةً غَدَا غِبُّـهَا حُلْـــوًا ومَشْهَـــدهَا مُـــرَّا
حَكَتْ فِي بَدِيعِ الشَّكْـلِ عَنْقَـاءَ مَغْـرِبًا وُسُمِّيَـتِ الغِرْبَـانَ إِذْ نَعَـتَ النُّكْـــرَا

---

[1]– ديوانه : ص213.

[2]– سورة الرحمن :الآية 22.

*نضنضت: صوّتت.

**خرت: ثقب.

[3]– ابن الأبار: تحفة القادم، ص174.

بِمَلْحَمَــةٍ فِي البَحْــرِ تُشْبِــعُ حُوتَــهُ وَفِي البَرِّ أُخْرَى تُشْبِعُ الذيبَ وَالنَّسْـرَا
جَوارٍ إِذَا المَوْجُ الخِضَــمُّ ازْدَهَى بِــهَا تَخَيَّلَتْــهَا الكُثْبَــانُ حَامِلَــةً زَهْــرَا [1]

يفتخر الشاعر بأسطول المُوحّدين ، ويصف سُفنه فيُلقبها مرّة بالغربان وأخرى بالعقاب، لأنها اتخذت من قلب العدو وكرًا ومقاما لها بتحقيق انتصاراتها العديدة الّتي أكثرت قتلى الخصم في البحر، إذ كانت لُقمة صائغة للحوت، وفي البرّ إذ أشبعت الحيوانات كالذئب والنسر، ثم يصف أشْرِعتها الّتي تُوحِي وكأنّها كثبان حاملة الزهر.

وقد كنّى ابن الأبار القضاعي السفينة والأسطول بالغربان ، والخيول ، والعقبان وبنات الماء ، وهذه الأوصاف جميعا نجِدها في هذه الأبيات :

يَا حَبَذَا مِنْ بَنَـاتِ المَــاءِ سَابِحَــةٌ تَطْفُو لِمَا شَــبَّ أَهْلُ النَّارِ تُطْفِئُــهُ
تُطَيِّــرُهَا الرِّيـحُ غِرْبَــانًا بِأَجْنِحَــةٍ حَمَائِـمَ البِيـضِ للأَشْــرَاكِ تَـرْزَؤُهُ
مِنْ كُلِّ أَدْهَــم لَا يُلْفِــي بِهِ جَـرَبٌ فَمَــا لِرَاكِبِــهِ بِالقَــارِ * يَهْنَــؤُهُ
يُدْعَى غُـرَابًا و لِلْعَجْمَــاءِ سُرْعَتُـهُ وَهُوَ ابْنُ مَــاء و لِلشاهِيـنِ جُؤْجُــؤُهُ[2]

يصف ابن الأبار السفينة، ويستعمل لها اسمها الآخر وهو الغربان ، ويستنكر سواده وطِلاء القار على المركِب الغراب لأنه جواد أدهم أصيل ، ولا يكون القار إلا للأجرب من الحيوان .

ومن الّذين خلّدوا استبسال الأسطول المُوحّدي ابن حربون ، الّذي جعل من سُفنه قبّة شامخة سكنتها الأسود، كما يُصورها بالنّسر المُحلّق في الماء، فيقول:

---

[1]– ديوانه : ص60.

*القار: الزفت أو القطران.

[2]– المقري: نفح الطيب، ج4 ، ص58.

يَا مَنْ رَأَى الفُلْكَ فَوْقَ المَـوْجَ طَافِيَـةً كَمَـا كَفَـأَتْ قِبَـابًا وشَطُّـهَا العَمَـدُ
يَنْسَـابُ مِنْهُـنَّ فِي أَعْلَـى غَوَارِبِـهِ أَسَـاوِدٌ سَكَنَـتْ أَجْوَافَـهَا أُسُـدُ
تَعَجَّبُـوا مِنْ غُـرَابٍ فَـوْقَ غَارِبِـهِ ثَهْـلَانَ ذُو الهَضْبَاتِ الشُّـمِ أَو أُحُـدُ [1]

يبدو أن هذه السفن كانت ضخمة، لذلك صورها الشاعر بجبل ثهلان أو أُحد فضلا عن القيمة العظيمة لهذه السفن في نقل الجنود وتقديم المساعدة في الحرب، وقد دلّ هذا الوصف بوضوح عن الحياة الجهادية الّتي كان يعيشها المُوحّدون.

كما نوّه كُتّاب ذلك العصر بعظمة الأسطول وأعماله الحربية، ومن ذلك ما جاء في رسالة أبي جعفر بن عطية الّتي يقول فيها:" فلمّا أطلَّت عَليهِم تِلْكَ القِطع المُبَاركة قاطِعةً بُرومهم، قَارِعةً لقُلُوبهم الخبِيثة بِهوْلِ صباحِهم ويَومِهم، رَامُوا التحصّن بالشَّخَاتير * المذكورة فَمَلُوها سِلَاحًا ورِجَالًا، وتخيَّلوا من ردِّ أمْرِ الله خَيالًا فَاسِدًا وضلالًا "[2]، يصوّر الكاتب ردّة فعل العدو المَفْزوع من رُؤية سُفن الأسطُول المَهيبة فظن أن فَرَاره على مَتن زوارق صَغيرة سيُنجيه من بطش الجُنُود المُوحّدين ،غير أن أمَلَه قد خَاب.

وبهذا الأسطول الضخم الّذي تغنّى به الشعراء في أشعارهم، وتعرّض له الكتاب في رسائلهم ، سيطر المُوحّدون على إفريقية الشمالية، وخضعت له الممالك الأندلسية بما نقَلَه من الجيوش و الآلات الحربية.

---

[1]– الشناوي : شعر أبي عمر بن حربون، ص 110.

*الشخاتير: سفن تجارية استعملت للشحن الحربي . ينظر: أحمد عزاوي ، قضايا تاريخية خلال العصرين الموحدي والمريني، عالم الفكر، ط1، 2010م ، ص85.

[2]– ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية ، ص11.

6- وصف المعارك و الفتوحات :

لقد تفنّن الأدب المُوحّدي في وصف الانتصارات والفتوحات الّتي شكّلت ملمحًا بارزًا في تلك الفترة، ويرجع ذلك إلى كثرة الوقائع الّتي حدثت في الأندلس تحديدًا، والّتي كانت في معظمها بين المسلمين والنصارى ، الّذين لم يفتروا في خوض الحروب على الإسلام في كل الحِقب الزمانية الّتي حَكم فيها المسلمون الأندلس ، ولقد أرخ الأدباء هذه الأحداث من خلال مشاهد حربية وصرخات حماسية، تسلسل صُورها في ذهن المُتلقي على شكل لمحات ومقاطع تصويرية لونها بريق السيوف، وصوتها قرع القنا وصخب القتال، أما سحرها فيكمن في تفاصيل لوحة حيّة [1] مثلت يومًا ما واقعًا عاشه أولئك الأدباء.

ومن الرسائل الّتي تصف معارك المُوحّدين رسالة أبي جعفر بن عطية الّتي يقول فيها:" فلما عايَن أعْداء الله حِبالَهم أنكَاثًا، ولم يَجِدوا دُون شَفَار المُسلمِين غياثًا، بادَرُوا التراسي في المَاء ، واغْتنمُوا الفِرار طَمَعًا فِي الإبقَاء على تِلك الدّمَاء، فاقْتفَى المُوَحّدون بالقَتل آثَارهم، ووصَلُوا بِالمحَاق المُسْتأصِل فِرارَهم" [2] لقد فشل العدوّ في الفرار على متن القوارب ، فلجأ إلى الارتماء في الماء كسبيل للنّجاة، إلا أن الجنود المُوحّدين كانوا لهم بالمرصاد، حيث تبعُوا أثرهم وقتلوهم، مما يُوحي ببراعتهم في السّباحة وملاحقتهم لأعدائهم في البحر.

ولا بأس من الاستشهاد برسالة أخرى أوردها ابن صاحب الصلاة تصف فتح غرناطة يقول فيها:" فَلمّا فرَّق ضوء الفَجر بالصباح من يَوم الجمعة الثامن والعشرين أطَلّوا على مَحلّات الكفَرة في ذَلك الصباح ، فبَدؤوهم فِي مضاجِعِهم بالكِفاح، وخلطوا

[1]- نورية بن عدّي: وصف المعارك في الشعر الزياني، مجلة الفضاء المغاربي، مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان،1432هـ/2011م، ص163.

[2]- ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية، ص11.

أَحشَاءهم بالسيُوف و الرّماح، فَلم يَلْحقُوا أن يَرْكبُوا خَيْلهم ألّا وقد أجاز الله بهِم ويْلهم، ثم كَانت مِنهم بعد مُوَافَقات وحملَات، ومُدافَعات على عادة كُفرهم وطُغيانهم وعبَدتِهم لِصُلبانهم، وضَياء النّور بالنّصر قد انتشَر، والصّباح قد ميّز العدو بِصَمْتِه والجَوّ بالقِتَام قد أظلم وأغْبر، فلا تَسْمع إلّا ضرْبة سَيف بِحتْف، أو صَوت غَمغمة، أو جرّ جُمجمة... فتقطّعَت في حافات ذلك الوادي أجْسَامهم، وحان في ذلِك الصّباح السّعيد حِمامَهُم وهزمَهُم الله تعالى ونَصَر أوْلِياءه المُوَحِّدين" [1] يُقدم لنا الكاتب صورة لمعركة بريّة في جهاد العدو، تتجلى فيها مظاهر البطولة والشجاعة مُقترنة بذِكر أدوات المعركة من سيوف ورماح ، الّتي لعبت دورًا كبيرًا في حزّ رؤوس الأعداء وتقطيع أجسامهم، و لم يُفد هروب المشركين الباقين نحو الوادي من تحقيق السلامة لأنفسهم، بل تبِعهم الجنود المُوحّدون وهزموهم شرّ هزيمة محقّقين نصرًا مستحقًا.

وقد حاول الشعراء بدورهم وصف بسالة الجنود واستماتتهم في الدفاع عن دينهم يقول أبو العباس الجراوي في وصف معركة طُلَيطِلة سنة 592هـ، الّتي دارت بين جيوش المنصور وجيوش الأذفونش، يقول فيها:

قَــدْ أُصْـلِيَــتْ نَارَهَــا العَــدَاةُ وَأُنْجِــزَتْ فِيــهِــمُ العِــدَاتُ
وَعَمَّتْــهُمْ بِالــدَّمَــارِ يَــوْمٌ تَقْصُــرُ عَــنْ وَصْفِــهِ الــرُّوَاةُ
فِـي مَشْهَــدٍ لَا تَــزَالُ تُتْــلَى آيَاتُــهُ وهِــي بَيِّــنَــاتُ
رَدَّتْ حِمَــى الفُنْــشَ مُسْتَبَاحًــا بِيــضٌ مِــنَ الهِنْــدِ مُــرْهَفَــاتٌ
وَغَرّقَــتْ جَمْعَـهُــم بِحِصَــارٍ أَمْوَاجُــهَا الخَيْــلُ وَالكُمَــاةُ
رَأَوْا لِحِــزْبِ الإِلَــهِ صَبْــرًا وَالمَــوْتُ حَفَّــتْ بِهِ الجِهَــاتُ
فَحَــاوَلُوا مِنْــهُــمُ انْفِــلَاتًا وَلَــيْــسَ لِلْــخَائِــنِ انْفِــلَاتُ [2]

[1]– ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 133-134.

[2]– ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص223.

يصف الشاعر في هذه الأبيات الدّمار الّذي أصاب ديار الأعداء واستباحة المسلمين لأراضيهم ، كما يشير إلى ضخامة الجيوش المُوحّدية وصُمودها يوم المعركة وجُبْن جنود الأعداء ومحاولتهم الفرار من أرض المعركة دون جدوى، حيث كان الموت يُحيطهم من كل الجهات.

وفي فتح شِلب سنة 587هـ خرج المنصور من إشبيلية بجيوش كثيفة حسنة الهيئة والنظام، واتجه نحو المدينة لاستعادتها ، وقد استمرت هذه المعركة ثلاثة أشهر استطاع المسلمون فيها استرداد شِلب [1]، وبهذه المناسبة أنشد القائد أبو بكر بن وزير الشلبي أبياتا يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى يوم لقاء المسلمين مع الكفار فيقول :

وَلَمَّـــا تَلَاقَيْنَـا جَـرَى الطَّعْـنُ بَيْنَنَـــا فَمِنَّـــا وَمِنْـــهُمْ طَـايِحُـــونَ عَدِيـــدُ
وَجَـــالَ غِـرَارُ الهِنْـــدِ فِينَـا وَفِيهُـــمُ فَمِنَّـــا وَمِنْـــهُـمْ قَـايِئٌ وَحَصِـيدُ
فَلَا صَبْـــرَ إِلَّا فِيـهِ صُـدُورُ مُثَقَّـفٍ وَحَـــوْلَ الـوَرِيـــدِ للحُسَـــامِ وُرُودُ
صَبَرْنَا وَلَا كَهْفٌ سِوَى البِيضِ وَالقَنَـا كِلَانَا عَلَى حَـــرِّ الجَـــلَّادِ جَـلِيـــدُ
وَلَكِـــنْ شَـــدَدْنَا شِـــدَّةً فَتَبَـــلَّدُوا وَمَـــنْ يَتَبَـــلَّدُ لَا يَـــزَالُ يَجِـــيدُ [2]

يصف القائد لحظة التقاء الجيشين في أرض المعركة، وقد سقط الكثير من الجند المُتحاربين صرعى ، فالأعداء كانوا جَلدين صبُورين على مُنازلة الأقران ، وقد أبْلوا في الدّفاع عن أنفسهم أحسن البلاء ، غير أن جيوش المسلمين كانوا أشد قُوّة وصلابة الأمر الّذي أدى إلى حسم المعركة لصالح المنصور، وهو دليل أن المُوحّدين لم ينتصروا على ضِعاف النّاس بل على أقويائهم، هذا ما يُبرهن على شجاعتهم العظيمة.

[1]– عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس، ج2، ص 186.
[2]– المقري: نفح الطيب، ج4، ص381.

وتُعد معركة الأرك الّتي وقعت يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة 591هـ بين جيوش المُوحّدين بقيادة يعقوب المنصور وجيوش الفرنجة [1]، من الانتصارات العظيمة الّتي خلّدها الشعر، و فيها يقول الجراوي:

هُوَ الفَتْحُ أَعْيَا وَصْفُـهُ النَّظْمَ والنَّثْـرَا وَعَمَّـتْ جَمِيـعَ المُسْلِمِيـنَ بِـهِ البُشْـرَى
وَأَنْـجَد فِي الدُّنْـيَـا وَغَـارَ حَدِيثُـــهُ فَـرَاقَتْ بِهِ حُسْنًـا وَطَابَـتْ بِـهِ نَشْـرَا
لَقَـدْ أَوْرَدَ الأَذْفُنْـش شِيعَتَـهُ الـرَّدَى وَسَاقَهُمُ جَـهْلًا إِلى البَطْشَـةِ الكُبْـرَى
وَقَدْ أَوْرَدَتْهُ المَـوْتَ طَعْنَـةَ ثَائِـرٍ وَإِنْ لَمْ يُفَـارِقْ مِنْ شِـقَاوَتِـهِ العُمْـرَا
وَلَم يَبْقَ من أَفْنَى الزَّمَـانِ حُمَاتَـهُ وَجَرْعَـهُ مِنْ فَقْـدِ أَنْصَـارِهِ صَبْـرَا
أُلُوفٌ غَـدَتْ مَأْهُـولَةٌ بِهِـم الفَـلَا وَأَمْسَـتْ خَلَاءً مِنْـهُمُ دُورَهُـمْ قَـفْـرَا
وَدَارَتْ رَحَا الهَيْجَا عَلَيْـهِمُ فَأَصْبَحُـوا هَشِيمًا طَحِينًا فِي مَهَبِّ الصِّبَا يُـذْرَى [2]

يُمجّد الشاعر هذا النصر ويُفصح بعجز اللّسان عن تصويره ، فحديث هذا الفتح وصل نجدا وغور تهامة في الجزيرة العربية، ويشير إلى إصابة القائد الصليبي بطعنة قوية كادت تودي بِحياته وهُروبه من ساحة المعركة ،عندما رأى مصارع أصحابه تتهاوى الواحد تلو الآخر، ونقف في القصيدة على إشارات توحي بكثرة القتلى من الإسبان ، كما أن بُيوت الأعداء أصبحت فارغة مهجورة بعدما مُلأت الأرض بأجسامهم المقتولة فباتوا كالهشيم في مهب الرّيح ، وقد أخذ الشاعر هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾[3].

[1]– ابن عذارى : البيان المغرب، قسم الموحدين، ص216.
[2]– نفسه ، ص222.
[3]– سورة الكهف: الآية 45.

ويقول ابن حزمون مُشيدا بهذا النّصر الإسلامي الكبير:

حَيَّتْكَ مُعَطَّـــــرَةَ النَّـــــفْسِ نفَحَـــاتُ النَّصْـــرِ بِأَنْـــدَلُسِ
فَـــذَرِ الكُفَّـــارَ وَمَأْتَمَـــهُـــمْ إِنَّ الإِسْـــلَامَ لَفِـــي عُـــرْسِ
جَاءُوكَ تَضِيـــقُ الأَرْضُ بِـــهِـــمْ عَـــدَدًا لَمْ يُـــحْصَ وَلَم يُـــقِسِ
خَرَجُـــوا بَطـــرًا وَرِئَـــاءَ الـنَّـــا سِ ليخْتَـــلِسُوا مَـــعَ مخْتَلِـسِ
وَتَسَـــاوَى القَـــاعُ بِهَامِـــهِـــم الرَّبْـــضُ* مَـعَ الحَـرْبِ الضَّـــرْسِ
سُقِيَـــت بِنَـــجِيعُـــهُمُ أُكُـــمٌ وُطِئُـــوا مِنْـــهُنَّ عَلَى دَهَـــسِ[1]

عدّ الشاعر بشرى انتصار المسلمين في معركة الأرك عُرسًا للإسلام، ومأ تمًا للكفر، ثم تحدث عن ضخامة الحشود الصليبية الّتي خرجت لملاقاة المسلمين ومشاعر الثقة الّتي غمرت الأعداء بسبب كثرة جيوشهم ، إلى حد أنهم جلبوا معهم بعض تجار اليهود لشراء أسرى المسلمين ، لكن الموت كان مصيرهم، ولكثرة قتلاهم فقد تساوَوا بين هضاب حصن الأرك الّذي يقع فوق ربوة عالية ، ولم يكن الشاعر مبالغًا في ذلك فقد قدّرت بعض الروايات قتلى الأعداء في المعركة بمائة وستة و أربعين ألفا[2].

ونَقف في ديوان أبي الرّبيع المُوحّدي على مقطوعة من خمسة أبيات يُصور فيها معركة بحرية، لا نعرف فيها الخصمين المُتحاربين، ويتعرّض فيها لوصف الزوارق المُتحاربة فيقول:

وَزَوَارِقٌ تَحْـــتَ الظِّـــلَالِ حَسِـبْتُهَـــا حَلَبَـــاتُ خَيْـــلٍ تَهْتَـــدِي بِمُـقَـــدِّمِ
مَرِحَـتْ وَمِنْ رَشِّ المَجَـاذِفِ نَقْعَهَا** مِـنْ كُلِّ أَشْهَـبَ فِي السّبَـاقِ وَأَدْهَـمِ

*الرّبض: العاجز الذي لا ينهض للحاجات و الغزوات والحروب..

[1]– المراكشي: المعجب ، ص214.

[2]– ينظر: شفيق الرقب ، شعر الجهاد في عصر الموحدين ، ص192.

**النّقع: الغبار المرتفع المنتشر في الجو.

حَمَلَـتْ بِهَا العِتْبَــانَ مِـلْءَ عِنَانِــهَا حَمْـلَ الكَمِــيِّ* عَلَى الكَمِــيِّ المُعْلَـمِ
فَظَنَنْــتُ أَنَّ الحَــرْبَ حَــرْبَ مُسَالِمٍ لَا حَــرْبُ مُضْطَغِــنٍ** وَلَمَّـا أَعْلَـمِ
حَتّى انْثَنَــتْ عِنْـدَ الأَصِيلِ كُمَاتُــهَا مَخْضُــوبَةً حَلْــقَ الـدُّرُوعِ مِنَ الــدَّمِ [1]

يشبّه الشاعر الزوارق بالخيول ، كما يُشبّه الماء المُتطاير من حركة المجاذيف بالغُبار المتناثر من حركة أقدام الخيول، ويرى أن هذه الزوارق يُحمل بعضها على بعض كما يفعل الفرسان الشجعان، وتوهّم الشاعر أن الحرب القائمة بين فريقين مُتسالمين، إلى أن انتهت المعركة عند الأصيل، فخرج الفرسان منها وقد امتلأت دروعهم بالدماء.

ولعل خوض المُوحّدين هذه المعارك وإحرازهم الكثير من الانتصارات لدليل على عظمة حضارتهم الّتي تجلّت في مكانة عُدتهم الحربية ، ونباهتهم في تنظيم الجيش، كما واكب الأدب تسجيل الانتصارات وتصويرها مُنطلقًا من إحساس عميق بقيمتها مُتعرضًا لمظاهر التغلب على الأعداء ، ذاكرا ما آل إليه حال المشركين من المهانة والذلّة والهرب والقتل والأسر.

رابعا:المظهر الاقتصادي

شهدت الدولة المُوحّدية نشاطًا اقتصاديًا واسع النطاق كان له يَد في كثرة المحاصيل الزراعية، و تحقيق اكتفائها الغذائي، مما جعلها ذات بنية اقتصادية قوية.

* الكَمِي: الفارس الشجاع المقدام.
**الضغن: الحقد الشديد.
[1]– ديوانه: ص106.

1 -انتعاش الخزينة المالية:

عرفت الخزينة المالية انتعاشًا مُنقطع النّظير، وخاصة في عهد أبي يعقوب المُوحّدي حيث يقول المراكشي:" لم يرتفع لمَلك من المُلوك قَبْلَه أو بَعْده ما ارْتفع إليه من الأموال، وقد بَلغَني من جِهة رجل من أصحابنا كان يَتولّى بُيوت الأموال قال لي:وجدت خرائط كثيرة مما كان يرتَفع إلى أمير المُؤمنين أبي يعقوب بختمها" [1]، وهو قول يبرهن على مدى الاكتفاء الّذي عاشته الدولة أيام أبي يعقوب، وذلك لوفرة المداخيل، ولسياسة التنمية الّتي اتبعها الخليفة، وهذا الانتعاش عمل على تحقيق الرخاء والترف في المجتمع كما أثر ايجابيًا على الميادين الأخرى خصوصًا ميدان سكّ العملات، حيث قام في سنة 581هـ بإجراء مالي هام وهو مضاعفة الدينار المُوحّدي، فتشير الرواية عن ذلك قائلة: " ولم تَزل هِمّة المنصور تَتبع جَزئِيات المَملكَة بالتّفخِيم، ويُحِيل ما بَقِي منها للتّكميل والتتميم، فرأى أن الدينار القَدِيم يصْغُر عن مرأَى ما ظَهر من المَنازع العالِية، وأنّ جِرمُه يقِلُّ عما عارَضَه من المَنَاظر الفَخمة الجَارِية، فعَظّم جِرمَه ورفَع قَدره بالتَّضعيف وسَوْمُه فجاء من النتائج المُلوكية ، والاختِراعات السويّة جامعًا بين الفَخَامة والنّمَاء ، والطّيب وشَرف الانتِماء، فتكلّمت في ذَلك الشعراء"[2]، فقال أبو العباس الجراوي:

رَاقَ النُّظَّار عُيُــونَ النَّاظِريــنَ وَقَدْ غَدَا اسْمُكَ المُعْتَلَــى عُلَاهُ مُكْتَتِبَــــا
قَدْ حَازَ فِي وَصْفِـهَا تِبْرِيَّــةً جُــدُدَا رُبَّ نَاظِــمًا شِـعْــــرًا وَمُخْتَطِــبَا
مَا ارْتَابَ مُبْصِــرُهَا فِي كَفِّ ذَاكَ وَذَا أَنَّ النُّجُـومَ اسْتَـحَالَـتْ لِلْــوَرَى ذَهَــبَا
نَدَاكَ عَمَّ بَنِـي الدُّنْــيَا وَأَلْبَسَــهُــمْ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ أَثْوَابَ الغِنَى القُشُــبَا
خَلِيفَــةَ اللهِ رُحْمَاكُــم لِمُغْتَــرِبٍ نَــاءٍ وَإِنْ نَــأَى دَارًا وَلَا اغْتَــرَبَا [3]

---

[1]– المعجب: ص184.

[2]– ابن عذارى : البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 284.

[3]– نفسه: ص285.

يرى الشاعر أن هذا الدينار المُضعّف قد أبهر كل من رآه وأبصره، وما زاده حُسنا هو اسم الخليفة الّذي نُقش عليه، فلا يمكن مُسايرة جمال منظره نظم شاعر أو قول ناثر، فهو في كفّ اليد يُشبه منظر النجوم في السماء، وقد سهلت هذه العملة الجديدة على التجار البيع والشراء أينما توجّهوا وحلّوا.

2- التّنويع في نظام الري:

كان للتّنويع في نظام السقي أثره في وفرة الإنتاج، فلم يعتمد المُوحّدون على مياه الأمطار والأنهار، بل كان الارتكاز أيضا على السواقي ومياه الأودية كما هو الحال ببلاد المغرب، وتُفيدنا إحدى النوازل أن نظام الري في تلمسان كان مُنظمًا تنظيمًا دقيقًا فقد كان المزارعون يتعاونون فيما بينهم على سِقاية الأرض من العَين المشتركة بين أهلها يسقون بها مزارعهم وبساتينهم، فمِنهم من كان يروي أرضه نهارًا ،ومنهم من كان يرويها ليلًا ، وفئة ثالثة كانت تسقي من الغداة إلى الزوال، وجماعة أخرى من الزوال إلى العصر[1].

واستعملت مدينة قفصة مياه العيون النابعة لسقي جِنانها، هذا ما تشير إليه إحدى رسائلهم الّتي تقول:"وخَلصت للمُوحِّدين أعانَهم الله هذه المَدِينة العتيقَة، والقاعِدة الوثِيقة الّتي جَمَعت بين جَمال الوَضع، وحصَانَة الصُّنع، واتِساع الخطة، وشَرف البُقعة...تتفجّرُ عليها عُيُون مُستبحرة تَخْرُج من داخل البَلدة فَتسقِي كُلّ جَنّة بِقِسطٍ مَقسُوم، وشُربٍ مَعلُوم، وأُنبِطَ خِلال سوَادها مِياه تُسقَى ما ارتَفَع عن مجَاري العُيون وتعُم بالري ما ارْتَفع من الظُّهور على البُطون، وامتدّ ذلك أميَالا يجْري سَوادها على

[1]- ينظر: كمال أبو مصطفى: جوانب حضارية من نوازل الونشريسي ، ص58.

الوَزن الموزُون"[1] يتضح من هذا القول وجود عيون داخلية وأخرى خارجية في المدينة استفاد منها السكان في الشّرب، وسقي محاصيلهم الزراعية وبساتينهم.

3- غرس البساتين:

كانت الزراعة في عهد المُوحّدين تتم بإشراف الخليفة مباشرة كما هو الحال في زراعة محصول الزيتون في اشبيلية، حيث أشرف أبو يعقوب على زراعته بنفسه وقد عبّر عن ذلك ابن صاحب الصلاة قائلا:" نفد الأمْر العَالي إلى أَهلِ الأنظَار بالمَشرق بِقلع أُصُول الزيتون المُختارة من الألوان بِمال المَخزن إنماء الله، واستجلابِها إلى البُحيرَة المذكُورة للاغرَاس، فجلبوا مِنها عشَرات الآلاف وأمِير المُؤمنين يخْرج من قصْرِه باشبيلية راكِبا مع الأعيَان للتطلّع على الخِدمة فيها وغرسها"[2]، تكفل أبو يعقوب بهذا الغرس سعيًا منه لتحسين نوعية الإنتاج، والرفع من مستواه، فضلا عن كوْن الفلاحة ضرورة اقتصادية ومالية لتمويل نفقات الدولة وتغطية واجباتها.

4- كثرة المحاصيل الزراعية وتنوعها:

أدرك الحُكام أهمية الزراعة في ارتفاع الدخل العام لذلك شملوها بعنايتهم حيث قاموا بانتهاج سياسة التشجير لزيادة الإنتاج، كما شارك الفلاحون في خدمة أراضيهم والتفاني في ذلك، فقد جاء في إحدى مراسلاتهم قولهم:" وأمَّا الزَّرع فَقد بَسط الله الآمَال لكَثرتِه وصَلَاحه فِي هذا العام بَسْطا، وأَعطَى هَذه الجِهات مِنه حظّا وَافِرا وقِسطًا، فإنّ النّاس كَانُوا قد اسْتكثَروا مِنه فِي كُلّ مكان وأنْفَقُوا فِيه ما عزّ وهَان، واعْتنى أهل الثُّغور أيضا بالازْدراع اعْتِناء الغير، وتنافَسُوا في الإكثارِ منه تنافُس الواثِقين بما تَكفّلَت بِه السّعادة الإمامية من اليُمْن واليُسر والخَيرِ" [3] وكان من نتائج خدمة الأرض أن كَثُرت

[1]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية ، ج1، ص148.

[2]- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص385.

[3]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية، ج1، ص280.

المحاصيل، وهذا لتشجيع الخلفاء للزراعة حيث عدّوها المقومات الأساس الّتي ارتكز عليها اقتصاد البلاد، لذلك قاموا بتوفير الأدوات الزراعية في أيدي الفلاحين حتى غدت المغرب والأندلس بلدًا زراعيًا مُنتجًا.

5- تشييد المصانع:

للصناعة دورًا رئيسيًّا في ازدهار وتطور الدولة، لذا اهتم المُوحّدون بحركة التصنيع اهتمامًا بالغًا، فقد توفرت مدن المغرب الأقصى على أنواع عديدة من المصانع "ففاس مثلا كان بها في عهد المنصور وابنه الناصر داران للسكة، و 364 معْمَلا لنسج الثياب، و 47 لعمل الصابون، و 86 من ديار الدبغ، و 12معملا لتسبيك الحديد والنحاس و 11مصنعا للزجاج، و 188دار لعمل الفخار"[1] ، وقد حظيت صناعة السفن والأساطيل بعناية الخلفاء وخاصة في زمن خليفتهم الأول عبد المؤمن الذي" أمر بإنشاء القطائع في سواحل العُدوة والأندلس فصُنِع منها زهاء مائتي قطعة، أعِد منها في مرْسَى المعمُورة بمقربة سلا مائة وعشرون قطعة، وقفت عليها وعددها بالمرسى المذكور، وأعِد باقي العدد الّذي ذكرته في أرياف العُدوة والأندلس، وأمر بكتُب الرّجال والرّؤساء الأبطال لعِمارتها والقيام بحمايتها والنّظر في آلاتها" [2] وقد تنوعت السفن والأساطيل في الحجم والنوع والوظيفة ما أدى إلى تطور البحرية وقوتها، حيث حققت العديد من الانتصارات وهي إشارة جلية لمدى التقدم والرقي الّذي وصلت إليه الدولة في هذا المجال.

[1]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص130

[2]- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص149.

6- تنظيم التجارة :

ازدهرت التجارة الداخلية في عهد المُوحّدين بفضل عدة عوامل منها: إشاعة الأمن واهتمام الخلفاء بتأمين الطرق التجارية وحماية التجار، وقد توعد المهدي "بقتل كل من يخالف هذا الأمر وأنزل العقوبات بالّذين يتسبّبون الاعتداء على التجارة، أو قطع الطرق الّتي لهم، وسار خلفاؤه على نهجه" [1]، كما ألغى عبد المؤمن الضرائب التي كان يفرضها العمال ولم تُقَرها الدولة حيث قام بإرسال رسالة للولاة يتوعّد العمال فيها حيث قال" ولقد ذكر لنا في أمر المَغارم والمُكوس* والقبَالات وغيرها ما رأينَا أنّه أعْظم الكبائِر جُرمًا وإفكا وأدناها إلى من تولاهَا دمَارًا وهلَاكًا، وأكثرهَا في نفس الدّيَانة عِيثا وفتكًا" [2] لقد عدّ عبد المؤمن الضرائب المفروضة على التجار من الكبائر لعدم حلالها شرعًا، وتوعّد مرتكبيها بالقتل ومحْو أثره عِقابًا على فِعلته وليكون عِبرةً لكل ظالم.

أما التجارة الخارجية فقد كانت قائمة على مبدأ الثقة بين الطرفين ، وفي حالة الدّيْن تكتب العقود بين البائع والمشتري، هذا ما نلمحه في إحدى رسائلهم كقولهم: " وعندهم عقد ملتزم مؤكد، ورسم مكتوب مُبرم مُجدد بالأمن والأمان" [3] وهذا لتجنب المشاكل من الأطراف الّتي لا تلتزم بالتعهدات الشفوية.

وكان التبادل بين البلدين يتم بالرضا والمحبة، وهذا ما نستشفه في هذه الرسالة التي جاء فيها:" ونحن نهدِي إليهِم من السّلام أعْطَره ونَثْثر عليهِم دُرُره، ونذرِف إليهِم مِسكَهُ وعَنْبره، ونُحضِر فِيهم كلّ يوْم محضَره لِما انْعقَد قديمًا وحَديثًا من السلاف والأحْلاف منا ومنهم، ومن أسْباب المَحبّة ومقْدم الصُّحبَة والمَودّة...وشِيحَت بَينَنا أوَاصِر

---

[1]- عز الدين موسى: النشاط الإقتصادي ، ص271.

* يستعمل في الضرائب على التجارة.

[2]- أحمد عزاوي : رسائل موحدية، ج1، ص54.

[3]- نفسه : ص166.

الائْتِلاف واستمرّت مِنا ومِنهم المحبة" [1] ، وهذه صورة من صُور العلاقات المُوحّدية التي كانت قائمة على السلام والمودّة مع الدول المجاورة.

خامسا:المظهر العمراني

ازدهرت آلة العمران في العصر المُوحّدي ازدهارا واضحا ، وقد ارتبط ذلك الأمر بقوّة الدولة الاقتصادية ، ومدى قدرتها على استغلال الثروات الطبيعية ، وتلك النهضة لم تكن وليدة العصر فحسب، بل كانت امتدادا لأعصر خلت، سطر فيها الإنسان المُوحّدي بأحرف من نور لمسات حضارية، تشهد لها الآثار الباقية حتى العصر الحاضر ، نابضة بالحياة ، مُبهرة للعيون ولم تمح كثيرًا منها عوادي الزمن ، أو تقلبات العصور، وقد اهتم الكثير من الأدباء المغاربة والأندلسيين بِنعت المظاهر المادية المختلفة الّتي احتضنتها البيئة المُوحّدية ، فتعددت بذلك الموضوعات الوصفية بتعدد أسبابها ، حيث وصفوا المدن وأجزائها العمرانية كالقصور والرياض وتطرقوا إلى وصف النواعير والدواليب وأثر ذلك الصوت على المكان ، كما اهتموا بوصف حماماته ـــــم ومساجدهم ،الّتي عكست الحياة الحضارية المعيشة من كل جوانبها.

1- بناء المدن وتجهيزها:

من أشهر المدن الّتي تم تشييدها في عهد المُوحّدين مدينة حصينة على جبل طارق أو "جبل الفتح" أمر ببنائها عبد المؤمن بن علي، يقول ابن صاحب الصلاة: " ووصل الأمر العزيز ببناء مدينة كبرى بإذن الله تعالى ومعونته...بالجبل الميمون القديم البركة على جزيرة الأندلس السّامق الشاهق، جبل طارق المُنفتح منه دانيها وقاصيها وطائِعها وعاصيها، تكون هذه المدينة منزلا للأمر عند إجازة العساكر

[1]- ابتسام مرعي خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، دار المعارف، القاهرة- مصر- دط ،1405هـ/ 1985م، ص 272.

المنصورة ومحلّا ريثما تتقدّم الرّايات المُظفّرة ،والأعلام المنشُورة إلى بلاد الروم" [1]، لقد أقدم عبد المؤمن على اختيار المكان لبناء المدينة لإدراكه للأهمية الكبرى لجبل الفتح كموقع حربي هام للهجوم على بلاد الروم.

كما تطرق ابن حربون لوصف مدينة مراكش الّتي تم تجهيزها من قبل ا لخليفة يعقوب المنصور، حيث قال:

وَأَصِـخْ لذِكْـرِ اليُوسُفِـــيـةِ * إِنَّـــهَا مَنَعَتْ مَغَانِي الشِّعَب** مِنْ أَنْ تُذكَرَا
دَبَّجْتَـهَا منْ حُسْـــنِ خَلْقِـكَ جَنَّـــةً وَسَقِيتَـهَا منْ جُـــودِ كَفِّـــكَ كَوْثَـرَا
فـَإِذَا سَقِـيطُ الطِّـلِّ رَفَّ بِزَهْـــــرِهَا لَقَطَـــــتْ بِهَا كَفُ النَّسِـيمِ الجَوْهَـــرَا
كَانَتْ كَظَهْرِ التُّرْسِ مَرْيًا صَحْصَحًا فَنَسَجْتَـهَا لِلحِيـــنِ رَوْضًا أَخْضَـــرَا[2]

جسّد هذا الوصف مدينة مراكش الّتي تُعد أثرًا حضاريًا للخلافة المُوحّدية ، تمثلت فيها مناظر الرخاء الّتي عمّت الدولة ، فتحولت مراكش من أرض صلبة غليظة إلى بساتين خضراء ، وذلك لأن يد الخليفة هي الّتي رعتها، وسقتها الكوثر من كفِّها فأصبحت جنّة وارفة الظلال ، فاقت في جمالها واحدًا من أجمل متنزهات الدنيا ، وهو شِعب بوّان الّذي نظم فيه المتنبي نونيته المشهورة ، و قال في ذلك الشِّعب:

مَغَانِي الشِّعْـــبِ طِيـبًا بِالمَغَانِـي بِمَنْـــزِلَةِ الرَّبِيـــعِ مِنَ الزَّمَـــــانِ[3]

وبِذلك يتواصل ابن حربون بالتراث القديم من خلال ذكره لشِعب بوّان الّذي خلّده المتنبي في شعره.

---

[1]– ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص85.

* اليوسفية: مدينة مراكش.

** مغاني الشِعب: هو شِعب بوّان موضع كثير الشجر والمياه يقع في مدينة بوان قرب بلاد فارس، ينظر: الحموي معجم البلدان، ج1، ص505.

[2]– ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص332.

[3]– ديوانه: شرح أبي البقاء العكبري، ضبط وتصحيح مصطفى السقا، دار الفكر، بيروت، 2003م، ج4، ص251.

2- تشييد القصور:

عرفت الدولة المُوحّدية بسمة الترف في مظاهرها الخارجية نظرا لاهتمام حكامها ببناء القصور ، حيث أغرموا بتزيينها وزخرفتها ، والإنفاق عليها حتى امتلأت البلاد بمباهج الفن المعماري في كل مكان، وباتت رافدًا قويًّا لإذكاء روح الوصف لدى الشعراء لا سيما أن الأندلسي أو المغربي يتمتع بذوق فني رفيع، وميل للاستمتاع بمباهج الحياة ومرحها. وقد اشتملت بعض دواوين شعراء عصر ا لبحث، ولا سيما شعراء البلاط والتكسب ، على قصائد في وصف بهجة قصور الممدوحين وعظمتها ، لغاية إرضائهم والنّيل من عطاياهم ، حيث وقفوا عندها منوهين بملامح الحسن والجمال، ومواضع الدقة والبراعة لعظمة بنائها ، وتعدد قبابها وزخارفها ، وكثرة نقوشها باذلين أقصى جهودهم في إعادة بناء تلك التحف الفنية بالكلمات المعبرة والعبارات الموحية، وتعد قصيدة ابن الأبار الّتي وصف من خلالها قصر "أبي فهر" الّذي بناه المستنصر بتونس ، واحدة من تلك الروائع الّتي أبدع من خلالها الشاعر في تصوير عظمة بناء القصر، الّذي دخله مع وفدٍ عظيمٍ وقد أقيمت فيه مأدبة ، فقال مُعبّرًا عما شاهد و رأى:

قَدْ شَادَ سُلْطَانَهُ مَا شَاءَ مخْتَرِعًا وَالدَّهْرُ ثَاوٍ عَلَى الإسْعَادِ مُعْتَكِفُ
مَصَانِعًا ضَلَّت الأَمْلَاكُ صَنْعَتَهَا لَا القَصْدُ وَافٍ بِهَا وَصْفًا وَلَا السرَفُ
وَضَّاحَة حَلَّت الأَنْوَارُ سَاحَتِهَا فَأَوْضَعَتْ رِحْلَةً عَنْ أُفُقِهَا السَّدَفُ[1]

ثم يتوقف الشاعر مليًّا ليترصد مظاهر الحُسن والإبداع اللّذين تميزا بِهما هذا القصر العظيم ، مُشيدًا بما نَمنمته يد الفنان البارع ، حتى غدا قصر أبي فهر ي نافس قصور بغداد وغرناطة ودمشق، فيقول :

[1]- ديوانه: ص375.

مَطَالِـع للنُّجُـومِ وَالسَّعْـدُ يَكْـنُفُـهَا قَصْـرُ الإِمَارَةِ نِعْــمَ القَصْـرُ وَالكَنَـفُ
لَوْ تَهْتَدِي الشَّمْسُ أَنْ تَخْتَارَهَا فَلَكًـا لِسَيْـرِهَا لَمْ تَكــنْ تَخْفَــى وَتَنْكَشِــفُ
مَا خُلْدُ بَغْــدَادَ أَو زَهْـرَاءَ أَنْدَلُـسٍ* وَالمُلْــكُ مُقْتَبِــــلٌ فِيــهَا وَمُؤْتَلِــفُ
وَأَينَ إِيوَانُ كِسْرَى ** مِنْ سَرارَتِهَا وَالأَكَالِيــــل فِـي هَامَاتِــهِ الشَّـرَفُ[1]

لقد تأنق ابن الأبار في وصف هذا القصر كما تأنقت يدا الفنان المبدع في صنع هذا العمران، بل إن الشاعر رسم لنا فخامته بالكلمة المعبرة والعبارة المنتقاة، حيث وازن بينه وبين أثرين عظيمين أحدهما في المشرق وهو"ايوان كسرى" ، والآخر بالمغرب وهو "زهراء الأندلس" ، محاولا القول إنه لا يوجد من ترك أثرًا أعظم من هذا الأثر.

ويبدو أن منظر قصور شنتبوس *** وهي تطل على النهر ليلًا أثار إعجاب أبي المطرف بن عميرة المخزومي وأسِرَتْه بجمالها الباهر، فيقول :

حَتـي بلَغْــنَا شَنْتَبُـوس وَيَا لَـهُ مِـنْ مَشْهَـدٍ بِهَــوَى النُّفُـوسِ قَمِيــنُ
حَيْثُ القُصُورُ البِيضُ يُرْمَـقُ حُسْنهَا فَيَكُــونُ قَيْــدَ نَواظِـــرٍ وَعُــيُـونِ
بَهَـرَتْ جَمَالاً فِي الدُّجَى حَيْثُ تَـرَى مَعَهَا عَمُــودَ الصُّبْحِ غَيْرَ مُبِــينِ
فَهِــيَ النُّجُــومُ بَلِ البُدُورُ لأَنَّـهَا تَـزْدَادُ حُسْــنًا فِي اللَّيَالِـــي الجُونِ
قَدْ أُلِفَـتْ أَجْـــزَاؤُهَا فَتَنَاسَبَـتْ كَتَنَاسُــبِ النَغَمَـــاتِ فِـي التَّلْحِيــنِ[2]

*الزهراء: مدينة في غرب قرطبة وهي عظيمة في مبانيها، وهي مدينة فوق مدينة يعجز الواصفون عن وصفها. ينظر:الحميري، الروض المعطار، ص 295.

**إيوان كسرى: موجود بالعراق بالمدينة التي كان ينزلها ملوك بني ساسان ، ينظر: الحميري، الروض المعطار ص69.

[1]– ديوان ابن الأبار: ص376.

***شنتبوس: من متنزهات اشبيلية.

[2]– ابن الأبار: تحفة القادم، ص199.

إنّ انبهار الشاعر بعظمة القصور الثابتة جلي في قصيدته ، حيث نجده يتخيلها كالنجوم أو البدور الّتي تخطف الأ نظار بروعتها وجمالها ، كما أن أجزاؤها متناسقة كتناسب النغمات مع التلحين.

وقد نالت القصور الّتي بناها المُوحّدون في الأندلس إعجاب الشعراء فوصفوها وتغنوا بعظمتها، ومن ذلك صورة ناهض بن إدريس يصف قصرا للأمير أبي يحيى بن أبي يعقوب المُوحّدي، الّذي كان من أبدع القصور إذ تأنّق في بُنيانِه، يقول:

أَلَا حَبَّذَا القَصْرُ الّذِي ارْتَفَعَتْ بِهِ عَلَى المَاءِ مِنْ تَحْتِ الحِجَارَةِ أَقْوَاسُ
هُوَ المَصْنَعُ الأَعْلَى الّذِي أَنِفَ الثَّرَى وَرَفَّعَهُ عَنْ لَثْمِهِ المَجْدُ وَالبَأْسُ
فَلُؤْلِؤُ مَتْنَ النَّهْرِ عِزًّا وَرِفْعَةً وَفِي مَوْضِعَ الأَقْدَامِ لَا يُوجَدُ الرَّأْسُ
فَلَا زَالَ مَعْمُورَ الجَنَابِ وَبَابَهُ يَغُصُّ وَحَلَّتْ أُفُقَهُ الدَّمْرُ أَعْرَاسُ[1]

يُعبّر الشاعر عن انبهاره بالقصر الّذي يقع على متن النهر الأعظم ، حيث تحمله الأقواس من كل الجهات، وهو يرتفع ليعانق عنان السماء حيث يعجز الرائي عن رؤية أعلاه ، وأبوابه مفتوحة للوافدين الّذين يُعبرون عن إعجابهم بمآثر الأمراء المُوحّدين وما سطّروه من إبداع حضاري يمثل تأنقًا مدنيًّا ، ويعكس واقعًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا، ينم عن مظاهر الترف والنعمة الّتي أوصلتهم إلى مثل هذا التفنن في المجال المعماري.

ومن القصور الّتي شيّدها عبد المؤمن" قصر الربيع" الّذي بناه في بجاية، وقد وصفه حسن ابن الفكُّون القسنطيني (تُوفي بَعد 620هـ) بقوله:

وَلَمَّا نَزَلْنَا سَاحَةَ القَصْرِ رَاعَنَا بِكُلِّ جَمَالٍ مُبْهِجِ الطَّرْفِ مُرْتَقِ
فَمَا شِئْتَ مِنْ ظِلٍّ وَرِيفٍ وَجَدْوَلٍ وَرَوْضٍ مَتَى تُلَمْلِمْ بِهِ الرِّيحُ يَعْبَقِ[2]

[1]– المقري: نفح الطيب ،ج1، ص470.
[2]– الغبريني: عنوان الدراية ، ص335.

ويظهر أن بهاء منظر ساحة القصر قد سلب عقل الشاعر فشغله عن وصف القصر وأجزائه، فانصرف إلى ذِكر ما رأته عيناه من الحدائق والرياض المحيطة به والّتي احتوت على شتى أنواع الرياحين والورود، فشكّلت بذلك لوحة تعبيرية مُلئت بالألوان المتناسقة والروائح العطرة.

وعكف أصحاب القصور على تزيينها بأصناف الأشجار والأزهار فغدت حدائــق غنّاء استدعت انتباه الشعراء، وسحرت بجمالها وفتنتها قلوبهم، ومن هؤلاء علي بن أحمد البلنسي(ت564هـ) الّذي راح يعبّر عن افتتانه بالرياض والحدائق الّتي كانت بجـوار قصر المنية ،الّذي يقع بالقرب من الرصافة والبحيرة، حيث توجد به نباتات وأزهار نادرة ينساب فيها جدول ماء في منظر بديع ، فيقول:

قُـمْ سْقِنِـــي وَالرِيَـاضُ لَابِسَـةٌ وَشْـــيًا مِنَ النُّـــورِ حَاكَـهُ القَطْـرُ
فِـــي مَجْلِـسٍ كَالسمَـــاءِ لَاحَ بِـهِ مِنْ وَجْـــهِ مَنْ قَدْ هَوِيتُـهُ بَـدْرُ
وَالشَّـــمْسُ قَدْ عُصْفِـرَتْ غَلَائِلَهَا وَالأَرْضُ تُنْـدِي ثِيَابَـــهَا الخُضْـــرُ
وَالنَّـــهْرُ مِثْلَ الفَجْـــرِ حَـفَّ بِـهِ مِـــنَ النَّـــدَامَى كَوَاكِـــبٌ زُهْـــرُ[1]

لقد أُعجب الشاعر بجمال الرياض وأنوارها، والبساتين وأزهارها الّتي زينت القصر، حيث تبرز الخضرة في كل مكان، وتتفتح الورود فتنشر قطرات الندى ويعبق نسيم الصبا بأريجه في كامل الزوايا والأنحاء، وما زاد المنظر بهاءً هو ذلك الجدول الّذي يخترق الرّوض مثل الحُسام المسلول.

3- المتنزهات و الحدائق:

قصد أهل المدن من الرجال والنساء المتنزهات الّتي توجد حول الأنهار والأودية وعلى ضفاف الجداول للتمتع بمناظرها الرائعة، وقد حرص الحُكام على أن تظل خضراء

[1]- المقري: نفح الطيب، ج1، ص658.

يانعة بهدف المتعة ، وقد أثارت تلك المشاهد الخلابة قريحة الشعراء، فنظموا أبياتًا تصف المكان وروعته، ومن أشهر المتنزهات "مرج الخز" وهو من متنزهات المروج بقرطبة الّذي قال فيه أبو جعفر الوقشي:

لِلهِ يَوْمٌ بِمَــرَجِ الخَــزِّ طَــابَ لَنَــا فِيهِ النَّعِيــم بِحَيْــثُ الرَّوْضُ وَالنَّهْــرُ
وَالإوز عَلَــى أَرْجَائِــهِ لَــعِــب إِذَا جَــرَتْ بُـدِّدَتْ مَا بَيْنَنَــا الــدُرَرُ
والشَّمْسُ تَجْنَـحُ نَحْوَ البَيْــنِ مَائِلَــةً كَأَنَّ عَاشِقَــهَا فِـي الغَـرْبِ يَنْتَظِــرُ [1]

يرسم الشاعر مشهد النهر الّذي مُلئت أرجاؤه بالروض الأخضر، وكان منظر الإوز وهي تسبح وتمرح وتنثر ما عليها من الماء فوق المرج، ما أضفى على المكان سحرًا وجمالًا، وقد استحضر الشاعر في رسم صورته مشهد الشّمس الّتي مالت للغروب والرحيل.

ووصف ابن عبد ربّه أحد المتنزهات، فتصوّر معركة قامت بين الرياض والجو فقال:

بَيْنَ الرِّيَـاضِ وَبَـيْنَ الجَــوِّ مُعْتَـرَكُ بِيضٌ مِنَ البَرْقِ أَوْ سُمْـرٌ مِنَ السُّمْــرِ
إِنْ أَوْتَرَتْ قَوْسَهَا كَفَّ السَّمَاءِ رَمَــتْ نَبْلًا مِنَ المَــاءِ فِي زَغَــفٍ مِنَ الغُــدُرِ
فَأَعْجِـبْ لِحَــرْبٍ لَمْ تُثِـرْ ضَـرَرًا نَفْــعُ المَحَــارِبِ مِنْـهَا غَايَةُ الظَّفْـرِ
لِأَجْــلِ ذَاكَ إِذا هَبَّـتْ طَلَائِعَــهَا تَـدَرَّعَ النَّهْــرُ وَاهْتَـزَّتْ قَنَا الشَّجَـرِ [2]

يرى الشاعر أن ما يسقط من قطرات المطر في الغدران الصافية نِبالًا رمتها السماء ، ثم يبدو له ما يصيب الأشجار من اهتزاز بفعل الرياح ، تصدِّيا لهجوم السماء

[1]– المقري: نفح الطيب،ج1، ص474.
[2]– ابن الأبار: تحفة القادم، ص147.

و يُقرر أن هذه الحرب لم تثِر ضررا لأن الأنهار حاولت الدفاع عن نفسها بدُروع من أمواجها، حتى إذا سقطت عليها السّهام لم تؤثر فيها.

ولابن حبوس الفاسي (ت570هـ) بيتان من الشعر في وصف مُتنزه حيث الحدائق تُناغيها ريح الصبا، فيقول:

إِنْ رَنَّــتِ الرِّيـحُ الخَفـُوقُ إِزَاءَهَــا تَـرَكَ القَضِيـبُ قَوَامَــهُ وَتَمَيــلَا
شَـرِبَ النَّشَـاطَ سُلافـَةً حَتى انْثَنَى وَلَوْ أَنَّــهَا حُرِمَــت عَلَيْـهِ تَـأَوَّلَا[1]

إنه منظر الرياض هبّت عليها الريح فـتحركت أغصانها، تناوله الشاعر فجعل من هبوب الريح جَلبةً وعَويلاً ومن الغصن قدًّا يميل ، وبثّ في اهتزاز الأغصان غِبْطةً ونشاطًا ، وتعرض لتحريم الخمر ولجأ إلى التأويل ليجعلها للأغصان مُباحةً حلالاً.

ولم ينس شعراء العصر المُوحّدي خلال وصفهم لنزهاتهم أن يتوقفوا عند الأنهار الّتي ترفد الأرض بالخصب والعطاء، وتمد الرياض بالحياة والنماء ، فتُحولها إلى بساطٍ أخضرٍ فصوّروها في قصائدهم، ووصفوها في حالة سكونها وجريانها.

وللرصافي البلنسي مقطوعات رائعة في وصف نهر اشبيلية الأعظم ، وصفًا فاق به الشعراء السابقين وسجل له قِدم السّبق بشهادة الأدباء والمؤرخين قديمًا وحديثًا يقول ابن الأبار " إن التولّع بهذه الأبيات جعلها تتكرر على شِفاه الناس إنشادًا وترديدًا حتى عام 641هـ" [2]، وقال عنها مصطفى الشكعة " إن البلنسي الرصافي الرفاء يتألق تألقًا بالغًا في وصف النهر ، ويُوفق توفيقًا مُعْجَبًا فيما خلع عليه من تشبيه ، وبما أسبغ عليه من ألوان"[3] ، يقول الرصافي:

---

[1]– صفوان بن إدريس: زاد المسافر، ص14.

[2]– ابن الأبار: تحفة القادم، ص 110.

[3]– الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص 357.

وَمُهَـدَّلُ الشَطَّيْـنِ تَحْسَـبُ أَنَّـــــهُ مُتَسَيِّــلٌ مِـــنْ دُرةٍ لِصَـفَائِـــهِ
فَاءَتْ عَلَيْــهِ مَـعَ الهَجِـيرَةِ سَرْحَــهُ صَـدَئِـتْ لِفَيْئَتِـهَـا صَفِـيحَـةُ مَائِـهِ
فَتَــرَاهُ أَزْرَقُ فِـي غَلَالَــةِ سُمْــرَةٍ كَالــدَّارِعِ اسْتَلْــقَى بِـظِــلِّ لِوَائِــهِ[1]

فما أروع هذا النهر الّذي تدلت الأغصان على ضِفته، فمدت ظِلها عليه فبدا ماؤه وكأنّه ينبُع من دُرة بيضاء ناصعة تُشبه الصفحة ال براقة الّتي ظهر عليها الصدأ فالصورة الّتي رسمها الشاعر لوحة تعبيرية بالغة الدقة يستريح لها الخاطر ، وتتمتع بمنظرها العيون، فمشهد الماء المتدافع والّذي يجري بين الأشجار الّتي مدّت أغصانها إلى النهر، تشبِه صاحب اللّواء الّذي نام بِظِل رايتِه للراحة والاسترخاء.

ولابن سهل الأندلسي أوصاف كثيرة في النهر، لكن صُوَره للنهر لا تأتي منفردة و إنما يضعه في إطار وصف منظر طبيعي، يقول في نهر اشبيلية :

للهِ نَهْــــرٌ مَــا رَأَيْــتُ جَمَالَــهُ إِلَّا ذَكَــــرْتُ لَدَيْـهِ نَهْـرَ الكَوْثَــرِ
وَالشَّمْـسُ قَدْ أَلْقَـتْ عَلَيْـهِ رِدَاءَمَـا فَتَـرَاهُ يَرْفَــلُ فِي قَمِيــصٍ أَصْفَـرِ
وَالطَّيْــرُ قَدْ غَنَّتْ لِشَطْـحِ رَوَاقِصٍ فَوْقَ الغَدِيــرِ جَــرَرْنَ ثَوْبِ تَبَخْتُرِ[2]

إن الشاعر يُعبر عن إعجابه بجمال النهر ، فعندما ترمق عينه ذلك النهر سرعان ما يتبادر إلى ذهنه نهر الكوثر الموجود في الجنة ، كما أن الشّمس خلعت على النهر من أشعتها رداءً أصفر ، لذلك رآه الشاعر يتبختر في قميص أصفر رقيق.

وفي لوحة أخرى من لوحات ابن سهل نراه يُصوّر النهر وهو يجرى بين الرياض فيقول:

[1]– ابن سعيد: رايات المبرزين ، ص 212.
[2]– ابن سعيد:اختصار القدح المعلى، ص77.

وَالنَّهْــرُ مَا بَيْنَ الرِّيَـاضِ تَخَالُــهُ سَيْفًـا تَعَلَّــقَ فِي نِجــادٍ أَخْضَـرَا
وَجَـرَتْ بِصَفْحَتِـهِ الصِّبَا فَحَـسِبْتَـهَا كَفًّا تَنَمَّــقَ فِـي الصَّفِيحَـــةِ أَسْطُــرَا
وَكَأَنَّــهُ إِذْ لَاحَ نَاصِــعُ فِــضَّـةٍ جَعَلَتْـهُ كَفُّ الشَّمْـسِ تِبْـرًا أَصْفَـرَا
أَوْ كَالخُــدُودِ بـَدَتْ لَنَــا مُبْيَـضَّـةً فَارْتَـدَّ بِالخَجَــلِ البَيَاضُ مُعَصْفَـرَا[1]

يظهر النهر في هذه الأبيات كسيفٍ تعلّق في حِمَالِه الأخضر، ويُصوره الشاعر حين انعكست الشمس على صفحته ك فُتات ذهب أصفر، أو كخُدود أصبحت من أثر الخجل صفراء بعدما كانت بيضاء.

وتتعدد صُور النهر وأوصافه عند شعراء العصر ، فيتخيلونه تارة كالسوار وأخرى كالقوس، وثالثة كالدرع أو السيف ، ومن الصور المألوفة عندهم تشبيه النهر بالأراقم في التوائها، لكن ابن الأبار القضاعي (ت 658هـ) أضاف إلى الصورة ميل صفحة النهر إلى اللون الأحمر، وهي لحظة الوعي بالصوارم الدامية ، فيقول :

وَنَهْــرٌ كَمَا ذَابَـتْ سَبَائِكُ فِضَّــةٍ حَكَـتْ بِمَحَانِيـهِ انْعِطَافُ الأَرَاقِــمِ
إِذَا الشَّفَقُ اسْتَوْلَى عَلَيْــهِ احْمِرَارُهُ تَبَدَّى خَصِيبًا مِثْلَ دَامِـي الصَّـوَارِمِ[2]

شبّه الشاعر النهر بسبائك فضة ذائبة ، وبالتواء الحيّات، كما عقد مقاربة بين منظر النهر الّذي احمر ببقية ضوء الشمس، وبين السيوف الملطّخة بالدّمــاء ، ونلحظ على هذه الصورة طابع ال كآبة والتشاؤم ، فاحمرار الشّفق ي رمز للرّحيل وكثرة الدّماء واللافت للنّظر في مقدمات قصائد ابن الأبار أن أكثر من مُقدمة وَرد فيها ذِكر الدّم سواء في الغزل أم الطبيعة أم أي غرض آخر[3]، فكانت الدّماء تُراود خياله حاضرة في

[1]– ديوانه: ص36.
[2]–المقري: أزهار الرياض، ج3، ص223.
[3]– ينظر مقدمات قصائده في ديوانه في الصفحات: 47– 254 – 286 –347.

شعره ، ولسنا نعلم ربما لظروف حياته واستبصاره بوِشايات أعدائه يَد في ذلك، وكأن هناك تراسلًا في اللاوعي بين صورة الدماء في القصائد، و بين توديعه الدنيا مقتولا.

وله شعرًا في وصف جدول يشُق غديرً ا عرضه بأسلوب ينطلق من مشهد حربي حيث يقول:

وَرُبَّ حَدِيـقَـةٍ بَـــرَزَتْ عَــرُوسًا فَتَـوَّجَـهَا وَطَـوَّقَـهَا الغَمَـــــامُ

يَـشُــقُّ بِجَـــدْوَلٍ فِيــهَا غَـدِيـرٌ كَمَا يُنْضِـــى عَـــلَى دِرْعٍ حُــسَامُ[1]

امتزجت في النص مظاهر البهجة والسرور والمأساة، فالحديقة بدَت عروسًا وكان لها الغمام كالطوق في العنق، وكالتاج على رأس الفتاة يوم ز واجها، وحين وصل إلى وصف التلاقي الجميل بين الجَدول والغدير ، استلهم مشهدًا حربيًا فارق موضوع عُرس الطبيعة ، فكان الجَدول في اختراقه الغدير كالحُسام الّذي يطعن الدّرع ، أي شبّه الجَدول بالحُسام ، والغدير بالدّرع.

4- نافورات المياه:

عرفت العمارة الإسلامية في عصر المُوحّدين عبر تاريخها الطويل فترات من التألق والتطور الكبير في الهندسة والتصميم ، فكانت النوافير الّتي ذخرت بها الحدائق والبساتين، أحد معالم التميز في الحضارة الإسلامية ، ومظهر من مظاهر تفوقها الجمالي والهندسي .

ولقد اهتم الأندلسيون والمغاربة بمظاهر الترف في قصورهم ، ومزارعهم ، وأماكن سمرهم وأنسهم ، فشكلوا في البِرك (نافورات) مختلفة الأشكال والأحجام من رخام أو

[1]- ديوانه : ص 295.

نُحاس كأشجار أو حيات أو حيوانات تمج الماء من أفواهها في منظر بديع، لتحقيق تلك الغايات البيئية و الجمالية.

وهذا الشكل الحضاري لم يكن متواريًا عن اهتمام شعرائنا بل كان حاضرا في المشهد الشعري لديهم ، حيث وصلت إلينا مقطوعات كثيرة في وصفها ، ومن ذلك قول ابن الرائِعة في فوارة رخام:

يَا حُسْـــنَ فَوَّارَةٍ* لِلأُفُـــقِ رَاجِمَـــــةٍ بِالشُّهُـــبِ تَنْـزُو نُزُوَّ الوَاثِبِ اللَّعِـبِ
يَنْسَابُ عَنْها حَبَـابُ المَـاءِ مُنْدَفِـعًا إِلَى البُحَيْرَةِ مِثْلَ الأَيْمِ** مِنْ رُعُـبِ
كَأَنَّمَـا مَارَ تَحْـتَ الأَرْضِ فِـي كَبَـدٍ فَحِينَ أَبْصَرَ وُسْـعًا جَدَّ فِي الهَـــرَبِ
فَقَـرَّ فِيهَا وَقَـــدْ أَرْضَـــاهُ مَسْكَنَـهُ وَظَـلَّ يَبْسِمُ من عُجُـــبٍ عَنِ الحَبَبِ
وَظَلَّتِ القُضْبُ مِنْ عَشْقٍ تَـحُومُ عَلَى تَقْبِيلِـهِ عِنْدَمَا يَفْتَرُّ عَـــنْ شَنَـبِ[1]

يرسم الشاعر لوحةً جميلةً للفوارة ، فيتخيلها عندما تقذف مياهها إلى أعلى كأنّها تَرجُم الأفق بشِهابها ، ويصف الماء وقد انساب إلى الأرض فاتخذها سكنًا ومُستقرًّا، ثم أخذ يُظهر ثغره المُبتَسم فانجذبت الأغصان إليه ومالت تُقبله.

ووصف الرصافي البلنسي روضًا جميلاً رائقاً ، وفي وسطِه رُكِّبت صنوبرة نحاسية يجرى الماء من سيقانها ، فيقول:

وَرَوْضٍ جَـــلَا صَـدَأَ العَيْـــنِ بِـهِ نَسِيـمٌ تَجَـــارَى عَلَـى مَشْـرَبِـهِ
صَنَوْبَـــرَةٌ رُكِّبَـــتْ سَاقُهُـــــا عَلَيْـــهِ فَخَاضَـــتْ حَـشَـا مَذْنَبِـهِ

* فوّارة: نافورة الماء .

**الأيم: الحيّة الذكر.

[1]- ابن سعيد: رايات المبرزين، ص71-72.

فَشَبَّهْتُـــهَا وَأَنَابِيبُـــــــــــهَا بِهَا المَـــاء قَدْ جَـــدَّ فِي مَسْكَنِـــهِ
بِأَرْقَـــمٍ كَعَّـــكَ مِـــنْ شَخْصِـــهِ وَأَفْـرُخِـــــــهِ يَتَعَلَّقْـــــــنَ بِـــهِ[1]

يُصوّر الشاعر جمال الروض الّذي جلا صدأ العين بمرور الشّع على مَشْرَبِه كما رقّق صفحتها، ثم يأتي بصورة مركّبة حيث شبّه الصنوبرة في هذه الرّوضة وقد رُكّبت ساقها على المشرب أو النهر الصغير، بالأفعى العظيمة الّتي لفّت نفسها وصغارها يتعلّقن بها.

وتعرّض ابن حنّون الاشبيلي (ت630هـ) لوصف فوارة على شكل أسد، فقال:

وَمُوهِـــمٍ قَصدَ حُضْـــنٍ لَيْسَ مَقْصِـدَهُ إِلّا السُّكُـــون فَمَـا شَـــيء يُحَرِّكُـــهُ
تَقَبَّضَ اللَّيْـثُ حِـرْصًا لِلْوُثُـوبِ عَلَـى فَرِيسَـــة وَحَـذَارِ الفَـــوْتَ يُدْرِكُـــهُ
وَالمَـــاءُ فِي فِيـــهِ كَالثُّعْبَـانِ مُضْطَـــرِبًا يَبْغِي التَّخَلُّـــصَ مِنْـــهُ وَهُوَ يُمْسِكُـــهُ [2]

يبدو الأسد في هذه الأبيات وكأنه يريد حضن شيء ليس له، بالرغم من أنه ساكن في مكانه لا يتحرك ، لكن طريقة نَحته توحي وكأنه متأهّب للانقضاض على فريسته ولا يريد إفلاتها من يده، أما الماء المنسكب من فمه والّذي يسيل بغزارة يشبه في شكله الثعبان الّذي يحاول الفرار من الأسد الّذي أحكم قبضته عليه.

نلاحظ مما سبق أن الشعراء المُوحّدين قد أولوا اهتمامهم الكبير في رسم مظاهر حضارتهم بالكلمة المعبرة والصور الموحية ، فنظروا إلى النوافير نظرة متأمل ، وراحوا يصفون هذا الفن المعماري الّذي يبرز جمال الطبيعة ، ويبث المباه ـــج في العيـــون والنّفوس.

[1]– ديوانه: ص49.

[2]– ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج1، السفر1، ص288.

5- الدواليب و النواعير:

تمتاز الدولة المُوحّدية بوفرة مياهها، وكثرة أنهارها ، وقد اهتم سكانها بالزراعـــة والري ، ونقلوا طرق الرّي الّتي استخدمها العرب في المشرق وطوّروها ، ولهذا أدخلوا إلى بلادهم فكرة إنشاء النواعير والدواليب لري البساتين والرياض ، والحدائق والمتنزهات والحقول في معظم المدن المغربية والأندلسية، وليس بمُستغرب أن يولِي الشعراء النواعير والدواليب اهتمامهم ، فقد وجدوا فيها متعة الغناء والطرب ، وحَفزت فيهم روح الإبـــداع والابتكار الشعري والتجديد ، يرى هنري بيريس أن (الشعراء العرب عندما تغنوا بالناعور أظهروا بوضوح قدرة الماء المخصبة الّتي من دونها يصبح الماء مادة بلا فائدة ، سواء أكان في أغوار العيون أم في مجرى الأنهار)[1] ، وفي ظل هذه الأجواء عاش الشعراء مع هذه الآلة الجامدة الّتي ملكت حواسهم واستولت على أفئدتهم ، فتناولوها بشعرهم ومزجوا بينها ومشاعر النفس المتضاربة من حنين وأنين ، وبكاء وضحك ، وتبسم ودموع .

لقد ردّد الشعراء في أشعارهم كثيرا من المعاني الّتي استوحوها من صوت بكاء الدولاب والناعورة، مستذكرين أنين العشاق ، وما يكابدونه من حرقة وألم جرّاء فراق الحبيب، فسرعان ما يجهشون بالبكاء ،ويعلو صوتهم مُعلنين الحزن على فقد الإلف.

ومن الصور الجميلة الّتي رسمها بن الخير البلنسي(ت 571هـ) لدُولابه ، تلك اللوحة الّتي جمعت بين ثلاثة مثيرات في آن واحد : حنين الدولاب، وشجو الحمام، وأنين المريض ، وهذه جميعا تثير الهُموم وتُلهب الأشواق ، فيقول :

[1]- ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5 1988م ، ص 186.

لله دُولابٌ يَـفِيـــضُ بِسَلْسَـــلٍ فِي رَوْضَـــةٍ قَدْ أَيْنَعَـــتْ أَفْنَـانَا
قَدْ طَارَحَتْـهُ بِهَا الحَمَائِمُ شَجْـوَهَا فَيُـــجِيبُـهَا وَتُرْجِـــعُ الأَلْـحَانَا
فَكَأَنَّـــهُ دَنِـفٌ يَـدُورُ بِمَعْهَـــدٍ يَبْكِـــي وَيَسْـأَلُ فِيهِ عَمَّنْ بَانَـا[1]

يُشخّص الشاعر في هذه الأبيات الدولاب، ويُضفى عليه صفات إنسانية، حيث جعله ينبض بالحياة والحركة، فالحمَام يُشارك الدولاب حزنه ويُردِّد نَوْحَه مُتفرقًا، ويَرُد الدولاب الجواب بصوتٍ فيه كثير من الش جن، وقد شبّه في هذه اللوحة الدولاب برجُل أفناه المرض من شدة الهيام ، وكثُر تجواله في الديار بحثا عن الحزين.

وللرصافي البلنسي وصف مشابه لابن سعد الخير، يقول فيه:

وذِي حَنِـيـــنٍ يَكَـــادُ شَجْـــوًا يَخْتَلِـــسُ الأَنْفُـــسَ اخْتِـلَاسَا
إِذَا غَـــــدَا للرِّيَـــاضِ جَـــارًا قَـــالَ لَهَا المَحَـــلُّ :لَا مَسَاسَا
تَبَسَّـــمَ الزَّهْـــرُ حِيـــنَ يَبْكِـي بِأَدْمـــعُ مَـــا رَأَيْـــنَ بَاسَـــا
مِـــنْ كُلِّ جَفْـــنٍ يَسَـلْ سَيْـــفًا صَـــارَ لَـــهَا غِـــمْـــدُهُ رِيَـــاسَـا[2]

أسبغ الشاعر حياة على الدولاب بخَلع صفات الأحياء عليه الحِسية والشعورية فهو عاشقا يبكي بدموع حزينة لفراق الأحِبة، ومن حوله الزهور تضحك لبُكائه، وتفرح لحُـزنه، جفونه كالسيف في حِدّته والرّوض غِمده.

ولم يغب عن الشعراء الحديث عن سبب بكاء الدواليب والنواعير، فربطوه بالحنين إلى الماضي، وفي ذلك يقول ابن الأبار.

[1]– صفوان بن إدريس: زاد المسافر، ص116.
[2]– ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب، ج2، ص351.

وَتَجْـــعَلُ تَؤْدَانُ الحَنِيـنَ لِأَصْلِهَا دَلَالَـة طيْـــبِ المُنْتَمَـى وَالضرَائِـبِ
فَإِنْ يَـكُ لِلْمَـاءِ السلاسِلِ رُوحَـهَا فَجُثْمَانُـهَا فِي الـدَّوْحِ عَالِي المناسِـبِ[1]

يرى الشاعر أن الدواليب والنواعير تذرف الدموع بحسرة وألم على ماضيها الجميل، وتحِن إلى أصلها حينما كانت غصن شجرة أخضر، يتمايل كلما هبّت عليه الريح، أو حطّ عليه طائر، فأعلن الحزن منذ أن قُطع وتحوّل إلى هيكل من الخشب.

وقد يُذَكِّر صوت النواعير بالحنين إلى الديار ، يقول ابن سعيد الأندلسي مُعبرا عن شوقه لبلاده:

هَـذِهِ مِصْـرُ فَأَيْـــنَ المَغْـــرِبُ؟ مُنْـــذُ نَأَى عَنِّـي دُمُـوعِي تُسْكَـبُ
أَيْـنَ حِمْـصُ؟أَيْـنَ أَيَّامِـــي بِـهَا بَعْـــدَهَا لَمْ أَلْـقَ شَيْـــئًا يُعْجِـبُ
كَـــمْ تَقَضَّـــى لِي بِـهَا مِـنْ لَـــذَّةٍ حَيْـــثُ لِلنَّهْـــرِ خَرِيـــرٌ مُطْـــرِبُ
وَالنَّـــوَاعِيـــرُ الّتِـــي تِذْكَـــارُهَا بِالنَـــوَى عَـــنْ مُهْجَتِـي لَا تُسْلَـبُ[2]

قاسى الشاعر خلال وُجوده في مصر من وجع الغربة ، فشدّه الحنين إلى وطنه إشبيلية "حمص الأندلس" بعدما أحسّ بالضياع، وراح يسأل عن بلاده ويتذكر الأيام الرائعة الّتي قضاها في ربوعه ، فبعد أن فرّق القدَر بينهما تبدّدت سعادته وسروره وخلال رحلة الاغتراب اشتد به الألم ، فبكى حُزنًا وشوقًا إليه ، وأخذ يُحدثنا عن جمال وطنه مستحضرا صوت النواعير ال منتشرة في بلاده، فلم يستطع ال تخلص من تذكار أصواتها الشجية الّتي تملأ المكان، وتبعث في نفسه الحسرة والألم.

[1]– ديوانه: ص53.

[2]– المقري: نفح الطيب ،ج2، ص 281.

وفي مقطوعة أخرى يجد محمد بن الحسن الجذامي(ت 631هـ) شيئا من التقارب بينه وبين صوت الدولاب في أنينه وبكائه ، فيُذكّره بِحَاله عندما بكى يوم فارق أهله وبلاده ، يقول :

لَقَـدْ شَاقَنِـي مِنْـهَا أَنِيـنٌ كَأَنَّـهُ أَنِيـنُ بُكَايِي يَوْمَ بِنْتُ عَنِ الأَهْـلِ[1]

ويتعرض محمد بن عبد الله بن دادوش الفاسي(ت 639هـ) لوصف ناعورة فيمنَحها صفات الأحياء وإحساساتهم ، فيقول:

وَبَاكِـيَـةٍ لَـمْ تُـرْعَ لِلنَّـوَى وَلَا عَـرَفَـتْ زَفَـرَاتِ الهَـوَى
تَـئِـنُ أَنِينِـي يَـوْمَ اسْتَـقَـلَّ رِكَـابُ سُلَيْمَـى بِـذَاتِ اللَّـوَى
إِذَا أَسْلَبَتْ دَمْعَهَـا فِـي الصَّعِيـ ـدِ أَيْنَـعَ كُـلُّ قَضِيـبٍ ذَوَى[2]

يصف الشاعر بكاء الناعورة وأنينها، ويثير هذا الإحساس في نفسه مشاعر الحزن ،لأنها ذكّرته بألَمه يوم فَرَّقت الأيام بينه وبين إلفه، ويستعير لها مشاعر إنسانية فإذا هي تُحِسّ فتئن وتبكي، ولكن بكاءها يُحيي الرياض ويبعث البهجة فيها.

والتفت ابن الأبار إلى تغيُّر صوت الدولاب بين البُطء والقوة ، فشبّه صوته المنخفض بصوت الطائر في تغريده، وفي حال عُلوه وارتفاعه بزئير الأسد، يقول:

يُعْلَـي وَيُخْفَـضُ رَنَّتَيْـهِ لِهًّا شَـدَا غَـرِدٌ وَتَابَـعَ فِي زَئِيـرٍ أَغْلَـبُ[3]

ويجمع ابن الأبار في قطعة أخرى بين نقيضين في وصف صوت الدولاب، فيقول:

[1]– ابن خميس وبن عسكر: أعلام مالقة، ص165.
[2]– ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، ج5، السفر8، ص201.
[3]– ديوانه: ص62.

وَكَأَنَّـــهُ مِـمَّا شَـدَا مُسْتَهْـــتِرِ وَكَأَنَّـــهُ مِـــمَّـــا بَـكَـى أَوَّابُ [1]

يشبه الشاعر الدولاب حينما يترنّم بصوت إنسان مُسْت خف، وهو حين يضعف أشبه بإنسان بَحّ صوته من شدة بكائه ندمًا وأسفًا على ما ارتكبه من السيئات والذنوب.

ورسم علي ابن عسكر الغساني(ت638هـ) صورة بديعة للناعورة في شكلها ودورانها حيث قال :

وَدَائِـرٍ يَسْـرِقُ مِـــنْ مَائِـــهِ كَوَاكِـــبًا فَهُـــوَ بِـهَا صَاعِـــدُ
حَتّـى إِذَا قَـامَ بِـهَـا وَاسْـتَـوَى وَقُلْـــتُ:هَـــذَا فَلَـــكٌ زَائِـــدٌ
أَهَـــوَتْ إِلَـى الأَرْضِ كَمَـا جَـــرَتْ نَـيَـــازِكٌ لَاحَ لَهَـــا مَـــارِدُ
فَعَـــادَ مِـــنْ حِلْيَـتِهَا عَاطِـــلًا وَهُـــوَ إِلَـــى حَالَتِـهِ عَائِـدُ[2]

شبّه الشاعر الناعورة بفلك دائر، أما الماء الّذي تسرقه من النّهر بالكواكب ، وقد أضاف شيئًا جديدًا على تشبيهه، إذ شبّه الماء الّذي تُلقيه على الرياض بالشهب الّتي سقطت مفزوعة من السماء كأن ماردًا قد ظهر لها وأخافها.

ومن المقطوعات الرائعة الّتي تجعل الدولاب ينبض بالحياة، وهو في دَورانِه كأنما يوحي إلى الأيام في تناقضاتها، أبيات لابن الأبار، يقول فيها:

كَلَـــفًا بِـــدُولَابٍ يَـــدُورُ كَأَنَّـــهُ فَلَـــكٌ وَلَكِـــنْ مَـــا ارْتَقَـاهُ كَوْكَـبُ
نَصَّبْتُـهُ فَوْقَ النَّهْرِ أَيْدٍ قَـدَّرَتْ تَرْوِيحَـــهُ الأَرْوَاحُ سَاعَـــةَ يُنْصَـــبُ
فَكَأَنَّـــهُ وَمُـــوَ الطَّلِيـقُ مُقَيَّـــدُ وَكَأَنَّـــهُ وَمُـــوَ الحَبِيـــسُ مُسَيَّـــبُ
لِلْمَـــاءِ فِيـــهِ تَصَعُّـــدٌ وَتَحَـــدُّرٌ كَالمُـــزْنِ يَسْقِـي البِحَارَ وَيَسْكُـــبُ
شَاقَتْـــهُ أَلْحَانُ القِيَانِ وَشَاقَـهَا فَيَبُـوحُ مِـنْ كَلَـفٍ بِـهِـــنَّ وَيُطْـــرَبُ

[1]– ديوان ابن الأبار، ص67.

[2]– ابن خميس و بن عسكر: أعلام مالقة ، ص165.

أبـدَأَ عَلَـى وِرْدٍ وَلَـيْـسَ بِقَانِـعٍ مِـنْ غُلَّـةٍ فـِي صَـدْرِهِ تَتَلَهَّـبُ
كَالعَاشِقِ الحَـرَّانِ يَرْتَشِفُ اللَّمَـى خَمْـرًا وَلا يَرْوِيـهِ رِيـقٌ أَشْنَـبُ
هَامَـتْ بِهِ الأَحْـدَاقُ لَمَّـا نَادَمَـتْ مِنْـهُ الحَدَائِقُ سَاقِيًـا لَا يَشْـرَبُ
هَلْ تَرْجِـعُ الأَيَّامُ عَصْـرَ شَبِيبَـةٍ مَا زَالَـت فِيـهَا بِالحِـسَانِ أُشَبَّـبُ[1]

يُصور الشاعر الدولاب بفلك يدور باستمرار، وأهم ما يُميزه أنه بُنِي بقوة وإحكام فلا يستطيع الإفلات منه الكوكب إذا ارتقاه، ثم عمد إلى استخدام التضاد فشبّهه بالطليق المُقيد وبالحَبِيس المُسَيّب ، وأشار إلى حركته الّتي تنحدر وتتصاعد تماما مثل السّحب الّتي تَصُب في البحر ، ونجد ابن الأبار في الأبيات الأخيرة يُسقط على الدولاب حالته النّفسية ، فهو كالعاشق ال ولهان الّذي تلهب النار صدره من أثر الشوق والحنين إلى الجاريات المغنيات اللّاتي اعتاد عليهن أيام كان شابا في منتهى الحيوية والنشاط .

ومن الصور البديعة الّتي خطرت لابن سعيد القلعي (ت592هـ) لما وقف يتأمل شكل الدولاب وهو يقذف الماء، يقول:

كَأَنَّ نِصْفَـهَا العُلْـوِي قَـوْسًا مَرِنَـةً تُرَامِى سِهَامَ المَـاءِ عَنْ كُلِّ جَانِـبِ
تُعَـدُّ مِـنَ الأَفْـلَاكِ إِنَّ مِيَاهَـهَا نُجُـومٌ لِرَجْـمِ المَحْـلِ ذَاتُ ذَوَائِـبِ
وَأَطْرَبَـهَا رَقْـصُ الغُصُـونِ ذَوَائِـبًا فَدَارَتْ بِأَمْثَـالِ السُّيُـوفِ القَوَاضِـبِ
وَتَحْسَبُـهَا وَالرَّوْضُ شَـرْبًا وَقِينَـةً كَمَنْ حَـوْلَهَا مَا بَيْنَ شَـادٍ وَشَـارِبِ [2]

يُشبّه الشاعر الدولاب بالقوس المرِنة الّتي يُرمى منها سِهام فيُسمع لها صوت رنين ثم نسج لوحة أخرى عرض فيها أثر التناسب بين صوت الدولاب ، وأغصان الشجر

[1]– ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج2، ص312.
[2]– ابن سعيد: رايات المبرزين، ص172.

الّتي أخذت تتمايل وتتراقص من الفرح ، مُشبِّهها بالمجموعة الّذين اجتمعوا في مجلس يشربون الخمر وبينهم مُطربة تغني فتطرب أسماع الحضور بصوتها الرنان.

ومن الصور الطريفة المحاورة الّتي جرت بين أبي زيد الجياني المعـــــروف بالنجاري (ت607هـ) و صفوان بن إدريس (ت598هـ) في وصف الدولاب الملاصق للقصر على ضفة نهر بمرسية ، فالتفتا إلى بكائه ، وعقدا مقارنة بين دَمعِه المُنهـمر ودمع السحاب ، فكلاهما يذرفان الدموع بغزارة على الرغم من اختلافهما في المشـي فهذا يمشي وئيدًا، وتلك تمشي مُسرعةً

قال النجاري :

فَيَا عَجَـبًا يَنْـهَلُّ وَالكِـفُ دَمْعـهَا سَرِيـعًا وَإِنْ كَانَتْ تَـدُورُ عَلَى رِسْـلِ

فقال أبو بحر:

كَذَاكَ السَّحَـابُ الغُرُّ تُرْسِلُ دَمْعَـهَا سَرِيـعًا وَتَمْشِي فِي السَّمَـاءِ عَلَى مَهْلِ

فقال النجاري :

تَسَلْسَلَ مِنْهَا المَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِـبٍ فَخَيَّلَتْـهَا مِنْ عَـبْرَةِ الصِّـبِّ تَسْتَمْـلِي

فقال أبو بحر:

كَأَنَّ السَّحَابَ الغُرَّ أَلْقَتْ بِسِـرِّهَا إِلَيْهَا فَلَمْ تَكْتُمْ وَضَاقَـتْ عَنِ الحَمْـلِ [1]

لقد عمد الشاعران إلى التشخيص حيث شبّه النجاري الماء المُتقاطر من الدولاب بدموع إنسان عاشق، أما صفوان بن إدريس فشبّه السحابة بإنسان أوْدع سِرّا لدَى الدولاب غير أن هذا الأخير ضاق ذَرْعا ولم يعد يحتمل الصمت، فما لبث أن أذاعه وكشفه.

وقد التفت الشعراء إلى وصف الدلاء أو القواديس الّتي كانت تُربَط على النواعير والدواليب، من ذلك قول أبي الأصبغ بن رشيد في دولاب:

[1]– ابن الأبار: تحفة القادم، ص 156.

وَمُنْجَنُـونٍ إِذَا دَارَتْ سَمِعْــتَ لَـهَا صَـوْتًا أَجَــشَّ وَطَـلُّ المَــاءِ يَنْهَمِــلُ
كَأَنَّ أَقْدَاسَـهَا* رَكْـبٌ إِذَا سَمِعُـــوا مِنْهَا حُـدَاءً بَكَــوْا لِلْبَيْنِ وَارْتَحَلُـوا[1]

جمع الشاعر بين الصوت المبحوح من شدة بكاء الدولاب من جهة ، وبين الماء الّذي يتساقط من القواديس من جهة أخرى، فشبّه الدولاب بالدّموع الّتي تنهَمر من العين أما القواديس الّتي رُكّبت على ظهره ، فشبّهها بالراكِبين الباكين الّذين عقدوا العزم على الرّحيل لما سمعوا لحنها الحزين الّذي يُنذر بالفِراق والهجران.

يتضح مما سبق أن الشعراء في عصر المُوحّدين اهتم ـــوا بوصف الدوالـــيب والنواعير المستعملة في حياتهم ، لأنها تُنشّط سُبل معاشهم ، وتُشكل رافدًا مُتدفقًا يَمد حضارتهم بأفانين من أساليب التنعّم والثراء ، وإضفاء جوّ من البهجة والحبو ر، فتأمّل الشاعر شكلها ودورانها وهي تزْوي الرّياض والبساتين ، ولم يقِف عند مظهرها الخارجي فحسب ، بل أثارته أشياء أخرى كالصّوت والحركة وجريان الماء ، فعبّر عن ذلك بألفاظ راقية ونغمة موسيقية تنِم عن ذوقه الرّفيع.

6- المساجد وما يتعلق بها:

اهتم المُوحّدون بالعمارة لأنها في نظرهم واجب ديني مقدس ، كما اتجه ت أنظارهم إلى بناء المساجد والاعتناء بها باعتبارها دُور عبادة ورِباط ، بجانب كونها دليل هدايـة ومنبرًا لنشر العلم ، فيها تتزود النفوس بالتقوى وعمل الصالحات ، والتقرب من الله سبحانه وتعالى.

ولم يَغِب عن شعراء العصر أن يُسجلوا بين ثنايا أشعارهم المكانة العظيمة لبُيوت الله في المجتمع، و يكتبوا على جُدرانها شعرًا يُخلد تعلُّق قلوبهم بالمساجد. فقد خرج عبد

*الأقداس جمع قَدَس بفتح القاف والدال والعامة تقول قادوس.

[1]- ابن دحية : المطرب من أشعار المغرب، ص 96.

الرحمن الرفاء المرسي الكناني[1]، وأبو بحر بن صفوان بن إدريس ، وأبو عبد الله بن مرج الكحل إلى متنزهات مرسية ، فمرُّوا في طريقهم بم سجد فجلسوا فيه يسيرا فلما همّوا بالانفصال ، كتب أبو بحر في حيطانه :

قُـدِّسْتَ يَا بَيْــتُ فِـي البُيُــوتِ وَدُمْــــتَ لِلدِّيــــنِ ذَا ثُبُــــــوتِ

فكتب ابن مرج الكحل:

يَعْمُــرُكَ النَّــاسُ فِــي سُجُــــودٍ وَفِــــي رُكُــــوعٍ وَفِـي قُنُــــوتِ

فكتب أبو علي المذكور:

وَإِنْ نَــبَــا بِالغَرِيــبِ بَيْــــتٌ كُنْــــتَ لَــهُ مَوْضِــــع المَبِيــتِ[2]

يتناول الشعراء قُدُسية المسجد، ففيه يعلو في الملأ الأعلى ذِكره ويُرفع اسمه عـز وجل، وهو ملجأ الغريب الّذي ليس له مكان للمبيت.

وتشير النصوص الفنية إلى ما توصل إليه المُوحِّدون من تقدم في علم الهندسة ففي إحدى قصائد ابن مجبر نجد وصفًا للمقصورة العجيبة الّتي ابتدعها المهندس يعيش المالقي للخليفة المنصور الموحدي، وذلك بجامِعِه المُتصل بقصره بمدينة مراكش ، بحيث تُبرز وتغيب لدُخوله، وكأنهم بذلك كانوا السبّاقين في الوصول إلى ما نظُنه اليوم اختراعًا حديثًا لفتح وقفل الأبواب تلقائيا(أوتوماتيكيا)، يقول الشاعر واصفا تلك المقصورة :

طَــــوْرًا تَكُونُ بِمَنْ حَوَتْـهُ مُحِيطَـةً فَكَأَنَّــــهَا سُــــورٌ مِــــنَ الأَسْــــوَارِ

وَتَكُــونُ حِيــــنًا عَنْهُـم مَخْبُــــوءَةً فَـكَأَنَّــهَا سِــرٌّ مِــــنَ الأَسْــــرَارِ

وَكَأَنَّـهَا عَلِمَــــتْ مَقَادِيــــرَ الـوَرَى فَتَصَـرَّفَـتْ لَهُــــمْ عَــــلَى مِقْــــدَارِ

---

[1]– هو أبو علي حسن بن عبد الرحمن الكتاني ، من أهل مرسية ويُعرف بالرفاء، كان حُلو النادرة، وصاحب مقطوعات حِسان، تُوفي ببلده سنة 603هـ. ينظر: ابن الأبار، تحفة القادم، ص210.

[2]– ديوان مرج الكحل الأندلسي: تحقيق البشير التهالي ورشيد كناني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء – المغرب– ط1 ، 1430هـ/2009م، ص54.

فَـإِذَا أَحَسَّــتْ بِالإِمَــامِ يَـزُورُهَـا فِـي قَوْمِـــــهِ قَامَــتْ إِلَى الــزُّوَّارِ
يَبْدُو فَتَبْـدُو ثُمَّ تُخْـــفَى بَعْــدَهُ كَتَكَـــــوُّنِ الــهَالَاتِ لِلأَقْمَـــارِ[1]

لقد وصف الشاعر المَقْصُورة الّتي وُضعت على شكل حركاتٍ هندسيةٍ، بحيث تُخفض لدخول الخليفة وترتُفع لخروجه، وكأنها تعلم بمَوعِد قُدومه ورحيله، وهذا الاختراع يعكس بحق درجة الرقي الحضاري الّذي وصلت إليه بلاد المُوحّدين ، كما يدل على عناية المنصور بالمنجزات الحضارية اقتداءً بأبيه .

وكانت ثُريا المساجد من التُحف الفنية الّتي ابتدعتها يدا الصانع المُ وحّدي، وقد أثار شكل الثريا الكبيرة بجامع القرويين إعجاب الشعراء ، خاصة عندما تُضاء ليلًا ويُروى أنه في ليلة السابع والعشرين من رمضان كان المزياني جالسًا تحت هذه الثريا الكبيرة ومعه ابن عبدون الأديب (ت658هـ) ، ومالك بن المرحل ،ومحمد بن خلف فأنشد المزياني ارتجالا :

أُنْــظُرْ إِلَـى ثُرَيَّـــةٍ نُـــورهَا يَصْـدَعُ بِاللآلِـئِ سَجْــفَ الغَسَـقْ

قال ابن عبدون :

كَأَنَّــهَا فِـي شَكْلِـــهَا رَبْــوَةٌ انْتَظَـــمَ النُّــورُ بِهَـــا فَاتَّسَــقْ

قال ابن المرحل:

أُعِيــذُهَا مِــنْ شَـرِّ مَا يُتَقَـــى وَفَجْـــأَةِ العَيْـــنِ بِــرَبِّ الفَلَــقْ

قال ابن خلف:

بَاهَـــى بهَا الإِسْلَامُ مَا أَشْـرَقَـت كَاسَاتُــهَا عِنْــدَ مَغِيبِ الشَّفَــقْ[2]

[1]– المقري: نفح الطيب، ج3، ص239.

[2]– عبد الله كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، ج2، ص936.

لقد أثارت ثريا المسجد قرائح الشعراء فراحوا يعُبرون عن جمالها وهي تتوهّج نُورا لتضيء الظلام ، وقد شبّهها ابن عبدون بالجَبل في شكلها الرائع خصوصا عندما توقد كؤوسها الزجاجية عند المغيب.

7- المدارس:

تُمثل المدرسة الّتي شيدها أبو الحسن الشاري(ت 649هـ) بسبتة عام 635هـ أقدم مدرسة في المغرب الإسلامي، وبسبب تطلُّبها للدعم المادي، فقد عيّن لها مؤسسها أحسن أملاكه، وزوّدها بخزانة كُتب اشتملت على مُصنفات في مختلف العلوم [1]، اقتناها أبو الحسن خدمة للعلم وللترويج لثقافة المكتوب، فهمّ أبو الحسن بن إسماعيل الأغماتي(ت643هـ) بمدْحه وشُكر صَنيعه، قائلا:

بَنَيْتَ لِأَهْلِ الغَرْبِ مَجْدًا وَسُؤْدَدَا وَفَخْرًا عَلَى الأَيَّامِ يَبْقَى مُؤَبَّدَا
وَمَدْرَسَةٌ للعِلْمِ قَلَّدْتَ جِيدَهَا مِنَ الكُتُبِ الأَعْلَاقِ دَارٌ مِنْضَدَا
نَفَائِسُ كُتُبٍ لَوْ تَصَدَّى لِجَمْعِهَا أَخُو جِدَةٍ فَذٌّ المَعَارِفِ أُجْهَدَا [2]

أبدى الأديب إعجابه بمبادرة أبي الحسن الّتي لها مكانة عظيمة في النفوس بفعل ما قام به من بناء المدرسة، وتحصيل الكتب بأغلى الأثمان لإحياء العلم بسبتة، وبعث روح جديدة في علاقة الإنسان بالمعرفة من خلال هذه اللّفتة الطيّبة ، فلم يدخر جهد في توجيه الطلبة إلى التعلق بالكتب وتمكينهم منها، ووضعها تحت إشارة القُرّاء من مختلف الفئات الاجتماعية لا سيما المُعوزين منهم، وبهذه المَنْقبة صارت شُهرته حيّا وميّتا تتناقلها الأجيال.

[1]- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، ج5، السفر8، ص55.
[2]- نفسه: ص58-59.

8- إنشاء المُجمّعات التجارية:

اعتنى الحُكام المُوحّدون باختطاط الأسواق والدّكاكين لتلبية حاجات المواطنين حيث يقول ابن صاحب الصلاة:" وَالحَوانِيتُ في المَواضِع المذكُورة بأَوثَق البُنيان وأَحسن نَوعٍ في ذَلك الشَّان، عجيبة غَريبة في الزَّمان، وَجَعل لها أربَعة أبْواب كِبار تحُوطها من جوَانِبها الأربعة: أكبرها الباب القَبلي والجَوفِي تُقابلن باب الجامع الجَوفي منه، فلمّا كَمُلت هذِه الأسوَاق بِحَوانِيتها بِالبِناء، نُقِلت إليها سوق العطّارين وسوق التُّجار من البَزّازِين وسُوق المِرَكْضِين* والخَيّاطين، وتزاحم النّاس باعْتِباطهم في المُزَايدة في كِرائـها"[1]، ويظهر هذا القول سعْي المسؤولين لتقسيم الأسواق حسب نوعية السلع المعروضة للبيع للتّسهيل على الرعيّة التّسوق في أحسن الظروف، وشراء حاجاتهم في أقل وقت ، وهذا ينِمّ على حُسن تخطيطهم وبُعد نظرهم، ومراعاتهم لمصالح رعيّتهم.

9- الحمامات :

رفع الإسلام شأن النظافة ، وأعلى قدْرها ، حتى جعل المُتطهرين أحِبّاء الله تعالى إذ قال جلّ جلاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2]، فالمشروع الإسـلامي يَعتبر الطهارة شطر الإيمان، ويُعدها من شروط صـحّة العبادات كالصـلاة والطـواف ومسّ المصحف .

وبما أن المسلم ينبغي أن يكون نظيفًا ، حَسن المظهر ، كان الحديث عن المـاء والتطهر به، وكان اهتمام المسلمين بإنشاء الحمامات العمومية والخصوصية كاهتمامهم ببناء المساجد والمدارس ،والمستشفيات الّتي هي بمثابة مراكز للصحة الروحية والبدنية .

* المِركضين: سوق لبيع الملابس المُستعملة

[1]- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص 396.

[2]- سورة البقرة : الآية222.

ولقد كانت الحمّامات زمن الحضارة المُوحّدية جزء من مقومات الحضارة المدنية لا سيما وقد عمل الخلفاء والأمراء على إنشائها في كل الأرجاء الأندلسية والمغربية باعتبار أن عادة الاستحمام من العادات المتأصلة في المجتمعين ، ونظافة الأندلسيين يؤكدها المقري، حيث يقول :" وأهل الأندلس أشدّ خلق الله اعتناءً بنظافةِ ما يلبسون وما يُفرشون وغير ذلك مما يتعلق بِهم ، وفيهم من لا يكُون عنده قُوت يومِه فيطوِيه صَائما و يَبْتاع صابونًا يَغسل ثِيابه "[1] .

ولا شك أن هذا المظهر الحضاري وجد له صدى في شعر شعراء مرحلة البحث بحيث وصف عددٌ من الشعراء الحمامات ، ومن ذلك مقطوعة من خمس أبيات قالها الرصافي البلنسي(573هـ)،عبّر من خلالها عن مظاهر الفخامة الّتي اتصف بها الحمّام الّذي رآه ، فقال على لسانه:

أُنْظُـــرْ إِلَـى نَقْشِـــيَ البَـدِيـــعِ يُسْلِيـــــكَ عَـــنْ زَهْـــرَةِ الرَّبـِيـعِ
لَـــوْ جُنِـيَ البَحْـرُ مِـــنْ رِيَـــاضٍ كَـانَ جَنَـــى رَوْضِـــي المُـرِيـــعِ
سَقَـانِـــي الله دَمْـــــعَ عَيْـنِـــــي وَلَا وَقَـانِـــي جَـــوَى ضُـلُوعِـــي
فَمَـــا أُبَالِـــي شَـقَـاءَ بَعْـــضِـي إِذَا تَشَـقَّيْـــتُ فِـــي جَمِيـــعِي
كَيْـفَ تَـــرَانِـــي- وُقِيتُ مَا بِـي- أَلَسْـــتُ مِـــنْ أَعْجَـــبِ الرُّبُـوعِ؟[2]

فهذه اللّوحة تكشف عن جمال النقوش والزخارف الّتي تُزيّن جُدران الحمّام ، وهي لوحة مستمدة من الطبيعة الأندلسية الخضراء ، فالصور المرسومة تُغْني عن مشاهدة أزهار الربيع ، ورياضه خصبة ومياهه وفيرة ، وقد ذهب صلاح جرار إلى القول : "إن

[1]- المقري: نفح الطيب، ج1، ص223.

[2]- ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ، ج2، ص 352-353.

كثيرا من النقوش الجميلة تمثل صورا من الطبيعة الأندلسية الخلابة بطيورها وأش ـجارها و أزهارها ومياهها"[1].

ولابن شكيل الصدفي (ت605هـ) صورة رائعة للحمّام، ذكر ما فيه من مظاهر الأُبهة المتمثلة في جدرانه المُز خرفةبالرّسوم، وقُبته الّتي تُضاهي التاج روعةً وجمالًا فقال يُعبر عن ذلك المنظر:

تُلْهِـي العُيُـونَ رُقُـومُـــهُ فَكَأَنَّـــهَا قَـــدْ أُلْبِسَـــتْ سَاحَاتــهُ دِيبَاجَا
مَجْمُوعَـــة أَضْـــدَادهُ فَتَـرَى بِـهَا نَـــارَ الغَضَـا وَالـوَابِـلَ الثجَاجَـا
حَـــرَّانُ مُنْسَكِـــبُ الدُّمُـــوعِ كَأَنَّـــمَا يَحْكِـــي بِـذَاكَ العَاشِـقِ المُهْـــتَاجَا
دُحِيَـتْ بَسِيطَـــةُ أَرْضِـهِ مِنْ مَرْمَـرٍ فَجَـرَى الزُّجَـاجُ بـهِ وَثَلَرَ عُجَـاجَا
وَجَلَـتْ سَماوَاتُـهُ السَّمَاءَ وَإِنَّـمَـــا جَعَلَـتْ مَكَـــانَ النيـــراتِ زُجَـــاجَا
قَامَـتْ عَلَـى عُمُـدٍ جُلِّيْـنَ عَرَائِسًا فَتَـرَى لَـهَا السَّمْـكَ المُكَـلَّلِ تَاجَـا[2]

يُعبّر الشاعر في هذه الأبيات عن انبهاره بجمال الحمّام ودقّة الصّنعة في بنائه مُعبِرا عن إعجابه بروعة الزخارف الّتي زينت جدرانه بالرّسوم ، وساحاته المفروشة المختلفة الألوان وكأنّه ثوب مزركش بالحرير، ونلمس في الصورة ارتياح نفسية الشاعر لذلك الحمّام، فمياهه دافئة لا تنقطع، وهي في سُخونتها تُشبه حال عاشق ولهان يسكب دموعه بشدّة، ثم يلتفت ليصف أرضيته المفروشة برخام أبيض برّاق، كما شبّه البخار المنبعث من الماء الساخن بال دخان، أمّا سماؤه فشبّهها بالأضواء ، والمصابيح الّتي تضيء الحمّام فقد شبّهها بالأقمار والنجوم الّتي تُنير السماء، ويزهي الصورة بوصف غرفة الجلوس بعد الاستحمام ، والّتي تتوتكز على مجموعة أعمدة شبّهها الشاعر

[1]– صلاح جرار: الحمامات في الأندلس، مجلة الفيصل، دار الفيصل الثقافية، الرياض، العدد40، ص128.
[2]– المقري: أزهار الرياض، ج2، ص368.

بالعرائس الفاتنات، وقد شبّه سقف الغرفة بالتاج الّذي يوضع على رؤوس تلك العرائس فيزيدها بهاءً وحُسنًا.

ووصف محمد ابن العابد الفاسي(ت662هـ)[1] حمّاما دخله ، فنقل لنا في قصيدته بعض العادات الاجتماعية الّتي كانت سائدة في ذلك الوقت، فقال :

لَمْ نَدْخُلِ البَيْتَ حَتَّى أَتَى بِأَرْبَعٍ فِي صُوَرِ البَدْرِ
فَقُلْنَا:هَاتِ البَاقِلاءَ التِي بَدَتْ لَنَا فِي حُلَلٍ خُضْرٍ
فَاجْتَمَعَتْ أَطْعِمَةٌ حَقُ مَنْ أُعطِيَها الإِقْرَارُ بِالشُّكْرِ
وَحِينَ ضَمَّ اللَّيْلُ أَذْيَالَهُ وَانْتَشَرَتْ أَلْوِيَةُ الفَجْرِ
قُمْنَا لِبَيْتٍ حَرِجٍ مُظْلِمٍ قُسِّمَ بَيْنَ البَرْدِ وَالحَرِّ
تَخَالُ مَنْ ضَمَّتْهُ أَحْشَاؤُهُ كَأَنَّمَا أُدْرِجَ فِي قَبْرِ
تَلُوحُ فِي أَقْبَابِهِ أَنْجُمٌ نَقِيضَةٌ لِلأَنْجُمِ الزُّهْرِ
تَبْدُو نَهَارًا فَإِذَا مَا بَدَا جُنْحُ الدُّجَى غَارَتْ وَلَمْ تَسْرِ
يَا طِيبَهُ لَيْلًا وَيَا حُسْنَهُ صُبْحًا لَقَدْ حَازَ سَنَا العُمْرِ[2]

يحدّد الشاعر في هذه الأبيات وقت دخول الحمام وهو الصباح الباكر ، ويُعدّد بعض الأطعمة الشّهية الّتي كان يتناولها النّاس في القسم الخارجي من الحمّام حيث يمضُون وقتًا في المرح والفرح ، ثم يدخلون إلى القسم الداخلي الّذي يتميز بالضّيق والظلمة ، وقد شبّهه الشاعر بالقبْر، حيث يحْوي إناءين للماء أحدهما بارد والآخر ساخن وقد انتشرت فتحات المصابيح الزجاجية في كامل أرجائه فبدّدت الظلمة الّتي سادت المكان.

[1]– هو محمد بن علي بن عابد الفاسي ، وُلد بفاس وتتلمذ على يد عدد من شيوخها ، كان كاتبًا محسنًا، شاعرًا مطبوعًا ،عالمًا باللغة والأدب والتاريخ، ينظر: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج5، السفر8، ص227.

[2]– نفسه: ص231.

وكثُرت المحاورات الّتي كانت تدور بين الشعراء ، ومن أمثلة ذلك ما سجلّه لنا ابن سعيد الأندلسي(ت 685هـ) في المسامرة التي دارت بينَه وبيْن أب و العباس الغساني في مجلس الأنس الذي ضمّهما في إحدى حمامات تونس ،عندما نظرا إلى غِلمان في غاية الحُسن والجمال ، فقال ابن سعيد :

دَخَلْـتُ حَمَّـامًـا وَقَصْـدِي بِـهِ تَنعِيـمُ جِسْـمٍ فَغَـدَا لِي عَـذَابْ
قُلْـتُ لَظَـى فَاعْتَوَضَـتْ حُـورُهُ وَقُلْـتُ عَـدْنٌ فَنَهَـانِي التِهَـابْ
وَأَنْـتَ فِـي الفَضْـلِ إمَـامٌ فَكُـنْ فِي الحُكْمِ مِمَّنْ حَـازَ فَصْلَ الخِطَابْ[1]

فراجعه أبو العباس قائلا:

لَا تَأْمَـنِ الحَمَّـامَ فِـي فِـعْلِـهِ فلَيْـسَ مَا يَأْتِـيـهِ عِنْدِي صَـوَابْ
فَـمَـا أَرَى أَخْـدَعَ مِـنْـهُ وَلَا أَكْـذَبَ إِلَّا أَنْ يَـكُـونَ السَّـرَابْ
يُبْـدِي لَكَ الغِيـدُ كَحُـورُ الدُّمَـى وَيَابـِس الشيـخَ بـُرُودَ الشَّبَـابْ
ظُـن بِـهِ النَّـارَ فَلَا جَـنَّـةٌ لِلْحُسْـنِ إِمَّـا حَوَتْـهُ الثِّيَـابْ[2]

تقوم هذه الأبيات على القصة والمحاورة من خلال ما دار بين الشاعرين من حديث ، فابن سعيد يرى أن دخوله للحمّام كان لأجل التنعّم والاستحمام، غير أن ذلك النعيم انقلب إلى جحيم وطَاله العذاب والالتهاب، فشبّه الحمّام بجهنّم الّتي أشعلت النار في قلبه وجسده ، عندما رأى نعومة أجسام الغلمان وهم يصُبون الماء على رؤوسهم ثم غيّر رأيه فوصف الحمّام بالجنّة ، أما الغلمان فكأنهم حور الجنة جمالًا ، ويطلب في البيت الأخير من رفيقه أن يكون منصفًا وشاهدًا شهادةً قاطعةً على الحمّام.

[1]– المقري: نفح الطيب ، ج2، ص289.
[2]– نفسه، ص290.

أما علي الغساني فقد خالف رأي صديقه لذلك دعاه إلى عدم الوثوق في الحمّ ـام لأنه كاذب مخادع ، فصحيح أنه يُجمّل ال فرد ويُحسّن م ظهره، فتبدو المرأة حسنا ء كالدمية ، ويرجع الشّيخ شابًّا ، غير أنه يدعو ابن سعيد إلى عدم الاغترار بالمظاهر الخداعة في لبس الثياب الجميلة ،لأن الصحيح في اللب والجوهر، لذلك يطلب منه أن يَعُد الحمّام نارًا لا جنّةً.

ولمّا كانت الحمامات متنوعة ومنتشرة انتشارًا واسعًا ، فإن زُوارها كانوا من كل فئات المجتمع ، وكانت النسوة والجواري ترتدن الحمّامات الخاصة بِهن أو الحمامات المشتركة الاستخدام بين الرجال والنساء، وذلك في مدة خاصة لكل من الجنسين [1]، وقد اشتهرْن بطُول مُكوثهن في الحمامات حيث ورد هذا في أمثالهم كقولهم:"مْشَاتَ للحَمّامْ غَابَتْ سَبْع أَيَّامْ"[2]، وقد كان بعض الشعراء والرجال يتعرضون لهُنّ على أبواب الحمّامات أو في الطرقات المؤدية إليها أو منها ، فيتغزلون بهِن، ومن الشعراء الّذين تغ ـــزّلوا بزُوار الحمّـام أبو البقاء الرّندي (ت684هـ)[3]،الذي قال أبيات مُتغزلا بإحدى النساء الّتي التقى بها صُدفة لحظة خروجها من الحمّام :

بَـرَزَتْ مِنَ الحَمَّــامِ تَمْـسَحُ وَجْهَــهَا عَـنْ مِـثْلِ مَـــــاء الـوَرْدِ بِالعُنَّـابِ

وَالمَــاءُ يَقْطُـرُ مِـنْ ذَوائِبِ شَعْــرِهَا كَالطــلِّ يَسْقُــطُ مِـنْ جَنَاحِ غُــرَابِ

فَكَأَنَّهَا الشَّمْسُ المُنِيـرَةُ فِي الضُّـحَـى طَلَعَـتْ عَلَيْنَـا مِـنْ خِـلَالِ سَحَــابِ[4]

---

[1]– أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم ، مراجعة أحمد زيادة مكتبة مدبولي ، القاهرة – مصر– ط1، 1998م، ج2، ص 541.

[2]– الزجالي: أمثال العوام، ج1، ص338.

[3]– هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم ابن علي بن الشريف النفري، يُكنى أبو الطيب الرندي وُلد سنة 601هـ بمدينة رندة ، له شعر كثير سهل المأخذ و عذب اللفظ ، من مؤلفاته: روض الأنس وترجمة النفس و الوافي في نظم القوافي. ينظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج3، ص360.

[4]– نفسه، ص 371.

يرسم الشاعر صورة حسية لتلك المرأة الّتي خرجت من الحمّام ، إذ كانت تمسح وجهها الأسْود الّذي شبّهه بالندى الّ ذي يسقط من جناح غُراب شديد السّواد، ثم ينتهي المشهد مُشبها إياها بالشّمس المُشرقة الّتي ظهرت من بين السّحب السّوداء.

لذلك شكلت الحمّامات بوصفها مظهرًا رائعًا من مظاهر الحركة العمرانية في المغرب والأندلس ، وعامل جذْب واستقطاب للشعراء، فوصفوا جميع المناظر الّتي سلبت عقولهم داخل وخارج الحمّام ، وكل ذلك كان مستقى من بيئتهم، مُعبرًا عن مجتمعاتهم المُحبة للنظافة والطهارة، وهي اعتبارات جعلت الحمّامات من الأشكال العمرانية المُحببة للناس لوظائفها النّفعية، وعلامة من العلامات الدالة على تمدين التراكم الحضاري في العصر المُوحّدي.

10- الحسرة على ضياع معالم الإسلام:

لقد رسم الأدب ملامح حضارة المُوحدين في قُوّتها وتَفوّقها، وواكب أيضا لحظات ضُعفها وانكسارها في آخر عهدها بعد سقوط مدنها في يد الأعداء، ومن أمثلة ذلك قصيدة لأبي البقاء الرندي يصوّر العدوان الصليبي على وطنه و فيها يتحدث عن أفول نجم الأندلس ، وغياب عُلومها ومنابرها ، ذلك البلد الجميل الّذي بلغت فيه الحضارة أوج عزّها، فيقول بنغمة حزينة:

لِكُـلِّ شَـيء إِذَا مَـــا تَـمَّ نُقْصَـــانُ فَلَا يُغَـــرُ بِطِيـبِ العَيْـشِ إِنْسَـانُ

هِـــيَ الأُمُـورُ كَمَـــا شَاهَدْتَـهَا دُوَلٌ مَـنْ سَـــرَّهُ زَمَـــنٌ سَاءَتْـهُ أَزْمَـــانُ[1]

افتتح الشاعر قصيدته برُوح الاتعاظ والحكمة ، ونَظر إلى الأحداث نظرة مُتأمل استبصر من التاريخ المنكشف التناقض الحاصل في علاقات الأشياء ، فكل شيء آخذ في التناقص والزوال إذا اكتمل نُموه وهذه سنة الله في خلقه ، والفرح لن يدوم بأهله فهناك

[1]- المقري: نفح الطيب، ج4، ص487.

الحزن الّذي يحمل في باطنه الموت ، وهو أمر محتوم ينزِل بساحة كل إنسان حي فلا حِصن يحميه، ولا أهل يُنجيه، ولا عرش يُبقيه ، وكل بناء فوق هذا الكون سيندثر مهما برع المهندس في تصميمه ، وتفنّن في إحكامه .

بعد أن وضع الشاعر الحقيقة الّتي لا يختلف عليها اثنان ، كوْن التغيّر والتبدّل ناموس الحياة الّتي لا تدوم على حال ، انتقل إلى ذكر المصاب الجلل الّذي أصاب الناس والإسلام لفقد الأندلس، هذا الامتحان الصعب متوقع للموجودات وهو أمر مفروغ منه ، لأن الدول كالأعمار البشرية تمضي إلى نهايتها ، وليست الأندلس بناجية من حُكْم الدّهر ودواهيه ، فانقلب إشراقها الّذي دام قرون عديدة إلى سواد وأسى ، وتحوّل نعيمها إلى شقاء وذل ، وبَات عُمرانها يبَاب مُقفر ، فيقول:

فَاسْأَل بَلَنْسِـيـةَ مَا شَـأْنُ مَرسِيـة وَأَيْـنَ شَاطِبَـةٌ أمْ أيْـنَ جَـيَّـانُ
وَأَيْـنَ قُرْطُبَـة دَارُ العُلُـومِ فَكَـمْ مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَـا فِيـهَا لَـهُ شَـانُ
وَأَيْنَ حِمْصُ وَمَا تَحْوِيـهِ مِنْ نُـزُهٍ وَنَهْـرُهَا العَـذْبُ فَيَّـاضٌ وَمَـلْآنُ
قَوَاعِـدٌ كُنَّ أَرْكَـانُ البِلَادِ فَمَـا عَسَـى البَقَـاءُ إِذَا لَمْ تَـبْقَ أَرْكَـانُ[1]

يطرح الرّندي العديد من التساؤلات الّتي تدل على الحسرة والألم الممزوجين بالفخر والتعظيم عن مصير بلنسية وقرطبة وغيرهما من المُدن ، تلك العواصم الّتي كانت بالأمس منارات للعلم والحضارة ، ويسأل أيضا عن متنزهاتها الكبيرة ونهرها الّذي يجري فيه الماء العذب ، ماذا حلّ به ؟، فقد كانت تلك الحواضر ركيزة بلاد الأندلس وأركانها.

[1]– المقري: نفح الطيب، ج4، ص487.

وتغدو المحاريب والمنابر تبكي شبابها ، وتُرثي أيامها الزاهرة لمّا لحقها التدنيس فأصبحت خرساء لا تسمع فيها إلا نواقيس زادتْه وَحشة، ولا يرى فيها إلا صلبان منصوبة ، ومحاريب ومنابر خاوية ، عمّقت حُزنه و أزّمت نفسه ، يقول الرندي:

حَيْثُ المَسَاجِـدُ قَد صَارَتْ كَنَائِـسَ مَا فِيـهِـن إِلّا نَوَاقِيـسٌ وَصُـلْبَـانُ

حَتَّى المَحَارِيبُ تَبْكِـي وَهِي جَامِـدَةٌ حَتَّى المَنَابِـرُ تُرْثِي وَهِـيَ عِيـدَانُ[1]

يبكي الشاعر على ديار المسلمين الّتي خلت من الإيمان وعُمّرت بالكفر ، وهي صورة فيها مفارقة ، فالعمارة ايجابية لكنها في هذا الموطن ذل وانكسار ، حيث صارت العمارة للكفر والكافرين ، بعد ما كان المجد والعزّ يُميز الخلافة الإسلامية في الأندلس لكنّه ذهَب وضاع في ضباب الأيام.

سادسا: المظهر الثقافي

لقد ظهر اهتمام خاص لدى شعراء الأندلس والمغرب في عهد المُوحّدين بوصف وسائل الثقافة المختلفة وأدواتها إثر بلوغ الحياة الفكرية مرحلة متقدمة من التطور والازدهار، فسجل الشعراء هذه الظاهرة الحضارية بين ثنايا أشعارهم ، خصوصا وأنها تُمثل جزءا من ثقافتهم وحياتهم ، فاهتم بعضهم بوصف الكتب، وانكب آخرون على وصف ما يُكتب به كالقلم و المداد، هذا بالإضافة إلى الدواة أو المحبرة.

1- الكتب :

لقد أسهمت النهضة العلمية الّتي شهدتها الحضارة المُوحّدية في ظهور العديد من المؤلفات في جميع الفروع المعرفية ، وباعتبار أن الأدباء والشعراء كانوا يمثلون

[1]- المقري: نفح الطيب، ج4، ص487.

الطبقة المُثقّفة في المجتمع إلى جانب العلماء ، فكان من الطبيعي أن نجدهم يلجؤون إليها ، ويُشيرون بفضلها ، ويُنوّهون بمناقبها .

ففي التنبيه على طلب الأدب واقتناء الكتب ، يقول أبو الحسن الأشوني :

عَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الأُدَبَاء يَا مَنْ يُحَاوِلُ أَنْ يَسُودَ عَلَى الصِّحَابِ
فَمَا فِي النَّاسِ أَرْفَعُ مِنْ أَدِيبٍ وَلَا فِي الأَرْضِ أَرْفَعُ مِنْ كِتَابِ[1]

ويشيد عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني (ت596هـ) لما انتهى من تأليف مُصنفه العُمدة في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده، بأهميته الكبيرة فيقول :

هَذَا كِتَابُ العُمْدَة لِلذِّكْرِ خَيْرِ عُدّة
مُشَرِّفٌ فِي مَلَأ مُؤْنِسٌ فِي وِحْدَة[2]

يتحدث الأديب عن الخَير في مُجالسة الكتاب الّذي لا يضر بل ينفع و يفيد فهو خير أنيس للإنسان في وِحدته.

ثم يشير إلى فضل كتابه الجامع المختصر لِما يحمله في طياته من أحاديث شريفة ، وحِكم وآداب، فيقول:

الحَمْدُ لله عَلَى عَوْنِهِ فِي وَضْعِ هَذَا الجَامِعِ المُخْتَصَرْ
مَا أَعْظَمَ النَّفْعَ بِهِ لِأمْرِئ عَلَى اطِّلَاعٍ لَيْسَ فِيهِ قِصَرْ[3]

يحمد الكاتب الله سبحانه وتعالى الّذي أعانه لإتمام كتابه الجامع ، ويصرح أنّه عظيم النّفع لكل فرد اطّلع عليه.

[1]– ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج3، السفر5، ص327.
[2]– نفسه: ص161.
[3]– نفسه: الصفحة نفسها.

2- القلـم :

مظهر من مظاهر الحضارة وشرط من شروطها، ويُع دّ الأداة الأكـثر ملازمة للشاعر ولِغيره من العلماء والأدباء ، ومن لا يعرف المكانة الرفيعة له وقد أقس ــم الله تعالى به في مُحكم تنزيله، فقال : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[1]، لهذا أخذ مكانة بارزة عند الشعراء ، فقد شحذ قرائحهم ، وأثار شاعريتهم ، فأفاضوا في وصفه ، وأكثروا من ذِكره ولا غَرو ، فهو أداة المغاربة والأندلسيين في حفظ معارفهم وعلومهم ، وتدوين مكاتباتهم وأشعارهم ، وتسجيل ما يتعلمونه على أيدي أساتذتهم ومُعلميهم ، من هذا المنطق استلهم الشعراء هذه المعاني السامية ، فراحوا يصفون القلم بأوصاف جمي ــلة ومُؤثرة تليق بهذه المكانة الرفيعة، فهذا الرصافي البلنسي يتغنى بِشكله ووظيفته، فيقول :

قَصِيـــرُ الأَنَابِيـــبِ لَكِـنَّـــهُ يَطُـــولُ مَضَـــاءً طِـــوَالَ الرِّمَـــاحِ
إِذَا عَبَّ مِ النَّـقْسِ* فِـــي دَامِـــسٍ وَدَبَّ مِـنَ الطِّرْسِ** فَوْقَ الصَّبَـاحِ
تَجَلَّـتْ لَـــهُ مُشْـكِـلَاتُ الأُمُـورِ وَلَانَ لَـهُ الصَّعْـبُ بَعْـدَ الجِمَـاحِ[2]

يرى الشاعر أنه على الرغم من قِصر أنبوب القلم لكنه في نفاذه في الشيء يفوق نفاذ الرماح الطويلة ، وفي حركته على الصفيحة البيضاء عندما تمتلئ بالحبر يُبدد الظلمة ، ويزيل الجهل كالصّباح حين يجلو ظلمة الليل ، فبِفضله زالت ال مشكلات وهانت الصعوبات.

وأردف الشاعر قوله بـقطعة نثرية لا تقلّ أهمية عمّا نظّمه يصف فيها القلم امتازت بقِصر العبارة ، وتكثيف الفكرة صبّ فيها جزءً كبيرًا من ثقافته الدينية و التراثية

---

[1]- سورة القلم: الآية1.

*النّقس: الحبر .

** الطّرس: الصحيفة البيضاء.

[2]- ديوانه: ص53.

يقول فيها: "فَلوْلاه لغَدت أغْضَان الاكتِساب ذاوِية، وبُيوت الأموال خاوِية ، وأسرعت إليها البوسى وأصبحت كفُؤاد أُمِّ موسى، فهو لا محالة متجَرها الأرْبح، وميزانها الأرجح، بِه تدرُّ ألْبَانها وتثْمِر أفْنانُها ، ويستمر أفضالها وإحْسانها، وهو رأس مالها، وقُطب عُمّالها وأعمَالها"، فالقلم في نظر الرصافي مصدر من مصادر الرّزق ، بفضله تُدوّن أموال الدولة، ومن خلاله تُجمع الغلات، وتُوزّع الهبات .

وقد شكلت الأقلام مادة للتهادي لمنزلتها الكبيرة في النفوس، يقول أبو العباس محمد بن غفير، وقد أهدى إلى بعض أصحابه أقلامًا:

إِلَيْكَ بِهَا نُحْـلَ الجُسُـومِ ضَئِيلَـةً تَقُـــومُ بِأَعْبَـاءِ الأُمُــورِ الجَسَائِمِ
أَنَابِيبُ خَـطٍّ يَنْثَنِـي عَنْ قِصَـــارِهَا عَلَى طُولِـهِ الخَطِّيّ بَـادِي اللَّهَـــاذِمِ
فَكَمْ قَلَـم ذَانَـتْ بِطَاعَــةِ أَمْـــرِهِ مُقِيــمًا بِأَقْصَـاهَا جَمِـيعِ الأَقَالِـــمِ[1]

تناول الشاعر أهمية القلم في الحياة الإنسانية ، وأشار إلى أنه بالرغم من صِغر حَجْمه إلا أنه يوازي طول الرّماح ، فهو مُطيع لكاتِبه ، يقوم بأعباء أمور الدولـــــة والمجتمع.

ومن الشعراء الّذين وصفوا القلم ابن جبير الكناني(ت 614هـ)الّذي يقول في مقطوعته :

قَلَـمٌ بِهِ الإِقْلِيـمُ أَصْبَحَ فِي حِمَـــى بِشَبَاتِـهِ صَـرْفُ الحَـوَادِثِ يُصْـرَفُ
وَلَـئِـنْ تـقَاصَـرَ قَـــدُّهُ فَلِـقَـــدِّهِ ظَلَّـتْ لَـهُ الأَسَلُ الطِّـــوَالُ تَقَصَّـفُ
هَلْ تُغْنِيـنَ المُرْهَفَـــاتُ غِنَـــاءَهُ وَصَلِيلُـــهَا لِصَرِيـرِهِ يُسْتَضْعَـــفُ
حَكَتْ الظُّبا وَالسُّمْرَ فَـعَلا مِنْـهُ لَـوْ لَاهُ لَعُطِّـــلَ صَـــارِمٌ وَمُـثَقَّـــفُ

[1]– ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ج4، ص137.

كُلٌّ يَتِيـــهُ بِمَا حَــوَى شَبَهًا لَـــهُ فَانْظُـــرْ إِلَى المَحْكِــىِّ فَهُـوَ أَشْـرَفُ
يَكْفِيــهِ فَخْـــرًا أَنَّ كُــلَّ مُقَـــدَّرٍ يَجْـــرِى بِـهَا قَـدْ خَطَّـهُ وَيُصَـــرَّفُ[1]

يؤكد الشاعر أن السيف ليس أشد خطرًا من القلم ، والمتأمل لِشكله يلاحظ أنه يحمل الرّمح في جانب ، والسيف في الجانب الآخر ، فهو حافظ للأسرار، مؤتمن على ما استودع ، خازن للعلم وجامع لتراث الأمة، وهو عوْن الدولة ووسيلة عملها ، ولا يمكن الاستغناء عنه في الحرب أو السلم ، ويبدو أن الشاعر أراد بذلك إبراز أهمية القلم على أنه سلاح ضروري في ميدان الفكر، مثلما السيف والرمح ضروريان في ساحة المعركة.

3- الدواة أو المحبرة:

الدواة هي الأداة الّتي تحمل في جوفها المادة الأساسية وهو المداد، لذلك وصفت بأنها القلب بالنسبة للقلم [2]، وهي آنية من خزف كان أو قوارير [3]، والدواة هي أم آلات الكتابة ، يقول ابن سابور :" مثل الكاتب بغير دواة كمثل من يسير إلى الهيجاء بغير سلاح" [4]، فقد كانت حاضرة في المجالس العلمية الأدبية لدورها الهام في عملية الكتابة لذلك تردّد ذكرها في الشعر الأندلسي والمغربي ، فهذا علي بن أحمد بن لبّال الشريسي قد أثارت مِحبرة آبينوس شاعريته، فمنحها هذا التصوير :

وَخَدِيمَـــةٌ لِلْعِلْـــمِ فِـي أَحْشَائِهَـــا كَلَـــفٌ بِجَمْـــعِ حَلَالِهِ وَحَرَامِـهِ
لَبِسَـتْ رِدَاءَ اللَّيْـلِ ثُـمَّ تَـوَشَّحَـتْ بِنُجُومِـــهِ وَتَتَوَّجَـــتْ بِـهِلَالِـهِ[5]

---

[1]- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ، ج3، ص 516.

[2]- ينظر: أم كلثوم العيساوي، أدوات الكتابة في الأندلس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا ، جامعة محمد الخامس الرباط- المغرب- 1999م، ص87.

[3]- القلقشندي: صبح الأعشى، ج2، ص 460.

[4]- نفسه: ص470.

[5]-المقري: نفح الطيب، ج4، ص64.

يمدح الشاعر محبرة سوداء زِنجية مصنوعة من خشب الآبينوس الّذي يتميز بجودته الرفيعة ، و قد وظّف في وصفه للمحبرة الطباق (حلالِه/حرامِه) اللّذي أضْفا على النص الشعري بُعدًا دلاليًا وجماليًا ، كما استعمل إحدى صيغ المبالغة (خديمة) للتعبير عن كثرة خدمتها للعلم والعلماء.

وله في محبرة عناب مُحلاة بالفضة :

مُنْعَلَـــةٌ بِالهِـــلَالِ مُلْجَمَـــــةٌ بِالنَّسْـــرِ مَجْدُولَـــةٌ مِـــنَ الشَّفَـــقِ
كَأَنَّـمَـــا حِبْـــرُهَا تَمَـيَّـــعَ فِـي فُرْضَتِـــهَا سَائِـلًا مِـــنَ الغَسَـــقِ
فَأَنْـــتَ مَهْـــمَا تُـرِدْ شَبِيهَتِـــــها فِـي كُلِّ حَـالٍ فَانْظُـــرْ إِلَى الأُفُـــقِ[1]

ونلاحظ أن ابن لبّال استعان لتشكيل صورته من معجم البيئة الطبيعية ، ويبدو أن تعلقه بوصف المحابر مردّه إلى أنه كان أديبًـا وفقيهًا وقاضيًا ، أما وصفه لـلمحابر المصنوعة من الفضة و الآبينوس فيدل على أنه كان يعيش حياة الرفاهية.

4- المِـداد:

أسهب الشعراء في ذكر المِداد ، وقد سمي كذلك لأنه يمدّ القلم أي يُعينه، وكل شيء مدَدْت به شيئا فهو مِداد[2]، وقد توسّل أبو جعفر الملاحي (ت581) بهذا المعنى اللغوي ليُعبّر به عن طول عُمره:

يَمُـــدُّ الدَّهْـــرَ مِـــنْ أَجْلِـي وَعُمْـــرِي كَمَـــا أَنِّـــي أَمُـــدُّ مِـــنَ المِـــدَادِ[3]

وعندما أبصر أبو القاسم محمد بن علي (ت 596هـ) على شفتي غلام مدادًا شبّهه باللّيل، كما شبّهه بالقار فقال:

---

[1]- المقري: نفح الطيب ، ج4، ص64..

[2]- القلقشندي: صبح الأعشى،ج2، ص500.

[3]- صفوان بن إدريس: زاد المسافر، ص145.

يَا عَجَبًـــا لِلْمِـــــدَادِ أَضْـــحَى عَلَـــى فَـــمٍ ضُمِّـــــنَ الـــزُّلَالَا
كَالقَـارِ أَضْحَــى عَلَى المُحَيَّـا وَاللَّيْـــلُ قَـــدْ لَامَـــسَ الهِـــلَالَا[1]

والرصافي البلنسي حين رثى أبي العباس الجذامي المالق ـي تصوّر دُموعه وقد انصبت على خدّه بالمداد في القرطاس :

أَمَّا الدُّمُـــوعُ فَهُـنَّ أَضْعَـفُ نَاصِـــرٍ لَكِنَّـــــهُنَّ كَثِيـــــرَةُ التِّعْـــــدَادِ
تَسْقِيكَ مَا سَفَحَـــتْ عَلَيْـكَ يَرَاعَـــةٌ فِـي خَـدِّه قُرْطَـاسٍ دُمُـوعَ مِـــدَادِ[2]

يبين الشاعر أنه لا يجد حِيلة إلا دموعه وهي أضعف ناصِرٍ ليُبدي وفاءه للمرثي وهي في انصبابها على خدّه تُشبه انصباب المداد على الصّحيفة.

نستخلص مما سبق أن حالة الرفاهية الّتي بلغتها الدولة المُوحّدية لم تقتصر على مظاهر الثراء والعمران ، بل تعدى ذلك إلى مختلف وسائل الثقافة المتاحة ، وهذا يدل على عظمة الحضارة العربية الإسلامية الّتي ارْتقت بأُمَّتِها إلى آفاق الفكر والمعرفة.

وبعد دراستنا لهذا الفصل يمكن الخروج بالملاحظات الآتية:

– قدّس المُوحّدون المصحف العثماني باعتباره إرثًا دينيًّا هاما، فعملوا على توشيته بالدرر النّفيسة ، والأحجار الكريمة الّتي جُلبت من مختلف الأمصار، تأكيدًا على خدمتهم للدّين الإسلامي، وحرصهم على تبليغه.

– قامت سياسة الحُكام المُوحّدين على التشديد على إقامة العدل وتمهيد سُبل الحق لقطع أسباب الظلم وقمع الظالمين، وهذا نِتاج ثقافتهم الدينية الّتي ترعرعوا عليها فانعكست إيجابًا على التقرب من الرعيّة والاستماع إليهم.

[1]– ابن سعيد: رايات المبرزين، ص167.
[2]– ديوانه: ص66.

– كان للأمن الّذي نعِمت به البلاد في عهد قوتها نتائج ايجابية على الاقتصاد المُوحّدي، حيث نمت الزراعة، وراجت التجارة، وازدهرت الصناعة، فحققت الدولة اكتفاءها الذاتي ، وصدّرت منتجاتها الفائضة لمختلف الأقطار.

– اهتم وُلاة الأمر بالعمران فأنشئوا المدن والقصور، وقد لعبت المبادئ الدينية دورها الفعال في الإكثار من بناء المساجد، كما شيدوا الحمّامات واعتنوا بزخرفتها، وإتقان أحواضها وصهاريجها ، وتزيين مجالسها، إدراكًا منهم لأهمية النظافة في الحياة اليومية.

– وعَبّر أدباء فترة البحث عن مظاهر الحضارة والعمران وما ابتكره الإنســـان من وسائل وأدوات تساعده في حياته، ليعكس ما توصلت إليه ثقافة الإنسان الصنـاعية من تطور وتقدم في ذلك العصر.

– واعتنوا بوصف الأدوات الحربية الخفيفة والثقيلة من سيوف ورِماح وسفن حربية وصفًا يكشف عن قوة الدولة العسكرية، كما سجلوا المعارك البطولية الّتي خاضـــها المسلمون ضد الروم تسجيلًا أمينًا كما حدثت بأسلوبها ووسائلها ونتائجها.

– كما تغنى الشعراء بأصوات الدواليب والنواعير الّتي أثارت في نفسهم الكثير من الحزن والشجن ، فرأوها قلبًا رقيقا، وعينًا دامعة، وحمامة نائحةً ، ونديم الشوق والغرام.

– لقد خلّد الأدباء في عصـر المُوحّـدين معـالم حضارتهم العظيمـــة بين سطور إبداعاتهم، فكانت هذه الدواوين الشـعرية والنصوص النثرية خير شاهد على المستوى الحضاري الّذي بلغَته الدولة المُوحّية، حيث نطق بِلغتها وتغنى بمعالمـــها الثقافيـة والمادية.

وبعد هذه الرحلة الممتعة بين أدب وحضارة المُوحّدين نصل إلى ختام هذا البحث الّذي يفرض علينا ضرورة التوقف عند مجموعة من النتائج ، الّتي تمخضت عنها هذه الدراسة، والّتي يمكن إجمالها فيما يلي:

– للوعي مفاهيم كثيرة، لكنها تكاد تلتقى في كونه الحالة العقلية الّتي يتم من خلاله إدراك الواقع ، والحقائق الّتي تجري حوله، من خلال فهم واستيعاب الذات بما تحمل من قدرات وطاقات، لكي تتواصل مع مجتمعها ومحيطها.

– تعددت تعاريف الحضارة لكنها لم تتمكن من وضع مفهوم شامل لها ، نظرًا لتعقيد موضوعها وتداخله مع الثقافة، هذه الأخيرة الّتي تُعد من أكثر المصطلحات شيوعًا، وهو ما حال دون تحديد مفهوم دقيق لها هي الأخرى.

– قامت دولة المُوحدين على أساس دعوة دينية خالصة، تلتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتستهدف إقامة خلافة إسلامية تعود بالمسلمين إلى عهد الخلفاء الراشدين ، وكان يقود هذه الدعوة الإصلاحية محمد بن تومرت.

– ارتكزت سياسة الدولة المُوحّدية منذ انطلاق شرارتها الأولى على إقامة حضارة إسلامية شاملة قائمة على العلم والثقافة ، كدعامة أساسية لبناء دولتهم ،إذ كان مؤسسها المهدي بن تومرت من أئمة التفكير الديني ، وأبدى خلفاؤه وبنوه اهتمامًا بالعلوم والفنون حيث حرصوا على تشييد المؤسسات التعليمية بمختلف أشكالها ، وقد شهدت العديد منها تخصُّصًا في العلوم الدينية ، كما أسسوا المكتبات الضخمة ، واستقطبوا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ، والفلاسفة والأطباء، والجغرافيين والفلكيين.

– انعكست هذه السياسة المُوحدية على الحركة الفكرية والأدبية ، فظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب، تجاوزت سمعتها أقطار العالم الإسلامي، أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن جُبير وابن زهر وعبد الواحد المراكشي وابن الأبار وابن مُعطي الزواوي

والشريف الإدريسي، والجراوي وابن حبوس وأبي مدين التلمساني ، ومحي الدين بن عربي والششتري ، وابن سبعين وغيرهم.

– لقد تمتع أغلب الخلفاء المُوحّدين بثقافة عالية وذوق أدبي رفيع، وروح النقد النزيه فكان بلاطهم لا يخلوا من الشعراء وأهل العلم والفن ، كما شجعوا المنافسة بين الأندلسيين والمغاربة فكانت المحرّك الرّئيس نحو التقدم، وقد كان لهذا الاهتمام انعكاس إيجابي على الحياة الأدبية الّتي امتازت بسيرورة دائمة، وتطوُّر واضح على مستوى الشعر من خلال كثرة النظم والتّنويع في أغراضه.

– لقد تمكّن الأدباء المُوحدين بفضل شخصيتهم القوية وخيالهم الواسع من المزاوجة بين الشعر والنثر في عمل أدبي واحد، دون الاكتراث للحدود القائمة بين الفنين الأدبيين وهو ما يعكس مسيرتهم الطويلة في مجال الأدب.

– عكس الأدب عقلية الفرد المُوحّدي المتشبع بالثقافة ، حيث قاده التأمل الدائم وتدبره في تفاصيل الأشياء إلى وعيه الكبير بواقعه و النجاح في نقله، كما تميّز الأدباء بسرعة البديهة وتجلى ذلك في المراسلات الشعرية المكتوبة، إلى جانب مقدرتهم على الارتجال في النظم.

– لقد أثرت الطبيعة الخلابة الساحرة الّتي تميزت بها الأندلس على ألفاظ وصُور الأدباء، وذلك من خلال الاستعانة بالمُحسنات البديعية والصور البيانية ، كما انعكست النزعة الدينية على أسلوبهم أيضا عن طريق إيراد الحجج والبراهين، وتوظيف المصطلحات الفلسفية والعلمية ، وهو ما جعل أدبهم أكثر إقناع ومنطقية ، كما تمكنوا من تطويع اللغة لخدمة مضامين العلوم المعقدة ، وسكبها في قوالب شعرية لتسهيل حفظها وهذا يدل على التطور الحضاري الّذي وصلت إليه الدولة المُوحّدية.

– بلغ الفن المعماري المُوحدي شأنًا عظيمًا وازدهارًا كبيرًا على مستوى تشييد وبناء المعالم العمرانية، حيث خلفت لنا الدولة المُوحدية آثارًا معماريةً غاية في الإتقان والروعة والجمالية، من مباني وقصور وقناطر، تزاوجت فيها ضخامة الأحجام بالتشديد على البساطة والكفاف تماشيًا مع ما دعا إليه المهدي بن تومرت ، فكان لهذا التزاوج أحسن الأثر على المعمار المُوحدي ، حيث جاءت المباني شاسعة ضخمة ومتراصة ، تبرز بجلاء دهاء وعبقرية مُهندسي ومُصمّمي هذا الزمن.

– ومن المعالم العمرانية التي شدّد الخلفاء المُوحدون على إقامتها في ربوع الدولة المساجد ، و من أهمها مسجد اشبيلية ومنارته العظيمة ، حيث لا يزال هذا المسجد قائما إلى يومنا هذا لكنه تحوّل إلى كنيسة اشبيلية ، أما منارته فقد تحولت إلى بُرج الأجراس التابع للكنيسة ويُطلق عليه الأسبان اسم (لاخيرالدا) وهذا الأثر بقي شاخصا للأجيال إلى الآن يروي قصة حضارة نشرت عُلومها على المشرق والمغرب.

– تأثر الأدب بالمستجدات الّتي أفرزتها الحياة اليومية فنطق بلغته واستقى مواضيعه من الحياة اليومية، و تجلى ذلك من خلال الوصف و المدح، كما قرّب بين الناس من خلال الاخوانيات ، ولم يكتف بذلك، بل صوّر مختلف المنجزات الّتي خلّفها الموحدون الّتي عبّرت عن هويتهم، كما نقل لحظات الضعف والانكسار الّذي شَهدته بلادهم بعاطفة حزن صادقة ، مُبينين عن روح وطنية عالية.

أخيرا لا أدعي أني بلغت درجة الكمال في هذه الدراسة فالكمال لله وحده، وما هذه النتائج الّتي توصلت إليها إلّا بداية مفتوحة لمزيد من الدراسات آمل أن يستفيد منها الباحثون.

-القرآن الكريم برواية ورش بن نافع

أولا- المصادر :

1- ابن الأبار،أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي،(ت658هـ/1260م) **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان ، 1415هـ/1995م،ج2

2- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي، **المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصفدي**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصـــري، القاهـــرة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1،1989م

3- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي،**المقتضب من كتاب تحفة القادم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط3، 1410هـ / 1989م

4- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي،**الديوان**، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2، 1986م.

5- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي(ت بعد 550هـ)،**أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة- المغرب- 1971م.

6- التنبكتي، أبو العباس أحمد بابا بن أحمد الصنهاجي الماسي(ت1036هـ/1627م) **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ، ط2، 2000م

7- الجزنائي، أبو الحسن علي الفاسي، كان حيا سنة(766هـ/1365م،): **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكـــية، الرباط المغرب ، ط2، 1991م

8- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الفاسي ،(ت456هـ/1064م): **طوق الحمامة**

في الألفة والآلاف ، ضبطه ووضع حواشيه وقدّم له:أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان- ط5 ،2008 م

9- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الفاسي: **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، القاهرة- مصر- ط2، 1987م ج1

10- الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله، (ت488هـ/1095م): **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، حققه وعلّق عليه: بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1429هـ/2008م.

11- الحموي، شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت626هـ/1228م): **معجم البلدان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان- 1397هـ/1995م، مج1

12- ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغرناطي(ت 776هـ/1378م) **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تقديم ومراجعة وتعليق، بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، ج1، دت.

13- ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغرناطي:**الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**،عُني بتصحيحه البشير الفورتي، مطبعة التّقدم الإسلامية، تونس ط1، دت

14- ابن خلدون،أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت808هـ/1405م):**العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** تحقيق :خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت - لبنان- دط ،ج6 ،2000م

15- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي: **المقدمة** ،حقّق نُصوصه وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه:محمد درويش، دار يعرب، سوريا، ط1، 2004م، ج1.

16- ابن خلدون،أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي: **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق:عبد الحميد حاجيات،المكتبة الوطنية ، دط ،1980م،ج1.

17- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي خلكـــان(ت 681هـ 1282م): **وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان**، تحقيق:إحسان عباس، دار صـــادر بيروت- لبنان- دط، دت،ج1.

18- ابن دحية،أبو الخطاب عمر بن حسن الكلبي السبتي(ت633هـ/1235م) **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق :إبراهيم الأبياري، حامد عبد الحميد ،أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع ، بيروت- لبنان- دط، دت.

19- **ديوان أمية بن أبي الصلت**، بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي(ت529هـ) تحقيق محمد المرزوقي، دار الكتب الشرقية، تونس، دط، 1974م.

20- **ديوان الأمير أبي الربيع سليمـــان بن عبد الله المُوحّـــد**(ت 604هـ/1207م) تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، سعيد أعراب، محمد بن العـــباس القباح، محمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الأدب، جامعة محمد الخامس، المغرب، دط، دت.

21- **ديوان ابن الزقاق البلنســـي**، علي بن عطية بن مطرف اللخمـــي(ت528هـ 1135م) تحقيق محمود ديراني، دار الثقافة للنشر والتوزيع بيروت- لبنان- دط، دت

22- **ديوان ابن سهل الأندلسي**، أبو اسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائـيلي الاشبـــيلي (ت649هـ/1251م) تحقيق :يسرى عبد الغنى عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان- ط3، 1424هـ/2003م

23- **ديوان الرصافي البلنسي**،أبي عبد الله محمد بن غالـــب (ت 572هـ/1177م) جمعه وقدّم له إحسان عباس، دار الشروق، بيروت- لبنان- ط2، 1403هـ/1983م.

24- **ديوان ابن الصباغ الجذامي**(ت650هـ) تحقيق: محمد عناني وأنور السنوسي دار الأمين، القاهرة- مصر- ط1، 1999م

25- **ديوان أبي الطيّب المتنبي**،أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي(ت354هـ 965م) شرح أبي البقاء العكبري ، ضبط تصحيح محمد السقا، دار الفكر، بيروت- لبنان- 2003م،ج3

26- **ديوان مرج الكحل الأندلسي**، محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم أبو عبد الله (ت634هـ/1236م) تحقيق البشير التهالي ورشيد كناني مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1430هـ/2009م

27- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الدمشقي(ت 748هـ 1347م): **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان- ج2 ،1985م.

28- الرعيني،أبو الحسن علي بن محمد بن علي الاشبيلي(ت666هـ/1267م): **برنامج شيوخه**، تحقيق إبراهيم شبوح، مطبعة مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، سوريا 1962م

29- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي(كان حيا سنة 726هـ/1326م) **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** دار الطباعة المدرسية، دب، دط ،1843م

30- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (كان حيا سنة 894هـ/1489م): **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق وتعليق محمد ماضور،المكتبة العتيقة – تونس- ط2 ،1966م.

31- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي(ت685هـ/1286م) **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى**، اختصره محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق

إبراهيم الأبياري ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأمريكية، القاهرة، دط ، 1959م.

32- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي: **رايات المبرزين وغايات المميزين** ،حقّقه وعلّق عليه محمد رضوان الداية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق- سوريا- ط1، 1887م.

33- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي:**الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، دط 2009م

34- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي:**المغرب في حلى المغرب** ، حقّقه شوقي ضيف ،دار المعارف ،القاهرة، مصر، ط4، 1955م، ج1-ج2.

35- السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي(تُوفي حوالي 500هـ/1107م): **آداب الحسبة**، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، مطبعة إرنست لورو باريس ، فرنسا، دط، 1931م

36- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م): **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،المكتبة العصرية ، بيروت - لبنان- دت، مج1.

37- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: **نزهة الجلساء في أشعار النساء**، تحقيق عبد اللطيف عاشور، طبعة مكتبة القرآن ، القاهرة- مصر- دت.

38- الشنتريسي، ابن الحسن علي بن بسام(ت542هـ/1147م): **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ،تحقيق سالم مصطفى البدري، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان- ط1، ج3 ،1998م

39- ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمد الباجي (كان حيًّا سنة 594هـ/ 1198م) :تاريخ **المن بالإمامة على المُستضعفين بأن جعلهم الله أئمة**

وجعلهم الوارثين ، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الأنـــدلس، بيـــروت– لبنان– ط1 1964م

40– الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة(ت599هـ/ 1202م): **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبـــياري، دار الكتاب المصـــري،القاهـــرة – مصر– ط1 ، 1989م،ج1.

41– ابن عذارى، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي(كان حيّا سنة 712هـ/1312م) **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، حقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه محمود بشار معروف ، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2013م.

42– ابن عربي ، محمد بن علي بن محمد الحاتمـــي الطائي الأندلـسي(ت 638هـ/ 1240م): **الفتوحات المكية**، دار صادر، بيروت– لبنان– دت، ج4.

43– ابن عربي ، محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي: **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنّوادر والأخبار**، دار اليقظة، العربية للتأليف والترجـمة والنّشر، دمشق– سوريا– 1388هـ/1968م

44– ابن عسكر، محمد بن علي بن عبد الله الغسـاني المالقـي (ت636هـ/1238م) وابن خمـيس ، أبو بكر محـمد بن محمد بن علـي (كان حيًّا سنة 638هـ/1240م) **أعلام مالقة** ، تقديم و تخريج وتعليق عبد الله المرابط الترغـي ، دار صادر ، بيروت – لبنان– ط1، 1420هـ/ 1999م

45– العماد الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 597هـ/1201م) : **خريدة القصر وجريدة العصر**، تحقيق أذرنوش، نقّحه وزاد عليه محمد العروسـي المطـوي ومحمد المرزوتي ، والجيلالي بن يحيى، الدار التونسية للنشر ، ط2 ، 1986م، ج2.

46– الغبريني ، أبو العباس أحمد بن عبد الله (ت704هـ/ 1305م) : **عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية** ، حقّقه وعلّق عليه عادل نويهـض

منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت– لبنان– ط2، 1979م.

47– الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد(ت505هـ/1111م):**إحياء علوم الدّين**، دراسة وتحليل بدوي طبانه، مطبعة كرياطة فوترا، سماراغ، دت، ج4

48– ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى(ت749هـ/1348م) :**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان– ط1 ، 2010م،ج4

49– القرطبـي، ابن مضاء أحمد بن محمد اللخـــمي(ت592هـ/1196م): **الردّ على النّحاة**، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة– مصر– ط2، 1947م

50– القزويني ، زكرياء بن محمد بن محمود(ت672هـ/ 1274 م) : **آثار البـلاد وأخبـار العباد** ، دار صادر ، بيروت– لبنان– دط، دت

51– ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي الكتامي (كان حيا سنة 650هـ/ 1252م) **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان** ، درسه وحقّقه محمد علي مكـــي، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان– ط1، 1990م .

52– القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي الفـــزازي (ت821هـ/1476م): **صبـــح الأعشى في صناعة الإنشاء** ، دار الكتب المصرية، القاهرة– مصر– ج5، 1922م.

53– القيرواني بن رشيق، أبو علي الحسن (ت 456هـ/ 1070م):**العمدة في صناعة الشعر ونقده**، حقّقه وعلّق عليه ووضع حواشيه : النبوي عبد الواحد شعـلان، مكـتبة الخانجي ، القاهرة– مصر– ط1 ، 1420هـ/ 2000م،ج2

54– مجموع رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية: اعتنى بإصدارها ليفي بروفنسال المطبعة الاقتصادية، الرباط، المغرب، دط ، 1941م.

55– مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد– العراق– دار النشر المغربية، الدار البيضاء– المغرب–

ط2، 1986م

56- مجهول: **تاريخ الأندلس**، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان- ط1، 2007م

57- مجهول: **ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق لويس مولينا، د مط، مدريد ، دط ، 1983م.

58- مجهول: **كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين** ، دط ،دت

59- المراكشي بن عبد الملك ، أبو عبد الله محمد(ت 703هـ/1303م): **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان- دط، دت، السّفر الأول

60- المراكشي بن عبد الملك :**الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت- لبنان- ط1، 1973م، السّفر الثاني، السّفر الثالث السّفر الرابع، السفر الخامس، السفر السادس، السفر الثامن.

61- المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي(ت647هـ/1249م):**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان- ط1، 1998م.

62- بن معطي، يحيى بن عبد النور الزواوي (ت 628هـ/1230م):**البديع في علم البديع**، تحقيق: محمد مصطفى أبو شوارب، راجعه وقدّم له: مصطفى الصافي الجويني دار الوفاء لِدُنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية- مصر- ط1 ،2003م.

63- بن معطي، يحيى بن عبد النور الزواوي: **الدرة الألفية في علم العربية** ،ضبطها وقدّم لها: سليمان إبراهيم البلكيمي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع ،عابدين ،القاهرة - مصر- ط1، 2010م

64- المقري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القرشي المقري التلمساني (ت1041هـ/ 1632م):**أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، ضبطه وعلّق عليه مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة ، مصر، دط

دت ،ج2 – ج3.

65- المقري، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القرشي المقري التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، حقّقه إحسان عباس، دار صادر، لبنان – بيروت- دط ،1388هـ/ 1968م،ج1- ج2 – ج3 – ج4 – ج5- ج6.

66- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت 885هـ/1442م): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، تحقيق محمد زينهم، مراجعة أحمد زيادة، مكتبة مدبولي، القاهرة - مصر- ط1، 1997م،ج2.

67- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني(ت914هـ/1508م) :**المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ،الرباط- المغرب- ط1، 1981م، ج3.

ثانيا:كتب الجغرافيا والرحلات

1- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني السبتي ،المعروف بالشريف (ت562هـ): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر، دط، دت.

2-ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي الشاطبي (ت 614هـ 1217م): **رحلة ابن جبير**، دار صادر، بيروت، لبنان، 1959م.

3- مارمول كربخال (كان حيا سنة 979هـ/1571م): **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون ، مكتبة المعرفة، الرباط – المغرب- 1989م، ج2.

4- الوزان، أبو علي الحسن بن محمد الفاسي(كان حيا سنة 957هـ/1550م) :**وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ، ومحمد الأخضر،دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان- ط2، 1983م، ج2.

ثالثا: المعاجم والقواميس

1- بطرس البستاني (ت1983م): **محيط المحيط**، اعتنى به وأضاف زياداته محمد عثمان ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- ط1، 1870م، مج1.

2- جماعة من المؤلفين: **المعجم الوسيط** ،إصدار مجمع اللغة العربية، القاهرة-مصر- ط1، 1379هـ/1960م

3-الحميري، نشوان بن سعيد(ت573هـ): **شمس العلـــوم ودواء العرب من الكــلوم** تحقيق حسين بن عبد الله العمري وآخرون ، دار الفكر المعاصـر، بيروت- لبـــنان- ط1، 1999م

4- بن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن(ت 321هـ/ 933م): **جمهرة اللغة**، حقّقه رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان- ط1، 1986م،ج1.

5- الرازي ، محمد بن أبي بكر(ت311هـ/ 923م):**مختار الصحاح** ،دار الفكر،بيروت - لبنان- ط1، 1986م، ج1.

6- الزبيدي مرتضى، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت1205هـ/1790م) **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج ،سلسلة التراث العربي الكويت، ط2، 1965م، ج11.

7- الطالقاني أبو القاسم، إسماعيل بن عبّاد بن العباس(ت385هـ/995م): **المحيط في اللغة**، تحقيق محمد حسن آل ياسين،عالم الكتـــب، بيـروت، لبنان، ط 1 ،1414هـ / 1994م ،ج2

8- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعـقوب(ت 817هـ/1414م): **القامـــوس المحيط** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت- لبنان- ط2، 1406هـ، مج3

9- ابن منظور،أبو الفضل جمال الدين بن منظور الإفريقي(ت711هـ/1311م): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت- لبنان- دت، مج 15.

رابعا: المراجع باللغة العربية

1- الأوسي حكمت علي: **الأدب الأندلسي في عصر الموحدين**، مكتبة الخانـــجي القاهرة- مصر- دط، 1916م

2- البحراوي سيّد :**المدخل الاجتماعي للأدب**،دار المعارف،القاهرة -مصر- ط2، دت.

3- البختي جمال:**عثمان السلالجي ومذهبيته الأشعرية**، منـشورات وزارة الأوقـــاف والشؤون الإسلامية ، المغرب، ط1، 2005م

4- البدري خليل: **موسوعة شهيرات النساء**، دار أسامة للنشر،الأردن، ط1 ،1998م.

5- بوتشيش إبراهيم القادري: **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين** ،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان- ط1، 1995م.

6- بن تاويت محمد وعفيفي محمد الصادق: **الأدب المغربي**، دار الكتـــاب اللبـــناني للطباعة والنشر، بيروت- لبنان- ط1، 1960م

7- التنريزي الخطيب: **شرح ديوان عنترة بن شداد** ،قدّم له ووضع حواشيه مجيد طراد دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان- ط1، 1992م

8- توات الطاهر:**ابن خميس شعره ونثره**، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، دط 1991م

9- جبران محمد مسعود: **مالك بن المرحل أديب العُدوتين**، تحقيق ودراسة المجمّـــع الثقافي، أبو ظبي، 2005م

10- الجبوري نظلة أحمد نايل: **فلسفة وحدة الوجود**، أصولها وفترتها الإسلامية ،الدار العثمانية للنشر، عمان ،ط1، دت

11- جرار صلاح: **مرج الكحل الأندلسي سيرته وشعره**، دار البشير،عمان- الأردن- دط ،1993م

12- جواد طاهر علي: **المنهل في الأدب العربي** "العصر العباسي و الأندلسي" مطبعة

المعارف، بغداد- العراق- 1962م

13- الحجوي، محمد بن الحسن الحجوي الفاسي(ت 1376هـ/1956م): **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، المكتبة العلمية، المدينة المنورة ، دط، دت، ج2.

14- الحداد محمد حمزة إسماعيل: **المُجمل في الآثار والحضارة الإسلامية**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة- مصر- ط1، 2006م

15- حركات إبراهيم: **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،المغرب دط، 2000م، ج1.

16- حسن حسين الحاج:**حضارة العرب في صدر الإسلام** ،المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع ، بيروت- لبنان- ط1، 1412هـ/1992م

17- حسن علي حسن: **الحضارة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس"عهد المرابطين والموحدين**" مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1980م.

18- حسين محمد كامل: **أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة- مصر-1987م

19- حمداوي جميل: **التواصل اللساني والسيميائي والتربوي**،الناظور- المغرب- ط1 2015م

20- خليل عماد الدين: **التفكير الإسلامي للتاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان- ط2، 1978م

21- الداية رضوان: **في الأدب الأندلسي**، دار الفكر، دمشق- سوريا- ط1، 1421هـ 2000م

22- الدقاق عمر: **ملامح الشعر الأندلسي**، دار الشرق، بيروت- لبنان- دط،1975م.

23- دندش عصمت عبد اللطيف: **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**

"عصر الطوائف الثاني" دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان- ط1، 1408هـ/ 1988م.

24- ديب صفية: **التربية والتعليم في المغرب والأندلس في عصر الموحدين بين القرن 6-7هـ/12-13م** ، نشر مؤسسة كنوز الحكمة، الأبيار- الجزائر- 2011م.

25- الرفاعي أنور: **الإنسان العربي والحضارة**، دار الفكر، دمشق- سوريا- ط1 1970م

26- الرقب شفيق محمد عبد الرحمن: **شعر الجهاد في عصر الموحدين**، مكتبة الأقصى ،عمان، الأردن، 1984م

27- رمضان أحمد: **الخلافة في الحضارة الإسلامية**، دار البيان العربي، جدّة – المملكة العربية السعودية- ط1، 1403هـ/1983م، مج1.

28- الزركلي، خير الدّين بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي(ت1396هـ/1976م) **الأعلام** ،دار العلم للملايين ، بيروت- لبنان- ط5، 2006م، ج3.

29- زريق قسطنطين: **في معركة الحضارة**، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان- ط4 1981م

30- الزيات أحمد حسن: **تاريخ الأدب العربي**، دار الشرق العربي، القاهرة- مصر- ط1، 2005م

31- السائح الحسن:**الحضارة الإسلامية في المغرب**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء- المغرب- ط2، 1986م

32- السرجاني راغب: **قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط** ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط1، 2011م

33- السلاوي ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري(ت1315هـ/1897م) :**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار

البيضاء- المغرب- دط، 1418هـ/1997م، ج2.

34- السملالي،العباس بن إبراهيم(ت1959م): **الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور،المطبعة الملكية، الرباط- المغرب- ط2 1413هـ/1993م،ج2

35- السيّد عبد السلام: **موسوعة علماء العرب**، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط2 2011م

36- شافع راوية عبد الحميد: **المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي للأندلس حتى سقوط غرناطة**، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر ط1،2006م

37- شاوش الحاج محمد رمضان: **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان** عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية،1995م.

38- أبو شقرا محي الدين: **مدخل إلى سوسيولوجيا الأدب العربي** ،المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1،2005 م.

39- شقرون محمد: **مظاهر الحضارة المغربية في القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر** ، مطبعة الرسالة، الرباط، 1982م.

40- الشكعة مصطفى: **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**، دار العلم للملايين بيروت – لبنان- ط3، 1975م

41- الشناوي علي الغريب: **شعر أبي عمر بن حربون**، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر- ط1، 2004م

42- شوقي أحمد: **أسواق الذهب**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر- دط دت

43- بن الشيخ جمال الدّين:**الشعرية العربية**، دار توبقال للنشر والتوزيع،الدار البيضاء

– المغرب– ط1، 1996م

44– صالح صبحي: **الإسلام ومستقبل الحضـــارة** ، دار قتيبة ، دمشق– سوريا– ودار الشورى ، بيروت– لبنان– ، ط2، 1982م

45– الصلابي علي محمد : **إعلام أهل العلم والدين بأحوال الموحدين**، دار التوزيــع والنشر الإسلامية ،القاهرة– مصر– ط1، 2002م

46– الصلابي علي محمد: **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريـــــقي** دار المعرفة، بيروت– لبنان– ط2، 2005م

47– طالبي عمار: أعز ما يطلب، **محمد بن تومرت مهدي الموحدين**، وزارة الثقـــافة الجزائر، دط، 2007م

48– طمار محمد: **تاريخ الأدب الجزائري**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،ط2 2006م

49– الطنطاوي محمد : **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحـاة**، دار المعارف، القاهـــرة – مصر– دت

50– طه جمال أحمد: **مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين** (دراسة سياسية وحضارية) دار الوفاء لدُنيا الطباعة والنشر، مصر، دت

51– عارف محمد نصر: **الحضارة، الثقافة، المدنية** ، المعهد العالي للفكر الإسلامي عمان ، 1415هـ– 1994م

52– عاصي ميشال: **الفن والأدب**، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت– لبنان– دط، دت

53– عباسة محمد: **الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور**، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم، الجزائر، ط1، 1433هـ–2012م.

54– عبد العزيز عبد الجليل: **مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربـــية**، عالم المـــــعرفة

الكويت ، دط ، 1978م

55- عبد العزيز محمد عادل :**التربية الإسلامية في المغرب أصولـــها المشرقـــية وتأثيراتها الأندلسية** ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر- دط، 1987م

56- عز الدين إسماعيل: **روح العصر**، دار الرائد العربي، لبنان، ط1، 1978م

57- العشماوي محمد زكي: **موقف الشعر من الفن والحياة**، دار النهضة ، بيروت - لبنان- ط1، 1981م.

58- عزاوي أحمد: **رسائل موحدية** "**مجموعة جديدة**" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة- المغرب- ط1، 2002م، ج1

59- عزاوي أحمد: **قضايا تاريخية خلال العصرين الموحدي والمرينـــي** ، عالم الفـكر ط1، 2010م

60- علام عبد الله علي:**الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**، دار المعارف، القاهرة- مصر- 1971م

61- عمر موسى عز الدين : **النشاط الاقتصـادي في الغــرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، بيروت- لبنان- 1983م.

62- عمر موسى عز الدين: **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي ، بيروت- لبنان- ط1، 1991م.

63- عنان عبد الله: **دولة الإســلام في الأندلس** "**عصر المرابطـين والموحديــن في المغرب والأندلس**"، مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر- ط2، 1990م.

64- العوادي عدنان حسين: **الشعر الصوفي**، دار الشؤون الثقافيـــة العامّـة ، بغــداد - العراق- دط ، 1987م

65- عيسى فوزي: **الهجاء في الأدب الأندلـــسي** ، دار الوفاء لِدُنيا الطـباعة والنّشـر الإسكندرية- مصر- ط1، 2008م

66- عيسى محمد عبد العزيز: **الأدب العربي في الأندلس**، مطبعة الاستقامـــة، مصر ط1، 1945م

67- الفاخوري حنا: **تاريخ الأدب في المغرب العربي**، دار الجيل ،بيروت- لبنان- ط1 1411هـ/1997م

68- فروخ عمر: **تاريخ الأدب العربي** ، الأدب في المغرب والأندلس"عصر المرابطين والموحدين" دار العلم للملايين، بيروت- لبنان- ط2 ،1985م، ج5.

69- أبو الفضل محمد: **شرق الأندلـس في العصـــر الإســـلامي** (515هـ-686هـ 1121م - 1287م) دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية- مصر- ط1، 1996م.

70- القاضي إسماعيل: **الخنساء في مرآة عصرها**، مطبعة المعارف، بغداد- العـراق- دط ، 1962م، ج1

71- قاعود يحيى سعيد محمد: **النظام العالمي الجديد**، مركز البيان للدراسات والبحوث دط، 2015م

72- بن قربة صالح: **عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991م

73- بن قربة صالح: **عبد المؤمن بن علي موحّد بلاد المغرب**، المؤسسة الوطـــنية للكتاب ، الجزائر ، دط ،2007م

74- كحالة عمر رضا:**أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، مؤسسة الرســـالة بيروت- لبنان- دط، 1994م، ج3

75- الكساسبة رضا عبد الغنى: **النثر الفني في عصر الموحـدين وارتباطه بواقعـهم الحضاري**، دار الوفاء لِدُنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية- مصر- 2004م

76- كنون عبد الله: **ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة**، اعتنى به ورتّب تراجِمه محـمد بن عزوز ، دار ابن حزم للطباعــة والنشر والتـوزيع ، لبـــنان

– بيروت– ط1، 1430هـ– 2010م، ج2

77– كنون عبد الله: **النبوغ المغربي في الأدب العربـي**، دار الكـتاب اللبنـاني، ط2 1961م، ج1.

78– الماضى شكري عزيز: **في نظـرية الأدب**، دار الحداثة، بيروت– لبنان– ط1 1986م

79– بن المؤقت المراكشي ، محمد بن عبد الله(ت1369هـ/1949م): **السعادة الأبدية في التعريف بالحضرة المراكشـية**، مراجعة: أحمد متفكر، المطبعة الوطنية، مراكش– المغرب– ط2، 2011م

80– مؤنس حسين: **معالم المغـرب والأندلس**، دار الرشـاد، القاهرة – مصر– ط2 2004 م

81– المبيضين ماهر أحمد: **الأسرة في الشعر الجاهلي**" دراسة موضوعية فنية "عمّان – الأردن– ط1، 2003م

82– مجمع اللغة العربية: **المعجم الفلسفي**، الهيئة العامة للكتاب، القاهـرة– مصر– 1979م.

83– محفوظ حسين: **قاموس الموسيقى العربية** ،دار الحرية للطباعة، بغداد– العراق– دط، 1977م

84– مرتاض محمد: **من أعلام الجـزائر**– مقاربة تاريخـية فنـية– دار الغرب للنـشر والتوزيع ، وهران– الجزائر– 1438هـ– 2004م

85– مرعي خلف الله ابتسام: **العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي** ،دار المعارف، القاهرة– مصر– دط ، 1405هـ–1985م

86– المريني عبد الحق: **الجيش المغربي عبر التاريخ** ،مكتبة المعارف الجديدة، الرباط – المغرب– ط5، 1997م

87- مسعود أحمد طاهر :**مدخل إلى عِلم الاجتماع العام**، دار جليس الزمان للنشر عمان – الأردن- ط1، 2011م

88- أبو مصطفى كمال السيّد :**جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي** مركز الإسكندرية للكتاب- مصر- ط1، 1997م.

89- مظهر جلال: **أثر العرب في الحضارة الأوروبية نهاية عصر الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة**، دار الرائد، بيروت- لبنان- دط، 1967م

90- المقدسي أنيس: **تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي** ، دار العلم للملايين بيروت- لبنان- ط3، 1965م

91- مقديش محمود: **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزاوي ومحمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان- ط1،1988م، مج1

92- المكتب الجامعي الحديث : **الأدب والمجتمع**، دراسة في علم اجتماع الأدب الإسكندرية- مصر- دط، 2005م

93- المنوني محمد وآخرون: **التاريخ الأندلسي من خلال النصوص** ، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء- المغرب- ط1، 1412هـ/1991م

94- المنوني محمد: **حضارة الموحدين**، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء- المغرب- ط1، 1989م

95- المنوني محمد : **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنّشر، الرباط- المغرب- ط2، 1397هـ-1977م.

96- موافي عثمان: **في نظرية الأدب، من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم** دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية- مصر- 2000م، ج1

97- الميلي مبارك: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب

الجزائر، دط، دت

98- ناصيف مصطفى: **دراسة الأدب العربي**، دار الأندلس، بـــيروت- لبنان- ط3 1983م

99- ابن نبي مالك(ت1393هـ/1973م): **القضــايا الكــبرى** ، دار الفكر المعاصر بيروت- لبنان- ط1 ،2014م

100- ابن نبي مالك: **مشـــكلة الثــقافة**، دار الفكر، بيروت- لبنان- ط4، 1984م

101- النجار عبد المجيد: **تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومـــرت**، المعـــهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1415هـ 1995م

102- النجار عبد المجيد: **المهدي بن تومرت، حيـاته وآرائه وثورته الفكـــرية وأثره بالمغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان- ط1، 1983م.

103- نصرت عبد الرحمن: **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النّقد الحديث** مكتبة الأقصى، عمان- الأردن، ط2، 1982م

104- النعيمي أحمـد، **تاريخ الشــعر العربي حتى أواخـر القرن الثالث الهجـري**، دار الكتب المصرية، القاهرة- مصر- دط، 1950م.

105- نويهض عادل:**أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى الوقت الحاضـر**، المؤسسة الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت- لبنان- ط2، 1980م

106- نويهـض عادل: **معجـم أعلام الجزائـر**، مؤســسة نويـهض الثقافـية ، بيروت- لبنان- ط4 ،1983م

107- بن هذيل علي عبد الرحـمن: **حلبة الفرسان وشعار الشجـعان**، تحقيق محمد عبد الغنى حسن، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، دط، 1951م.

خامسا: المراجع المُترجمة

1- اشبنغلر أسوالد: **تدهور الحضارة الغربية**، ترجمة أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة بيروت- لبنان- ط1، دت.

2-أميركو كاسترو:**حضارة الإسلام في إسبانيا**، ترجمة سليمان العطار،الدار الثقافية للنشر، القاهرة- مصر- ط1، 2002م

3- أنخل جانتالث بالينيثيا: **تاريخ الفكر الأندلسي** ، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة القاهرة- مصر- دط، 2008م

4- جان ايف تاديه: **النّقد الأدبي في القرن العشـــرين**، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر، سوريا، ط1،دت.

5- جغلول عبد القادر: **مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسـيط**، ترجمة فضيل الحكيم، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان- ط1، 1982م.

6- جون بول سارتر: **ما الأدب؟** ترجمة محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطـباعة والنّشر والتوزيع، القاهرة- مصر- دط، دت.

7- دنيس كوش: **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية** ،ترجمة منير السعيداني، مراجعة الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2007م.

8- ريموند ويليامز: **الكلمات المفاتيح**، ترجمة نعيمات عثمان، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة- مصر- ط1، 2005م

9- رينهاري دوزي: **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، العراق، دط، 1981م

10- ماثيو أرنولد: **فصول في النّقد**، ترجمة علي أدهم، مكتبة الأسرة، مصر، ط1 1994م

11- مالك بن نبي: **شروط النهضـــة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر

للطباعة والتوزيع والنشر، سوريا، دط، 1986م

12- هنري بيريس: **الشعر الأندلسي في عصر الطوائـــف**، ترجمة الطاهر أحمد مكي دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، ط5، 1988م

13- ويل ديورانت: **قصـــة الحضـارة**، ترجمة محي الدين صابر، وزكي نجيب محمود دار الجيل للمطبوعات والنشر والتوزيع ، بيروت- لبنان- دط، دت، مج1.

سادسا: المراجع باللغة الأجنبية

1-Huici Miranda, la Cocina hispano magrebi durante la época almohade,Madrid ,1956.

2-John scott :Conceptualising the Social World, principles of sociological Analysis, cambridage university press,new york,2011.

3-Léon L'Africain,Description de L'Afrique,nouvelle édition traduite l'talien par Alescis Epaulard,Adrien- Maisonneuve,Paris 1956.

4-Louis de Mas Latrie :Traite de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge ,Paris,1966.

سابعا: الأطروحات الجامعية

1- إملولي حكيمة: **الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم "العهد الموحدي نموذجا"** مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخـضر، باتنـــة الجزائر، 1429هـ-1430هـ/2008م- 2009م.

2- بلغيت محمد الأمين: **الربط بالغـــرب الإســـلامي ودورها في عصر المرابطـــين والموحدين**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر،1987م.

3- حمادة حمزة: **جماليـــة الرمز الصوفي في ديوان أبي مدين شعـــيب**، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير في الأدب العربي ، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة- الجزائر- 1428هـ-1429هـ/2007م-2008م

4- دحدوح إلهام حسين: **مدينة فاس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصـــية** رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامـــي، جامعة القاهـــرة - مصر- 1421هـ/2000م

5- رافع رضا:**الاقتصاد في المغرب الأقصـــى في عصر الموحـدين**(524هـ-668هـ 1129م-1269م) مذكرة لنيل درجة الماجســتير في التاريخ الوسيـــط ،جامعة الجزائر 2005م-2006م

6- روابحي محمد: **الهرمنيوطيقيا والوعي الفني في الخطاب الفلسفي الغربي المعاصر** مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة وهران- الجزائر- 2012م-2013م.

7- سعود غازي محمد الجودي: **شعر ابن الأبار البلنسي القضاعي**(595هـ-659هـ) دراسة في مضامين الخطاب ومكونات المتن، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية ،1421هـ.

8- سمور قتيبة علي إبراهيم: **العلاقات الحربية بين الموحدين والممالك الإسبـــانية في شمال الأندلس** (540هـ622هـ/1145م-1235م) مذكرة لنيل شهادة الماجـــستير في التاريخ الإسلامي ،كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 1996م.

9- سيدي موسى محمد الشريف: **الحياة الاجتماعية والاقتصادية ببـجاية من عـــهد الموحدين إلى الاحتلال الاسباني** (6هـ-10هـ/12هـ-16هـ)أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط ،جامعة الجزائر،1430هـ-1431هـ/2009م- 2010م.

10- شرقي نوارة: **الحياة الاقتصادية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين** (524هـ -667هـ/1126م-1268م) مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط جامعة الجزائر، 1429هـ/2008م

11- صديقي عبد الجبار: **سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان- الجزائر- 2013م-2014م

12- عبّان عبد الرحمان: **الشعر التعليمي في الأدب الجزائري القديم في عهد الموحدين** ،دراسة في موضوعاته وبُنْيتِه "ابن معطى أنموذجا" مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي ، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة- الجزائر- 1427هـ-1428هـ/ 2007م -2008م

13- عبيدلي أحمد: **الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنَين السادس والسابع** الهجريين" دراسة موضوعية فنية" بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب المغربي القديم، جامعة الحاج لخضر، باتنة- الجزائر- 2004م-2005م.

14-عشي علي :**المغرب الأوسط على عهد الموحدين**"دراسة تحليلية للأوضاع الثقافية والفكرية (من 534هـ/1139م إلى 633هـ/1235م) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط ، جامعة الحاج لخضر، باتنة – الجزائر- 2011م-2012م.

15- العيساوي أم كلثوم: **أدوات الكتابة في الأندلس**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا جامعة محمد الخامس، الرباط- المغرب- 1999م.

16- غربي بغداد: **العلاقات التجارية للدولة الموحدية**، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة، وهران- الجزائر-1435هـ-1436هـ/2014م-2015م

17- الفراجي خالد شكر محمود صالح: **شعر الرصافي الرفاء البلنسي** "دراسة

موضوعية فنية" ، رسالة من متطلبات الحصول على درجة الماجستير آداب ،جامعة ابن رشد، العراق، 2003م

18- لعناني مريامة: **الأسرة الأندلسية في عهدي المرابطين والموحدين**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري ، قسنطينة- الجزائر- دت.

19- بن محمد عبد النبي:**مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقية والأندلس** رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة الإسلامية، جامعة الملك عبد العـزيز، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1979م.

20- محـي الدين محـمد: **الشـــعر الأندلسي في عصر الموحـدين**، مقاربة لفنـونه وخصائصه في الفترة الأولى ، رسالة للحصول على شهادة دكـــتوراه دولة في الأدب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر- 1997م-1998م.

21- النجار ليلى أحمد : **المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي** ، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، 1409هـ/1989م.

22- هدي فاطمة الزهراء: **جمالية الرمز في الشعر الصوفي عند ابن عربي**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر-2006م

23- يحياوي العمري: **الدراهم المغربية والأندلسية المُربعة**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 2003م-2004م.

سابعا: المجلات والدوريات

1- البحرة نصر الدين : عبد الملك بن زهر الأندلسي ومكانـته العلمية، **مجلة التـراث العربي**، دمشق- سوريا- العدد75.

2- برادة رشيدة: الدور التربوي والتعليمي لمؤسسات التعليم العتيق في المغرب الإسلامي

مجلة الجامعة المغاربية، طرابلس- ليبيا- العدد1، 2007م.

3- بوعزيز يحيى: ازدهار الحضارة والفكر الإسلامي في المغرب الإسلامي ودورها في نهضة أوروبا، **مجلة الأصالة**،الجزائر، العدد75، 1979م.

4- جرار صلاح: الحمامات في الأندلس، **مجلة فيصل**، دار الفيصل الثقافية، الرياض المملكة العربية السعودية، العدد40

5- حافظ دياب محمد: النقد الأدبي وعلم الاجتماع، **مجلة فصول**، مصر، العدد1 1985م

6- حسين عبد الهادي: موقف يعقوب المنصور من الظاهرية، **مجلة دار الحديث الحسنية** ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط- المغرب- العدد2، 1981م.

7- زكري لامعة: الحياة الثقافية في الأندلس(7هـ-9هـ/13م-15م) **دورية كان التاريخية** ، العدد18، 1434هـ/2012م

8- العبادي أحمد مختار: مقامة العيد لأبي محمد عبد الله الأزدي(ت750هـ/1350م) صورة من صور الحياة الشعبية في غرناطة، **صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية**، مدريد- اسبانيا- العدد1-2، 1954م

9- عباس إحسان:هل كان للشعر في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها؟ **مجلة الأصالة**، وزارة التعليم العالي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد27، 1395هـ 1975م

10- عبد العليم أنور: الملاحة وعلوم البِحار عند العرب، **مجلة عالم المعرفة**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد13، 1979م

11- بن عدّي نورية: وصف المعارك في الشعر الزياني، **مجلة الفضاء المغاربي** مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر- 1432هـ/2011م.

12- الفريجي عبد الله:الأفكار المُسبـــقة وأسس بناء الوعي، **مجلة النّبأ**، لبنان، عدد ديسمبر، 2001م

13- فيلالي عبد العزيز: تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامـــية، **مجلة الوعي**، الجزائر عدد3-4 ، أفريل- ماي، 2011م

14- **مجلة المشكاة:** ثقافتنا المعاصرة بين الكائن والمُمكن، وجدة- المغرب- عدد14 1991م

15- مرتاض محمد: الصلات الثقافية بين تلمسان وفاس، **مجلة الفضاء المغاربـــي** مجلة دورية محكمة يصدرها مخبر الدراسات الأدبية والـــنقدية وأعلامها في المغرب العربي ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر- 1432هـ/2011م.

ثامنًا: الملتقيات والمؤتمرات

1- رحلة الوارجلاني : تحقيق وتعليق يحيى بن بهون الحاج أمحمد، منشورات **الجزائر عاصمة الثقافة العربية**، 2007م

2- هيفرو ديركي: ابن عربي الأندلسي، سيرته وتجديده في الفكر الصوفي، **ضمـــن فعاليات دمشق عاصمة الثقافة العربية** ،2000م.

تاسعًا: المواقع الإلكترونية

1- حمداوي جميل: مدخل إلى البُنيوية التكوينية، مقال على شبكة الانترنت، **موقع منبر الوطن**.

2- طاهر أحمد: اللغة والفكر، الأربعاء 10ماي 2015م، **Hamed taher.com**

إهداء

شكر وعرفان

مقدّمة..... ..... أ

مدخل: العلاقة بين الوعي والأدب والحضارة..... **1-22**

الفصل الأول: الحياة العامة في عصر الموحدين..... **23-91**

أوّلا- لمحة عامّة عن عهد الموحدين..... **23-54**

1- نبذة تاريخية عن قيام دولة الموحدين:..... 23

2- النظام الإداري..... 27

3- النظام العسكري..... 30

4- الحياة الاجتماعية..... 34

5- الحياة الاقتصادية..... 43

6- البناء والتعمير..... 49

ثانيا: الحياة الفكرية والعلمية..... **53-89**

1- المراكز الثقافية..... 56

2- المؤسسات التعليمية..... 62

3- ميادين الحركة الثقافية والفكرية..... 69

الفصل الثاني: الوعي الاجتماعي في الأدب الموحدي..... **92-178**

أوّلا: العادات والتقاليد..... **92- 110**

1- الزواج..... 92

2- العادات الجنائزية..... 98

3- الأعياد والمواسم..... 101

أ- شهر رمضان..... 101

ب- عيد الفطر..... 104
ج- عيد الأضحى..... 105
د- المولد النبوي الشريف..... 107
هـ- النّيروز..... 109
و- العنصرة..... 110
ثانيا: المجالس الأدبية..... 110-116
1- مجالس أدبية رسمية..... 111
2- مجالس أدبية عامّة..... 115
ثالثا: الحياة اللاهية..... 116-128
1- مجالس اللهو والشراب..... 117
2- مجالس الرقص والغناء..... 128
رابعا: المرأة في الشعر الموحدي..... 128- 150
1- الصورة الجمالية للمرأة الموحدية..... 130
أ- زينة المرأة..... 135
ب- مواقف الوداع..... 137
2- رثاء الزوجات في الشعر الموحدي..... 140
3- المرأة الشاعرة..... 144
خامسا: الإخوانيات..... 150- 172
1- التهنئة..... 151
2- التشوق..... 157
3- العتاب..... 158
4- الاعتذار..... 160

5- الدعوة.....163
6- الشكوى.....164
7- التعازي.....166
سادسا: النقد الاجتماعي.....172
الفصل الثالث:المظاهر الحضارية في الأدب الموحدي.....179- 249
أوّلا: المظهر الديني.....179
ثانيا: المظهر السياسي.....183
ثالثا: المظهر العسكري.....187
رابعا: المظهر الاقتصادي.....202
خامسا: المظهر العمراني.....208
سادسا: المظهر الثقافي:.....240
خاتمة.....248
قائمة المصادر والمراجع.....251
فهرس الموضوعات.....278

الملخص:

يتناول هذا البحث الوعي الحضاري في الأدب الموحدي، وقد تطرقت في ثناياه للحياة الفكرية والعلمية للدولة الموحدية، بالإضافة إلى دراسة الواقع الاجتماعي كما صوّره أدباء هذه المرحلة ، ثم الوقوف على أهم الانجازات الحضارية التي خلفها الموحدون من خلال استنطاق الشواهد الشعرية والنثرية، ذلك أن أدب كل أُمّة ينبع من بيئتها ويعكس واقعها.

الكلمات المفتاحية" :الوعي– الحضارة– الأدب– عهد الموحدين.

Résumé :

Cette recherche traite de la conscience culturelle dans la littérature almohade, et a abordé la vie intellectuelle et scientifique de l'État d'Almohade, en plus d'étudier la réalité sociale dépeinte par les écrivains de cette étape, puis d'identifier les réalisations culturelles les plus importantes laissées par les Almohades à travers l'interrogation de preuves poétiques et prose, parce que la littérature de chaque nation provient de son environnement et reflète sa réalité.

Mots clés: Conscience – Civilisation – Littérature – Le Règne des Almohades.

Summary :

This research deals with cultural awareness in almohad literature, and has touched on the intellectual and scientific life of the Almohad state, in addition to studying the social reality as portrayed by the writers of this stage, and then to identify the most important cultural achievements left by the Almohads through the interrogation of poetic and prose evidence, because the literature of each nation stems from its environment and reflects its reality.

Key words : Awareness– Civilization – Literature – The Reign of the Almohads.